

الأحمدية

أي الإسلام الحقيقي

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني

لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

الأحمدية
أي الإسلام الحقيقي

لحضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني
لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: عبد المجيد عامر

اسم الكتاب: الأحمدية، أي الإسلام الحقيقي
الطبعة الأولى: ١٤٣٦ هـ /٢٠١٥م

Aḥmadiyyat- the True Islam
An Arabic rendering of an Urdu book
Aḥmadiyyat Ya‘nī Ḥaqīqī Islām

by
Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad,
Khalīfatul-Masīḥ II, may Allah be pleased with him,

Translated from Urdu by: Abdul Majeed Amir

First Arabic Translation Published in UK in 2015

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Islamabad, Sheephatch Lane
Tilford, Surrey, GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Tilford

For further information please contact:

Phone: +44 1252 784970
Fa x: +44 1252 781692

www.islamahmadiyya.net

ISBN: 978-1-84880-451-7


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

التعريف بالمؤلف

هو حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد ﷺ (١٨٨٩-١٩٦٥م) الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام وابنه الموعود الذي بشره الله تعالى به كآية لصدق الإسلام، والذي جاء مصداقا لنبأ النبي ﷺ ولبشارات الأنبياء السابقين. وهو نجم ثاقب في سماء الروحانية، وعالم رباني لا يُشقُّ له غبار، زوّده الله تعالى بعلوم القرآن الكريم وتفسيره، وقدّم أعمالا خالدة أصبحت ذخيرة كبيرة لا يسع أي باحث من داخل الجماعة الإسلامية الأحمدية أو من خارجها إلا أن يلجأ إليها ويتزوَّد منها. وقد اعترف بفضله وبسعة علمه معاصروه من خارج الجماعة والمعارضين.

كان قائدا فذًّا تولّى قيادة الجماعة الإسلامية الأحمدية في سن الخامسة والعشرين في ريعان شبابه وكانت الجماعة الإسلامية الأحمدية أيضا في مقتبل أمرها، فرعاها واشتدّت على مدى خمسين عاما من القيادة الروحانية التي كانت في الحقيقة هي عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة التي أنبأ بها النبي ﷺ. لم يقتصر عمل حضرته على رعاية الأسس التي أرساها الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام لنظام الجماعة، بل بفضل ربّه المنان وسّع نطاقها لتشمل مشاريعَ ومنظماتٍ وبرامجَ مستوحاة من روح تعاليمه ورؤيته لإقامة جماعة المؤمنين الأخيرة التي أنبأ بها القرآن الكريم (الجمعة: ٣، ٤) والتي ستكون ملحقة بجماعة الصحابة الأولين.

كان همّه الأول الذي كرّس حياته لأجله هو استكمال مهمة المسيح

الموعود عليه السلام الجسيمة؛ وتبليغ رسالة الإسلام الحقيقي إلى أقاصي الأرض. وليعضّد هذه المهمة فقد أطلق نظام "التحريك الجديد" الذي من خلاله انتشر وما زال ينتشر الدعاة المسلمون المبشرون في جميع أرجاء العالم.

إن ذكاءه الحاد، وبصيرته النافذة، ودراسته المعمقة الواسعة، وفوق ذلك المعرفة الربانية التي وهبه الله تعالى إيّاها مكّنته من إنتاج عددٍ غزير مثمر من كتب وخطب وغيرها من المواضيع البحثية المعرفية التي تعمل الجماعة الإسلامية الأحمدية على نشرها باللغات المختلفة وستستمر في ذلك لعقود.

هو الابن الموعود الذي بشّر به الله تعالى المسيحَ الموعود عليه السلام عندما تضرع عليه السلام إليه سبحانه وتعالى كي يهبه آيةً لنصرة الإسلام، فقد استجاب الله دعاءه وخاطبه بالوحي التالي: "*... وسيكون ذهينا وفهيما بشكل خارق وحليم القلب، سوف يملأ بالعلوم الظاهرة والباطنة... ظهوره جدّ مبارك ومدعاة لظهوره جلال الله تعالى ... سوف ننفخ فيه روحنا..*" (إلهام بتاريخ ٢٠/شباط/١٨٨٦م)

كلمة الناشر

إن لعام ١٩٢٤م أهمية خاصة في تاريخ الجماعة الإسلامية الأحمدية، ففيه أُقيم معرض "ويمبلي" في لندن، وكان ضمن برنامجه عقدُ مؤتمر ديني يُدعى له كبار علماء الأديان المختلفة ليلقوا فيه كلماتهم ويبينوا محاسن أديانهم. ولقد دُعي سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه، إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية أيضا لإلقاء كلمة في هذا المؤتمر. فألّف رضي الله عنه لهذا الغرض كتابا ضخما بعنوان "الأحمدية؛ أي الإسلام الحقيقي" في أقل من أسبوعين (من ٢٤ مايو/ أيار إلى ٦ يونيو/ حزيران ١٩٢٤م بالتحديد) وقرأه في المؤتمر السيد محمد ظفر الله خانْ بحضور سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه.

كانت المحاضرة فريدة من نوعها حتى صرّح كبار الزعماء المسيحيين أيضا عفويًا بأن الأفكار المبيَّنة في المقال فريدة ومتميزة بلا أدنى شك من حيث الترتيب والحجة والجمال. الأمر الذي يدل على أن الله تعالى وفّق إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية لتبليغ دعوة الأحمدية، أي الإسلام الحقيقي، إلى كبار زعماء الأديان العالمية بطريقة اضطرتهم للاعتراف بأن الإسلام دين حق وصادق.

وبعد نهاية المقال قال رئيس المؤتمر: لا حاجة لي للإسهاب في الكلام لأن المقال بنفسه قد جعلكم تعترفون بروعته وحسنه وجماله. وقال شخص آخر كان قد جاء من فرنسا: إنني أقر بأن الإسلام يفوق جميع الأديان حقا. وكان هناك عالم ألماني يعمل أستاذا (جامعيًا) في لندن تقدم إلى المصلح الموعود رضي الله عنه حين كان يغادر بعد المؤتمر وقال له مهنئا: كان كبار الإنجليز جالسين بجواري فرأيت بعضهم يضربون بأيديهم على أفخاذهم ويقولون:

"Rare address, one can not hear such address every day"

"إنه لخطاب فريد، ولا يسع الإنسان أن يسمع مثله كل يوم".

باختصار، كان المقال في بيان محاسن تعليم الإسلام وعظمته من الروعة والجمال بحيث أشاد به المستمعون كلهم وقرّظوا صاحبه.

لقد ألقى سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه في هذا الكتاب ضوءا على مختلف جوانب تعاليم الإسلام بأسلوب خلاب وباهر. فأولا برهن رضي الله عنه في ضوء سورة الصافات على أن القرآن الكريم كان قد تنبأ قبل ١٣ قرنا بعقد مؤتمرات دينية كهذا الذي عُقد الآن. ثم شرح رضي الله عنه معتقدات الجماعة الإسلامية الأحمدية وأثبت بأدلة قاطعة أن الأحمدية والإسلام الحقيقي اسم لمسمًّى واحد. ثم بيَّن أغراضا أربعة للدين، وفي هذا الصدد شرح أولا تصور الإسلام عن الله تعالى، ثم وضح نوعية العلاقة التي يتوقع الإسلام من العبد أن يقيمها مع ربه، والواجبات التي فرضها الله تعالى على العباد. ثم أزال شبهة أن الإسلام يعلِّم بعدم الأخذ بالأسباب الدنيوية ويأمر بترك الأمور كلها على الله عز وجل؛ فقد بيّن رضي الله عنه في ضوء الآيات القرآنية أن الإسلام لا يعلّم ذلك قط، بل يأمر أن يستخدم الإنسانُ الأسبابَ كلها بكل ما في وسعه ثم يتوكل على الله، وأن التوكل لا يعني ترك الأسباب، بل المراد من التوكل هو اليقين الكامل بوجود إله حي.

ثم ألقى رضي الله عنه ضوءا على أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على وصْل الإنسان بالله تعالى، لأن الإسلام وحده يدّعي أن الباحث عن الله تعالى إذا عمل بتعليماته وصل إليه عز وجل حتما، فقال رضي الله عنه:

"لقد كان في الإسلام دائما أناس عملوا بتعاليمه، فصاروا مظاهر لصفات الله تعالى وتصبّغوا بصبغة صفاته أولا، ثم أروا الآخرين وجودَه عز وجل، ووهبوهم معرفة كاملة بوجوده سبحانه وتعالى. فقد بعث الله تعالى في هذا العصر - ليعرف الناس ذاته سبحانه وتعالى ويتخلّصوا من حياة الشك والريبة - المسيحَ الموعود الذي بعمله بتعاليم الإسلام، نال هذه المرتبة التي نالها الأنبياء منذ القِدم."

ثم ناقش ﷺ مفصلا جوانب مختلفة من الأخلاق، وأثبت أن تعليم الإسلام في الأخلاق هو الأفضل والأعلى من جميع الأديان ولا يسع دينا آخر أن يبارزه في ذلك. ثم فصّل طرق التحلي بالأخلاق الحسنة وتجنب الأخلاق السيئة، وبيّن تعليم الإسلام لتحسين الأخلاق.

وبعده برهن على تعليم الإسلام عن التمدن والحضارة وبيَّن الفرق بين الأخلاق والحضارة بأسلوب باهر خلاب، فقال:

"الفرق الوحيد بين الأخلاق والتمدن هو أن علم الأخلاق يناقش طهارة الأفراد، بينما يناقش علم الحضارة والتمدن الطهارةَ القومية".

وقد سلَّط الضوء على كيفية العلاقات بين الناس في المجتمع، وذلك قبل بيانه المبادئ العامة للحضارة. ثم تناول حقوق الرعية والحكومة وواجباهما بالتفصيل. ومن ثَمّ توسع في الموضوع أكثر وشرح نوعية العلاقات بين الحكومات وذكر حلولا يقدمها القرآن الكريم لتسوية الخلافات بين البلاد، وقال بأنه لو أُسِّست هيئة الأمم المتحدة على تلك المبادئ لنجحت في أهدافها.

وفي الجزء الأخير من الكتاب تناول ﷺ الحياة بعد الممات وبيَّن حقيقة الثواب والعقاب في الآخرة.

والملفت في الأمر أنه ﷺ لم يكتف بذكر تعليم المسيح الموعود عليه السلام بل ضرب أيضا أمثلة من سيرة الذين عملوا بذلك التعليم وكيف أهم أحدثوا في أنفسهم ثورة روحانية عظيمة. ثم ذكر تأثير هذا التعليم فيهم حيث ضحّى بعضهم بحياهم ولم يحيدوا عن تعليمه عليه السلام قيد شعرة، واليوم ينال المسلمون الأحمديون نجاحات دينية ودنيوية متتالية بفضل الله تعالى نتيجة عملهم بهذا التعليم.

وفي نهاية المقال دعا ﷺ الناسَ في جميع أنحاء العالم للانضمام إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية وبشرهم أن وقت رفع مصائبهم ومصاعبهم قد حان، وأنهم لو اجتمعوا على يد مبعوث من الله تعالى لنالوا الفلاح في الدين والدنيا.

نودّ أن ننوه هنا إلى أن المحاضر تناول الأحاديث في محاضرته بالمعنى عموما، و لم يقتبسها حرفيا وارتأينا أن نشير إلى مظانها في الحاشية، كما وضعنا بعض الحواشي الأخرى أيضا حيثما اقتضى الأمر.

لقد كان شرف ترجمة هذا الكتاب في نصيب الداعية السيد عبد المجيد عامر، كما ساهم في مراجعته وإخراجه كل من الأستاذة الكرام: داود أحمد عابد، د. وسام البراقي، د. علي البراقي، خالد عزام، غسان النقيب، حسام النقيب، معتز القزق، سامح مصطفى، فتحي عبد السلام، لبنى الجابي، هبة الرحمن الجابي، بشرى عودة، محمود كعكي، هاني طاهر، عبد المؤمن طاهر، ومحمد طاهر نديم، فجزاهم الله أحسن الجزاء.

نسأل الله تعالى أن يوفق القارئ الكريم للاستفادة من هذا الكتاب وما يحويه من علوم ومعارف، وأن يجعله سببا لهداية الباحثين عن صراط الله المستقيم، آمين.

الأحمدية؛ أي الإسلام الحقيقي

(المحرر بين ٢٤ مايو/أيار و٦ حزيران/يونيو ١٩٢٤م)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

بفضل الله ورحمته، هو الناصر

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياه نعبد وإياه نستعين، وإياه ندعو أن يهدينا إلى صراط مستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. اللهم يا ربِّ ألهِمْنا ما يكون فيه رضاك وارزقنا تقواك وصَفِّ خواطرَنا وَنَقِّ أفكارَنا وجَرِّئنا على مقابلة الشر ودواعيه، وشجِّعْنا على مخالفة الخناس ومساعيه.

أما بعد، فنحمد الله تعالى ونشكره شكرا كثيرا الذي خلقنا وأعطانا قوى من شأنها أن توصلنا إلى أعلى مقامات التقدم والرقي، ثم وهب لنا أجنحة العلم والعرفان التي بها نستطيع أن نطير ونصل إلى السماء الروحانية. ونحمد الله الذي كشف لنا أسرار العلاج الروحاني نظرا إلى أخطائنا وتقصيراتنا، وأرسل من عنده أطباء روحانيين فعالجوا أسقامنا واتخذوا الإجراءات اللازمة لزيادة طاقتنا وقوتنا. ثم نشكر الله الذي أودع قلوبنا حبه، وخلق فيها حرقة للقائه عَزَّ وَجَلَّ ثم انجذب إلينا بهذا الحب وأسعدنا بلقائه، وسقانا جام عشقه وأروانا بكأس وصاله، وأطْلع في هذا الزمن المظلم- الذي كان الباحثون عن الروحانية تائهين فيه مثل العميان- شمسَ علمه وبعث مأموره ومرسله سيدنا أحمد عَلَيهِ السَلام من أرض الشرق؛ فشقَّ بأشعة هذه الشمس النورانية ظلمة الوساوس والشكوك. ثم أنزل أمطار رحمته وأرسل رياح فضله، وأروى أرضا ميتة وأخرج زرع الروحانية والتقوى لكي تصبح الدنيا كروضة مخضرة بعدما كانت صحراء

جرداء، ولكي يتنفس الناس الصعداء بعدما ذبلوا وكانوا ميتين. ونصلّي ونسلّم على نبيه محمد ﷺ الذي بواسطته انفجر ينبوع لن يجف أبدا، وفُتح باب علم لن يُغلَق على الطالبين أبدا. وندعو الله تعالى أن يهدي الدنيا، بحسب وعده، إلى الصدق والهداية ويوفقهم لقبول الحق كي يسود الأمنُ والصلحُ والوئامُ العالَمَ كله وتتلاشى منه النزاعات والخصومات اليومية المطردة، ولكي ينال الناس الطمأنينة الحقيقية التي لا تتأتّى أبدا بدون الوصال الإلهي، اللهم آمين.

وبعد ذلك أُبدي بالغ سروري على أن الله تعالى وفّق المشرفين على "مؤتمر الأديان" لعقد الجلسة تأييدا لكلامه الذي أنزله في القرآن الكريم قبل ١٣٠٠ عاما وجاء فيه:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾[1]؛ أي إنني أقدم- المجالسَ التي يجلس فيها الناس في صفوف- شهادةً على أن دين الله تعالى سينتصر في نهاية المطاف، كذلك أقدم تلك الجماعة التي تقوم بترتيباتها ولا تسمح لأحدٍ أن يخرج عن نطاق عملها. وأقدم أولئك الذين يقرؤون عندئذ مقالاتهم حول مزايا الأديان؛ وسيكون مآل كل هذه المساعي إلى أن الله واحد وهو رب السماوات والأرض وما بينهما، وهو رب المشارق (كما هو رب المغارب)، وأن الله تعالى قد زيَّن السماء الدنيا بزينة الكواكب وسخرها حتى تحمي الدين الحق من هجمة كل من يُبعد الناس عن الله ويخرُج عن طاعته.

والآن أتوجه إلى الموضوع الذي طُلب مني أن أتحدث عنه، أي: "الأحمدية".

---

[1] سورة الصافات: ٢-٨

ولكن قبل أن ألقي الضوء على جانبها الديني أرى لزاما أن أتحدث بالإيجاز عن تاريخ الأحمدية وقوتها ونطاق انتشارها في الوقت الحالي.

لقد أسس سيدنا حضرة مرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام الجماعةَ الإسلاميةَ الأحمدية في ٢٣ آذار/مارس ١٨٨٩م وعمره نحو ٥٤ عاما، واتخذ مسقط رأسه "قاديان" التي هي قرية صغيرة تقع على بُعد ١١ ميلا شمال شرق محطة القطار في مدينة "بطاله" (بالهند) مركزا لها. ورغم المعارضة الشديدة التي لقيها من جميع الأديان الموجودة في الهند آنذاك، ورغم عدم التأييد بل العداء أحيانا من قبل الحكومة راحت دائرة انتشار جماعته تتوسع إلى جميع أنحاء الهند، حتى إن عدد أفراد الجماعة الأحمدية حين وفاته عام ١٩٠٨م كان قد بلغ مئات الآلاف. وكانت هذه الجماعة قد خرجت من الهند وانتشرت في بلاد العرب وأفغانستان. وبعد وفاته عليه السلام انتُخب أستاذي المحترم حضرة المولوي نور الدين إماما وخليفة له. وحين توفي مولانا نور الدين رضي الله عنه في عام ١٩١٤م انتُخب هذا العبد المتواضع إماما للجماعة. (علما أن الجماعة تنتخب- على غرار صدر الإسلام- أحدا من أبنائها إماما لها، وليس ضروريا أن يكون من أولاد سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام أو عائلته) كما أن الخليفة الأول رضي الله عنه لم تربطه مع المسيح الموعود عليه السلام علاقة نَسَبٍ أو قرابة، كما ليس ضروريا أيضا أن يكون الخليفة من غير عائلته عليه السلام، (كما أن لي الشرف أن أكون ابنه). وانتشرت هذه الجماعة في العالم كله وبلغ عدد أبنائها أكثر من نصف مليون نسمة معظمهم يوجدون في الهند والمناطق المجاورة لها. وبسبب المعارضة المريرة التي تتلقاها الجماعة، فإن كثيرا من الناس ينضمون إليها خفية ولا يستطيعون أن يعلنوا انتماءهم على الملأ. ويوجد مثل هؤلاء الناس بكثرة بين الهندوس والسيخ والفِرق الأخرى من المسلمين.

تشمل هذه الجماعة أناسا من كل قوم وفئة، العليا منها والدنيا *(اجتماعيا)* كما يزعم الآخرون؛ ففي السنتين الماضيتين قد دخل الجماعة من الفئات التي تُعَدّ أدنى نحو ثلاثة آلاف نسمة في منطقة البنجاب و "يوبي" بالهند. ولا تزال الجماعة تزداد كل شهر باستمرار. كذلك فقد لجأ إلى جناح تربية الجماعة في العام الماضي مئات من الناس من هذه الفئات الدنيا في منطقة حيدر آباد بالهند.

وعلى صعيد البلد توجد الجماعة في كل إقليم من أقاليمه ولا يخلو إقليم من أبنائها. كما توجد الجماعة في كلا الجزأين من أفغانستان؛ أي في المناطق الناطقة بلغة بشتو والناطقة بالفارسية. وفي جنوب الهند توجد الجماعة في سيريلانكا وبورما ماليزيا على سبيل المثال. وفي سيريلانكا تصدر جريدتان للجماعة، جريدة بلغة ملايا وجريدة أخرى بالإنجليزية. مشروع التبليغ في الصين ليس نظاميا حاليا، ولكن يتبين من كتاب ألّفه أحد أعضاء البرلمان التركي حول سياحته في تلك المناطق أن الجماعة موجودة هناك أيضا، وإن لم يتم اتصال مباشر بعدُ بين ذلك الفرع للجماعة الموجود داخل البلاد وبين المركز. ولقد دخل الجماعة بعض الناس في الفلبين وجزيرة سومطرا، كما توجد الجماعة في إيران وبخارى والعراق والموصل والبلاد العربية الأخرى بما فيها الشام. أما في أفريقيا فالجماعة الأحمدية موجودة في مصر وأوغندا وزنجبار، وكذلك في ألمانيا وجزر موريشوس وأميركا الجنوبية والمغرب والجزائر وسيراليون وغانا ونيجيريا. ومراكزنا موجودة في جزر موريشوس ونيجيريا وغانا ومصر بصورة رسمية. وتصدر في جزر موريشوس جريدة في تأييد الجماعة باللغة الفرنسية. وفيما يتعلق ببلاد الغرب فتوجد الجماعة في بريطانيا وفرنسا، ومركزنا في بريطانيا موجود منذ عشر سنوات. وقد تأسس مركز في الولايات المتحدة الأميركية قبل ثلاث سنوات فقط، وقد دخل الجماعة هناك نحو ألف شخص في الولايات المتحدة، كما تصدر من مركزنا هنالك دورية كل ثلاثة

شهور. وإضافة إلى الولايات المتحدة توجد الجماعة في جزيرة ترينيداد، وفي بلاد أميركا الجنوبية مثل البرازيل وكوستاريكا أيضا. ولقد نالت أستراليا، من بين الجزر، حظا وفيرا من هذه النعمة العظيمة، وإننا على يقين كامل بناء على كلام الله تعالى أنه لن تمضي فترة طويلة حتى تنال الدنيا كلها نصيبا من هذه النعمة.

المعتقدات التي تتميز بها الجماعة الإسلامية الأحمدية

لا بد من أن يخطر ببال كل شخص سؤال عن الحاجة إلى تأسيس جماعة جديدة، أي الجماعة الإسلامية الأحمدية، مع وجود جماعات وفرق كثيرة سلفا؟ لذا سأتناول هذه القضية أولا من بين الأمور الدينية.

كل من له علاقة بأي دين موحى به يوقن بأن الأنبياء ظلوا يأتون من الله تعالى بين حين وآخر. ليس في العالم قوم لم يُرسَل إليهم مبعوثون من الله ﷻ. إن رقي العالم وتقدمه منوط بهم فقط. وإذا أُبعد هؤلاء الناس عن خريطة العالم فلا نرى إلا ظلمة فوق ظلمة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]، إن دراسة التاريخ القديم والبحث في علم الآثار يقوي اعتقادنا بهذه الحقيقة أكثر فأكثر. وهذا التحقيق يشكّل أكبر وسيلة على الوحدة بين البشر، الأمر الذي يعود فضله إلى القرآن الكريم الذي بيّن هذه الحقيقة قبل غيره. عندما نتأمل في الهدف من وراء بعثة الأنبياء نجد أن سبب بعثتهم كان دائما عائدا إلى زوال الروحانية من العالم وانقطاع علاقة البشر مع الله تعالى. إن الأنبياء يأتون دائما مثل السحاب بعد انقطاع الغيث لفترة طويلة فيجعل العالم مخضرًّا. إنهم إجابة من الله ﷻ تنزل من السماء نتيجة دعوات الداعين والباحثين عن الحق، أو هم بوق ينفخ فيه الصياد الذي يرى الصيد

[1] سورة فاطر: ٢٥

أمامه، ليجمع زملائه حوله حين ينفصل ويبتعد بعضهم عن بعض في الفلاة أثناء مطاردة صيدهم؛ فبواسطة الأنبياء يجتمع الناس حول الصدق والحق ويتقدمون إلى غايتهم المنشودة.

نعتقد أن سلسلة النبوة هذه كما كانت جارية في الماضي كذلك ستظل جارية في المستقبل أيضا ولن تنقطع أبدا، لأن عقل الإنسان يرفض فكرة انقطاعها. فإذا كان من المقدر أن تأتي في العالم عصور الظلام والبعد عن الله تعالى، فلن تنقطع سلسلة النبوة. وما دام الناس يضلون طريق الحق والسداد بين حين وآخر ويتيهون في فلوات الضلالة، وما دامت الأمنية للوصول إلى الصراط المستقيم تتولد في قلوبهم ويتحرون الهداية، فانقطاع سلسلة النبوة كان مستحيلا؛ لأن ذلك يناقض تماما رحيمية الله بأن يخلق داء ولا يخلق له دواء، وأن يخلق اضطرابا للقائه ووصاله ثم يقضي على جميع الأسباب المؤدية إلى تحقق ذلك. فهذه الفكرة ليست إلا سوءَ ظنٍّ بينبوع الرحمة، وعلامة العمى الروحاني. فبناء على هذا المبدأ العام نعتقد أن الوقت كان بحاجة إلى هادٍ ومبعوث من الله ليهدي الناس إلى سبله، ويخرجهم من حياة الشك والريبة ويوصلهم إلى مرتبة الثقة واليقين.

أيها الإخوة! إذا كانت الدنيا في حين من الأحيان بحاجة إلى نبي فإنها أحوج ما تكون إليه اليوم. إن أساس الأديان قد نُخِر. ونجد الناس في الدنيا على ثلاثة أنواع: النوع الأول منهم هم الذين تخلوا عن الدين تماما وابتعدوا عن الله نهائيا، أو إنهم يؤمنون بالله سبحانه وتعالى مثل إيمانهم بالجبال والبحار، لأن وجود الجبال أو البحار لا يغيِّر في حياتهم اليومية شيئا، أي أنهم لو تبنّوا فكرة أن الله ليس موجودا أصلا لما أحدث ذلك من تغيّر في أعمالهم، والذين يؤمنون حاليا بوجود الله سبحانه وتعالى لم يغيّر ذلك في أعمالهم شيئا. إن هؤلاء الناس يصلون إلى حد

القول بأننا لا نريد أن نتخلى عن حريتنا من أجل الله أيضا، ولا نريد أن نُذلِّلَ أنانيتنا بالدعاء والتواضع لله.

والنوع الثاني من الناس هم أولئك الذين يؤمنون بالله تعالى وبقواه العظيمة أيضا ولكنهم مثل العطشان الذي يضل طريقه في وسط كثبان الصحراء ولا يعثر على قطرة ماء حتى بعد التيه إلى عدة أميال. وبقدر ما يبحث عن الماء يظل عطشه في ازدياد ويشتد قلقه واضطرابه، فلا ينفعه تيهه وركضه في طول الصحراء وعرضها لأنه يركض من سراب إلى سراب ويظل يبتعد عن الماء، فيقترب من الموت في نهاية المطاف.

النوع الثالث منهم فرحون بحظهم ومقتنعون بحالهم، ولكن ليس لأنهم يحسبون أنهم قد قضوا نحبهم في أداء جميع مقتضيات فطرتهم، بل لأنه قد فُتّ في عضدهم وسواعدهم، ويئسوا من فضل الله ويظنون أن أفضال الله تعالى قد اقتصرت على من سبقوهم، ويحسبون أنفسهم مثل ربيبه الذي لا يورثه من ماله فيكتفي بما وصل إليه من مائدة القدامى.

الحق أن كلا من الأنواع الثلاثة المذكورة آنفا غير طبيعي، إذ لا ينفع النوعَ الأول عدم اكتراثهم، ولا ينفع النوع الثاني جهدهم الفارغ الذي لا جدوى منه، كما لا ينفع النوع الثالث قناعتهم. الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينفع هو معرفة الله تعالى التي تمحو جميع الظلمات وترفع الحُجُب بين الله وعبده وتجمع بينهما في مكان واحد، وتقدم الدّين للإنسان بصورة يطمئن إليها قلبه ويقبلها عقله، الأمر الذي لم يحصل للعالم إلى يومنا هذا بدون الأنبياء ولن يحصل في المستقبل أيضا.

أيها الإخوة! فكِّروا قليلا، هل هناك دين يدّعي أتباعه حاليا أنهم نالوا ما ناله العالم فيما سبق بواسطة الأنبياء؟ أليس صحيحا أن الناس مقتنعون أن الإنعامات قد اقتصرت على الذين سبقوهم، أو على من قد تركوا الدين نهائيا؟

أو يزعمون أنهم نالوا كل شيء، ولكن حالتهم كالمتأثِّر الذي يسلِّم تحت تأثير الـمسْمَرِيَّة بوجود عشرات الأشياء غير المعقولة ولا يرى الآخرون منها شيئا. إذا كان هذا المبدأ صحيحا، كما هو بالفعل، فالدنيا اليوم أيضا بحاجة إلى نبي كما كانت في غابر الأزمان. فلهذا السبب تعتقد الجماعة الإسلامية الأحمدية بأن باب النبوة مفتوح منذ الأزل وسيبقى مفتوحا إلى الأبد، وبأن العصر الحاضر يشهد بكل شدة بضرورة نبي.

ولكننا لا نؤسس عقيدتنا على شهادة العصر فقط بل إن اعتقادنا مبني على شهادة الأنبياء السابقين أيضا. إذ نجد أن الزعماء في كل دين قد أنبأوا عن نبي سيأتي. ففي الهندوسية هناك نبأ عن "كلنك أوتار" الذي لا يزال أتباعها ينتظرونه إلى اليوم، وفي المسيحية نبأ عن البعثة الثانية للمسيح الناصري، وفي الإسلام نبأ عن المهدي والمسيح الموعود، وعند أتباع الزرادشتية أنباء عن "موسيو دربهمي". فلو كانت سلسلة النبوة قد انقطعت من الدنيا نهائيا فلماذا وكيف اتفقت كل الشعوب على بعثة شخص في المستقبل؟

والأمر الغريب الذي نجده في كل هذه الأنباء هو أن العلامات المذكورة فيها عن الأنبياء الموعود مجيئهم يشبه بعضها بعضا. فكل الأنباء تتحدث عن كثرة السيئات والأمراض في ذلك الزمن المعين، بالإضافة إلى سقوط الشهب وخسوف القمر وكسوف الشمس، ونشوب الحروب وهلم جرا، كما تتفق الأنباء كلها على مهمة واحدة لهؤلاء الموعودين، وهي أنه بمجيئهم سوف يسود الصدق في العالم، وينال الدينُ الحق غلبةً غير عادية وغير معهودة على الأديان الأخرى.

إن تحقق هذه النبوءات يؤكد من ناحية على أنها ليست من قبيل الكذب والافتراء، ومن ناحية ثانية فإن المهمة الموكلة إلى هؤلاء الموعودين تجعل من المستحيل أن يجعلَ، في وقت متزامن، كل منهم دينه غالبا على الأديان الأخرى،

فالنتيجة الحتمية التي يمكن استنتاجها هي أن كل هذه الأنباء تتحدث عن شخص واحد سوف يُبعث ليجمع بقوته القدسية جميع الأديان تحت راية دين واحد، لتهتدي الشعوب كلها بواسطته إلى الصراط المستقيم.

ولكن كما يتبين أن كل هذه النبوءات تتحدث عن شخص واحد، كذلك يبدو منها جليا أن ذلك الموعود سوف يتحلّى بصفات تجعل كل شعبٍ يحسبه الموعودَ الذي كانوا ينتظرون بعثته فيهم. فتكون له صلة مع الهندوس بحيث يحسبونه "كلنك أوتار"، وتكون له علاقة مع الفرس وسيحسبونه "موسيو دربهمي" لهم، كما يكون على صلة مع المسلمين فيُعّدونه "مهديَّهم"، ويكون له علاقة مع المسيحيين فيعتبرونه مسيحهم. وهذه العلاقة لا يمكن أن تتحقق إلا أن يُنسب هذا الموعود الوحيد إلى شعوب مختلفة بأسمائه المختلفة؛ فيرتبطَ بقوم من حيث الدين، وبقوم آخر من حيث العرق، وبآخر من حيث البلد، وبقوم غيره من حيث الصلة السياسية أو الحضارية، حتى يعُدّه كل قوم موعودهم.

نحن- أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية- نعتقد أن كل هذه الأمور قد اجتمعت في شخص سيدنا مرزا غلام أحمد، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. فقد بعثه الله تعالى لإصلاح مفاسد هذا العصر. فبحسب إعلانه كان مسيحا للمسيحيين، وكان مهديا للمسلمين، وكرشنا أو "كلنك أوتار" للهندوس، و"موسيو دربهمي" لأتباع الزرادشتية.

باختصار، كان نبيا موعودا لكل أمة، وبُعث لجمع العالم كله تحت راية دين واحد. وقد حقق الله تعالى في شخصه آمال جميع الأمم وأمانيها. فكان منارة الصلح، فاجتمعت كل أمة تحتها وخضعت أمام خالقها، وكان كنافذة شاهدَ من خلالها كلٌّ قوم ربَّهم، فكان النقطة المركزية التي تمركزت فيها خطوط الدوائر كلها. وإن أمن الدنيا وسلامها منوط به وحده. فكان موعودا للزرادشتيين لكونه فارسي الأصل، وكان موعودا للهنود لكونه من الهند، وكان

موعودَ المسلمين ومسيحا لهم لكونه مسلما، ولحيازته على اسم "المسيح" ولمجيئه بعلاج العيوب الحضارية الموجودة في البلاد المسيحية التي أثقلت كاهل الشعوب الغربية، ولولادته في عهد الحكومة المسيحية، ولتبرئته ساحة المسيح عليه السلام من هجمات كانت تُصوَّب إليه منذ آلاف السنين استحق أن يُدعى موعودا للمسيحيين. ولا يقتصر الأمر على هذه الشعوب الأربعة فحسب، بل قد تحققت في شخصه كافة الأنباء القديمة لجميع الشعوب على وجه الأرض، وفي شخصه تحققت آمال الدنيا كلها.

إن جميع النبوءات التي أنبأ بها الأنبياء السابقون قد تحققت في شخصه وعلى يده. وقبيل وقوع هذه النبوءات أخبره الله من جديد بقرب وقوعها وتحققها، وبذلك قد أثبت عز وجل أن هذا الموعود وحده يستحق أن تتحقق في شخصه كل تلك النبوءات.

لقد جاء في النبوءات السابقة أن الموعود سوف يُبعث في الشرق[1]؛ فقد بُعث سيدنا مرزا غلام أحمد عليه السلام في الشرق. وقيل في الأنباء القديمة إن الكذابين سوف يظهرون قبل بعثة المسيح الصادق[2]؛ وهكذا كان؛ إذ قد ادعى كثير من الكذابين وأوشك بعضهم أن يضلوا كثيرا من العقلاء أيضا. وقد اندلعت الحروب، وتفشى الطاعون، ووقعت المجاعة، ولكن في نهاية المطاف ظهرت علامة ذكرها إجمالًا الإنجيل و"جاباسي" (كتاب الزرادشتيين) بأن الشمس والقمر سينخسفان. وقد تناولتها الكتب الإسلامية بوضوح أكثر حيث جاء فيها: "إن لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلق السماوات والأرض، ينخسف القمر لأول ليلة من رمضان، وتنكسف الشمس في النصف منه"[3]. فتحققت

---

[1] إِنْجِيلُ مَتَّى ٢٤ : ٢٧

[2] إِنْجِيلُ مَرْقُسَ ١٣: ٢٢-٢٣

[3] سنن الدارقطني، كتاب العيدين، باب صفة صلاة الخسوف والكسوف وهيئتهما.

هذه الآية أيضا، الأمر الذي انفرد به حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام من بين جميع المدعين الذين ادَّعوا كونهم مسيحا أو مهديا؛ فحدث هذا الكسوف والخسوف في رمضان في العام الرابع بعد دعواه عليه السلام وفي الأيام المحددة تماما كما ذُكر في الأحاديث. والغريب في الأمر أنه قد خلا كثير ممن ادعوا كونهم المسيح والمهدي ولكن هذه الآية لم تظهر في زمن أي منهم.

ولقد ظهرت للعيان في زمنه عليه السلام تلك الحالة غير العادية التي ذُكرت في الكتب السابقة، و لم تظهر في الدنيا قبل هذا الزمن قط؛ فقد قيل بأن الأمن والوئام سوف يسودان ذلك الزمن حتى يلعب الصبيان مع الأفاعي، وترعى الشياه مع الذئاب دون أدنى خوف أو وجلٍ[1]. وستكثر الحروب أيضا[2]؛ أي يتزامن الأمن مع الحروب في الوقت نفسه. فمما لا شك فيه أن هذا الأمر ملحوظ بكل وضوح في هذه الأيام. فمن ناحية نرى نزعات حب الوطن قد بلغت ذروتها، وتحسنت النُظم الداخلية لكثير من الشعوب مقارنة مع ما كانت عليه في الأزمنة الغابرة؛ فتلاشت في هذه الأيام في معظم بقاع الدنيا الخصومات والحروب وأعمال النهب والسرقة التي كانت سائدة في البلاد في الماضي، ولكن مقابل ذلك تدهورت العلاقات بشدة بين الدول والأمم وكل قوم يهاب قوما آخرين، وقد بلغ التحاسد بين الشعوب منتهاه.

إضافة إلى ذلك توجد في كتب المسلمين نبوءات مفصلة عن الموعود المقبل، وقد تحققت كلها بشكل أو بآخر؛ منها أنه في زمن ولادته تُختَرع مراكب جديدة وتُترك القلاص[3]، وقد اختُرع القطار تحقيقا لهذا النبأ. ثم قيل إنه ستُكتشَف وسائل اتصالات وإعلام تُطلعنا على الأخبار العالمية في لحظة

[1] مسند أحمد بن حنبل المجلد الثاني ص ٤٣٧

[2] صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار.

[3] صحيح مسلم، كتاب الإيمان.

واحدة[1]؛ فاكتُشف نظام البرقية واللاسلكي. وقيل أيضا إن النساء يكثـرن في ذلك الزمن[2]، ويوكل إليهن البيع والشراء في أمور التجارة[3] ويُظهـر لبـاسُ النساء بعض أجزاء أجسادهن (التي كان الناس يرون ضرورة تغطيتها فيما مضى رغم عدم تمسكهم بالحجاب)[4] وقيل بأن ثلاثة شعوب كبرى سوف تحـارب ثلاثةَ شعوب تماثلها، والشعوب الثلاثة المنتصرة منها سـوف تتـسلط علـى القسطنطينية[5]، ويفر شخص من القسطنطينية إلى الشام ويشن الحرب من هناك ويستعيد بلاده. وقيل إن النصارى في ذلك الوقت يكونـون غـالبين علـى الشعوب الأخرى[6]. وتنفصل المناطق العربية عن سائر الأقاليم، وتقوم في العراق والشام ومصر حكومات منفصلة ومستقلة[7]. ويقصِّر قوم الشهور[8]. وتُهمَـل الحدودُ الشرعية[9]. وينتشر القمار على نطاق واسع[10] وتكثر الشرطة[11]. وتكثر ظاهرة لبس النساءِ ألبسة الرجال[12]. ويكون الحكم في أيدي الأُجَراء[13]. ويرى

---

1 بحار الأنوار، للشيخ محمد باقر المجلسي، ج٥٣، ص ٢٨٥، طبعة لبنان عام ١٩٨٣م.

2 سنن ابن ماجه، كتاب الفتن.

3 كنْز العمال ج١٤ رقم الحديث ٣٩٦٣٩

4 مسلم، كتاب اللباس، باب النساء الكاسيات العاريات والمائلات والمميلات.

5 مسلم ،كتاب الفتن، باب في فتح قسطنطينية.

6 مسلم، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس.

7 مسلم كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب.

8 صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار.

9 كنْز العمال، ج١٤، رقم الحديث ٣٩٦٣٩

10 المرجع السابق.

11 المرجع السابق.

12 المرجع السابق.

13 سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب أشراط الساعة.

الأثرياء دفع الزكاة من أموالهم من أجل الفقراء عبئا عليهم[1]. تختفي الحكومات الإسلامية[2]. وتتدهور حالة العرب الدينية[3]. وتتكلم الأشياء التي لا حياة فيها[4]. وفي ذلك إشارة إلى اختراع الفونوغراف (قارئ الأسطوانات) وغيره من وسائل الاتصالات الحديثة. وستُخترع مراكب لم تكن في الدنيا من قبل[5]، وهنا أشير إلى اكتشاف الطائرات وغيرها من المراكب الحديثة. ويُجمع بين نهرين تفصلهما منطقة برية يوجد في أحد شطريها اللؤلؤ وفي الشطر الثاني المرجان، وتمخر السفن فيها بكثرة[6]. هذه إشارة إلى قناة السويس وقناة بنما. وقيل أيضا إن الكتب والجرائد تُطبع وتُنشر في ذلك الزمن بكثرة[7]. وتكون هناك اكتشافات كثيرة في علم الهيئة[8]. وتُفجَّر الأنهار قنوات[9]. حتى تغدو الأنهار شبه جافة. وتُنسف الجبالُ نسفا[10]. وتكثر عادة السفر[11]. وتُهلك الشعوب الأصلية في بعض البلاد، ويُنهى عن عادة قتل الأرملة بقوة القانون[12]. وهلم جرا.. فكل هذه الأنباء قد تحققت في هذا الزمن.

---

[1] كنْز العمال، ج١٤، رقم الحديث ٣٩٦٣٩

[2] سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب أشراط الساعة.

[3] صحيح البخاري، كتاب الفتن باب قول النبي ﷺ: ويل للعرب من شر قد اقترب.

[4] مشكاة المصابيح، باب أشراط الساعة، الفصل الثاني.

[5] مسلم، كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا ﷺ.

[6] سورة الرحمن: ٢٠-٢٥

[7] سورة التكوير: ١١

[8] سورة التكوير: ١٢

[9] سورة التكوير: ٧

[10] سورة القارعة: ٦ وسورة التكوير: ٤

[11] صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار.

[12] سورة التكوير: ٩ وسورة البروج: ٩

كذلك قيل إن الموعود المنتظَر سوف يعاني من مرضين، مــرض يــصيب الجزء العلوي من جسمه والثاني يصيب الجزء السفلي منه[1]. وأنه يكــون آدم اللون سبط الشعر[2]. وتكون في لسانه لُكنة[3]، وينحدر من عائلــة الحــراث[4]. ويضرب بيده على فخذه عند الحديث[5]. ويظهر من قرية تُــدعى "كدعــة"[6] ويكون جامعا للمهدوية والمسيحية[7]، فهكذا كان. إذ كان سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام مصابا بالدوار في الرأس ومرض السكري، وكــان آدم اللون وسبط الشعر وفي كلامه لكنة بسيطة، وكان من عادته أن يضرب بيــده على فخذه أثناء الكلام. وكان من عائلة الحراث من سكان قاديان التي كــان عامة الناس يسمونها "كادي". فلو ألقينا نظرة شاملة وجامعة على كل هــذه النبوءات لوجدنا أنها لا تنطبق على أي عصر إلا عصرنا هذا، كما لا تنطبــق على أي شخص إلا شخصه عليه السلام. ويتبين بوضوح أن هذا العصر هو عــصر بعثة الموعود الذي أنبأ الأنبياء السابقون بمجيئه، وأنه عليه السلام هو ذلك الموعــود

1 مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة ،باب ذكر الدجال.

2 صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال.

3 لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للشيخ محمد بن أحمد السفاريني، ج ٢ ص ٧١، طبعة مصر ١٣٢٤هـ/ اقتراب الساعة لنواب محمد صِدّيق حسن خان ص٦٣، مطبعة مفيد عام آغرا ، بالهند ١٣٠١ هـ.

4 مشكاة المصابيح، باب أشراط الساعة، الفصل الثاني.

٣٨ لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للشيخ محمد بن أحمد السفاريني، ج ٢ ص ٧١، طبعة مصر ١٣٢٤هـ/ اقتراب الساعة لنواب محمد صِدّيق حسن خان ص٦٣، مطبعة مفيد عام آغرا ، بالهند ١٣٠١ هـ.

6 إرشادات فريدي، للخواجه غلام فريد، ج٣ ص٧٠ مطبعة مفيد آغرا بالهند عام ١٣٢٠ هـ.

7 سنن ابن ماجه، كتاب الفتن.

الذي كان الناس ينتظرونه منذ قرون. وعندما نرى أن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية قد أخبر بتحقق معظمها بوجه خاص-بناء على وحي من الله- قبل ظهورها، بما فيها تفشي الطاعون، والحرب العالمية الأوروبية، وعزل "قيصر روسيا" من الحكم، وزوال الحكم الملكي فيها في المستقبل، والحالة المزرية التي تعرض لها قيصر روسيا وعائلته، وحدوث الزلازل على نطاق عالمي، وانتشار الانفلونزا وغيرها؛ فإن إيماننا يتقوى أكثر فأكثر ونضطر إلى الإيمان بالأنباء وتحققها. كذلك كل من ينظر إلى هذه الأمور بنظرة العدل والإنصاف ولا يتسرع في الحكم بل يحكم بالتدبر والتأمل لا بد أن يصل إلى نتيجة مفادها أن الله تعالى قد حقق آمال جميع الشعوب في شخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. وأن ماء رحمته قد تدفّق وفاض من الجوانب ليروي أرض القلوب المجدبة. فطوبى للذي يجمع هذا الماء في حقله، ويترك العناد والاستكبار، ويؤثر الدينَ على الدنيا.

وبعد بيان أن الجماعة الإسلامية الأحمدية تميَّزت عن الأديان أو المذاهب الأخرى بما شهدت من آيات ذُكرت علامات المصلح الذي يُبعث في الزمن الأخير، وقبلتْ إعلان حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام، فلم تعد تنتظر مصلحا آخر مثل بقية الشعوب والأمم، أود الآن أن أبين الهدف من بعثته كما ذكره سيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.

يقول حضرته عليه السلام ما تعريبه:

"المهمة التي بعثني الله سبحانه وتعالى لإنجازها هي أن أزيل التكدُّر الحادث في العلاقة بين الله وخلقه، وأقيم صلة الحب والإخلاص من جديد، وألغي الحروب الدينية بإظهار الحق وأضع أساسا للصلح، وأظهر الحقائق الدينية التي اختفت عن أعين العالم، وأُرِي نموذج الروحانية التي اختفت تحت ظلمات النفس. وأن أبين بالحال لا بالقال كيفية القدرات الإلهية التي تغمر الإنسان ثم تظهر للعيان

بالتركيز أو الدعاء. والأهم من كل ذلك أن أغرس في الشعوب إلى الأبد غرسة التوحيد الخالص والناصع والمنـــزه عن كل شوائب الشرك، والذي غاب عـــن أعين الناس في هذه الأيام. ولكن كل ذلك لن يحدث بقوتي أنا بل بقـــوة الله الذي هو رب السماء والأرض"[1].

ثم يقول عليه السلام: "لقد أمرني الله تعالى أن أنذر الضالين، وأخرج القابعين في الظلمات إلى النور"[2].

ثم يقول عليه السلام: "لقد بعثني الله عز وجل لأصلح هذه الحالة الخطـــيرة وأرشـــد الناس إلى سبيل التوحيد الخالص، لذا فقد وضَّحتُ كل شيء. وقد أُرسِـــلتُ لأعزِّزَ الإيمان وأثبت للناس وجود الله عز وجل، فقد أصاب الحالة الإيمانية ضـــعف شديد في جميع الأقوام، وقد اعتُبِر عالَم الآخرة محض خيال. وحال كل إنسان يدل على عدم تحليه باليقين والثقة بالله سبحانه وتعالى واليوم الآخر مثل يقينه وثقته بالدنيا وثرواتها وأسبابها. كَثُر تشدُّق الناس باللسان، لكن حب الدنيا مسيطر علـــى القلوب؛ وعلى هذه الحال نفسها وجَد المسيحُ الناصري عليه السلام اليهـــودَ، وقـــد ساءت حالتهم الأخلاقية كثيرا وفترت محبة الله فيهم كما هو مقتضى ضـــعف الإيمان. والحالة نفسها تسود زمني. لقد أُرسِلت ليعود عصر الحق والإيمان من جديد. وقد أُخبِرت أن السماء سوف تدنو من الأرض مرة أخرى بعـــد مـــا بعُدت عنها بُعدا. فقد جئتُ لأجدد هذه الأمور، وهذه هي المهمـــات الـــتي أُرسلتُ من أجلها."[3].

ثم يقول حضرته عليه السلام إنه أُرسل إلى الدنيا لكي:

---

[1] محاضرة لاهور، الخزائن الروحانية ج٢٠ ص١٨٠

[2] كتاب البرية، الخزائن الروحانية ج١٣ ص٢٩٠، الهامش.

[3] كتاب البرية، الخزائن الروحانية ج١٣ ص٢٩١-٢٩٤، الهامش.

"يجذبها إلى الحقيقة الأخلاقية والعقدية والعلمية والعملية، ولكي يُجذَب الناسُ بجذب خاص فيحصلوا على القوة للعمل بكل هذه الأمور."[1].

ثم يقول حضرته عليه السلام بأنه سيكون من أولاده شخص يكون سببا لفك رقاب الأسارى[2]. أي بواسطته سوف تنجو من الظلم والاضطهاد كثير من الشعوب والأحزاب والفئات والبلاد التي كانت ترضخ وتئن تحت وطأة اضطهاد الشعوب أو الفئات أو البلاد الأخرى، وتتحرر من ربقة الأسر، وسينجيها الله من كروبها ويكتب لها حياة السعادة والبحبوحة.

ثم يقول عليه السلام إن من أهدافه:

أولا: "أن يقيم حجة صدق الإسلام على جميع الشعوب."[3].

ثانيا: "أن ينزه الإسلام من الشوائب والإلحاقات ويقدم لخلق الله التعليمَ الزاخرَ بروح الصدق والحق."[4].

ثالثا: "أن يهب نور الإيمان للقلوب المستعدة من جميع الشعوب والأمم."[5]

يتبين من كل هذه الدعاوى أن مهمته كانت إقامة التوحيد الكامل والتقوى والحسنات، وخلق خشية الله في القلوب، وتوطيد علاقة الناس مع الله عز وجل، وتزويدهم بالإيمان الحق بإزالة الشك والريبة، وإخراج القلوب من حالة القلق إلى الطمأنينة والراحة، والكشف عن العلوم السماوية، وحل المعضلات الأخلاقية والروحانية والعلمية والعملية، وإنقاذ المضطهدين بالحربة السماوية،

[1] مجلة مقارنة الأديان (أردو) المجلد الأول، ١ كانون الثاني ١٩٠٢م ص٣

[2] تلخيصا من "التذكرة"، مجموعة الرؤى والكشوف للمسيح الموعود عليه السلام، ص١٣٩، الطبعة الرابعة.

[3] إزالة الأوهام، الخزائن الروحانية ج٣، ص ١٣٢

[4] المرجع السابق.

[5] المرجع السابق.

وإعادة الحقوق إلى الذين سُلبت منهم، ورفع الحروب والفساد من الدنيا وإرساء دعائم الصلح بين الناس، وجمع العالم كله على دين واحد وكلمة واحدة، وإبلاغ الحق والصدق إلى جميع الشعوب، وتنزيه الإسلام من الشوائب، وتقديم علومه ومعارفه الحقة إلى العالم، وإظهار جلال الله سُبحانه وتعالى على الناس من خلال إراءة آياته عزّ وجلّ.

ما أروع المهمة! وما أكثر مستقبلها إشراقًا! ولكن السؤال هو: هل خلا من مدَّعٍ إلى يومنا هذا قال عكس ذلك؟ بل كل مدعٍ يعرض على الناس مثل هذه الأهداف الرائعة ويعدهم بالمستقبل المشرق دائما، وإلا لن يتوجه الناس إليه أبدا. وفي العصر الحاضر خاصة الذي يعتمد فيه كل أمر على الدعاية ونشر الأفكار، فإن مثل هذه الإعلانات الجذابة أصبحت ضرورية أكثر من ذي قبل. إذًا، فلو ظلت دعواه مقتصرة على الإعلانات والهتافات فحسب لما كانت شيئا يُعتد به مطلقا، ولما نالت أهمية وتفوقا على دعاوى غيره من المدعين. ولكن، كما سأخبركم لاحقا، إنه عليه السلام أعطى تعليما وأرسى مبادئ يستطيع كل ذي عقل سليم أن يعرف بوضوح أنها تضمن تحقق أهداف حددها سببا لبعثته.

ولكن مسألة أخرى تطل برأسها في هذا المقام، وأرى أن استيعاب الناس هذه المسألة صعب للغاية. ولكن بدون استيعابها لا يمكن إدراك حقيقة الأحمدية. والمسألة هي: إذا كان مؤسس الجماعة الأحمدية عليه السلام قد أعلن أنه جاء لنشر علوم القرآن الكريم ويعُدّ نفسه مسلما، وفردا من أمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما الحاجة إليه وما أهمية هذه الجماعة؟ ففي هذه الحالة ليست أهميته عليه السلام بأكثر من أهمية عالِم أو أحد من المتصوفين، وكذلك لا تحتل جماعته إلا مرتبة جماعة فكرية من الدرجة الثانية فقط. ولكن هذه الفكرة بعيدة عن الصدق كل البعد وتحرم الباحث كليا من فهم حقيقة الأحمدية.

الحق أن الجماعة الإسلامية الأحمدية تعتقد أن الأنبياء على نوعين، الأول: الأنبياء الذين يأتون بشريعة، والثاني: الذين يأتون لإقامة الشريعة السابقة، وينَزِّهون الدين من العيوب المتسربة إليه بمرور الوقت. وقد اتفقت جميع الأديان على هذه النقطة، والسلسلةُ الموسوية خير دليل على هذا الفرق بين الأنبياء. فكان سيدنا موسى عليه السلام نبيا مشرعا، وكان سيدنا هارون في زمنه، ثم جاء حضرة يوشع، ثم تلاه الأنبياء الآخرون بمن فيهم سيدنا عيسى عليه السلام، فكلهم جاءوا لإقامة شريعة موسى عليه السلام. يقول عيسى عليه السلام: "لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ، مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ."[1]. من المعلوم أن شريعة موسى كانت سارية المفعول إلى زمن عيسى عليه السلام وحوارييه أيضا. ويتبين ذلك من نصيحته عليه السلام لتلاميذه وغيرهم إذ قال: "عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ، فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ."[2].

لا شك في أنه يقال عن بعض تعاليم المسيح عليه السلام إنها تختلف عن التوراة، ولكن لو أمعنا النظر في التوراة لوجدنا بذرها موجودة فيها. بل قال المسيح عليه السلام عن هذه التعاليم بأنها ليست جديدة بل هي نفسها التي ذُكرت من قبل في التوراة. فيقول عليه السلام في الوعظ على الجبل الذي اعتبرت نصائحه فيه مختلفة عن التوراة: "هذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ"[3].

باختصار، الأنبياء نوعان: الأول؛ الذين يأتون بشريعة جديدة مثل موسى عليه السلام، والثاني: الذين يقيمون الشريعة السابقة- بعد أن تكون قد ابتعدت عن الحقيقة بسبب تسرب أفكار الناس إليها- مثل إِيلِيا، وإِشَعْيَا، وحِزْقِيَال، ودَانِيال

[1] إنجيل متى ٥: ١٧
[2] إنجيل متى ٢٣: ٢-٣
[3] إنجيل متى ٧: ١٢

والمسيح الناصري عليهم السلام. لقد ادّعى سيدنا مرزا غلام أحمد أنه نبي من النوع الثاني. وقد ادعى بشكل خاص أنه الخليفة الأخير في الإسلام كما كان المسيح الناصري عليه السلام الخليفة الأخير في السلسلة الموسوية. لذا يجب اعتبار مكانة الجماعة الإسلامية الأحمدية من الفرق الإسلامية كمكانة المسيحية من اليهودية.

إننا نوقن أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ كان مصداقا لنبوءة موسى عليه السلام الواردة في سفر التثنية: ١٨:١٨ والقائلة ببعثة نبي- مثيل موسى وصاحب شريعة- من إخوة بني إسرائيل. ونعتقد أنه ﷺ جاء بشريعة جديدة وكان من بني إسماعيل أي من إخوة بني إسرائيل. يورد القرآن الكريم كونه ﷺ مصداقا لهذه النبوءة قائلا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾[1]. فإذا كان النبي ﷺ مثيلا لموسى فلا بد من الاعتراف أيضا أن يجيء المسيح الثاني الموعود به لترويج شريعته ﷺ، كما جاء المسيح الناصري لإقامة شريعة التوراة في الدنيا. وإن صلة جماعة المسيح الموعود في الأمة المحمدية بالإسلام كصلة المسيحية مع اليهودية في القرون الأولى.

بعد هذا الشرح تكون قد اتضحت لكم جيدا طبيعة العلاقة بين الأحمدية والإسلام، ولكن قد لا تكون قد اتضحت بعد ما هي أهمية الأحمدية. لقد أشرتُ من قبل إلى أن مهمة الأنبياء الذين يُبعثون بلا شريعة هي الكشفُ عن وجه الحقيقة بتنْزيه الدين من الأفكار الخاطئة التي تتسرب إليه بمرور الوقت. وإنها لمهمة كبيرة بلا شك، لأن البحث والوصول إلى شيء قديم عند الحاجة إليه مهمة جليلة مثل إيجاد شيء جديد. ولكننا نرى أن مهمة سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود كانت أكبر منها أيضا. ولفهم هذه المهمة يجب أن تُفهمَ مكانة القرآن الكريم عندنا. إننا نعتقد- على عكس غيرنا من المسلمين-

[1] سورة المزمل: ١٦

أن معارف القرآن الكريم لم تقتصر على الأزمنة الغابرة، بل القرآن الكريم كلام الله الكاملُ. وللكمال شرط وهو كما أن فضل الله كنْز غير محدود من العجائب التي تظهر عند الضرورة، كذلك إن كلام الله (القرآن الكريم) كنْز غير محدود من عجائب الله الذي يصف العلاج عند كل ضرورة روحانية وأخلاقية. لا يخلق الله في الدنيا أشياء جديدة منذ أن خلقها ولكن كل شيء فيها يتضمن الكثير من الأسرار والعجائب، ولا يوجد في العالم شيء لا يمكن القول بأن الاكتشافات قد انتهت عليه وأنه لا يمكن بعد الآن الاطلاع على قوة جديدة أو فائدة جديدة فيه. والمعلوم أن الأسرار الدقيقة الموجودة في جسم الإنسان أيضا لم تُكشف بكاملها بعد، دونك أن يكتشف الإنسان ويستوعب الأسرار الموجودة في غيره. فإذا كان هذا هو حال قانون الطبيعة الذي خُلق لمنفعة مؤقتة فكم حريٌّ أن يكون الكلام الإلهي، الذي ينوب عن المعالج الروحاني، محتويا على العجائب والأسرار والمنافع! وكم حريٌّ أن يكون كنز قواه المستورة غير محدود! إننا نعتقد أن كل إنسان عاقل يعتقد أنه لا بد من وجود هذه المزية في الكلام الكامل، والكلام الذي لا توجد فيه هذه المزية لا يمكن أن يكون كلام الله تعالى مطلقا.

يقول سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام مخاطبا معارضيه الذين كانوا يظنون أن علوم القرآن ومعارفه قد انتهت عند الذين سبقونا:

"ليكن معلوما أن إعجاز القرآن الواضح والبيِّن على كل قوم وكافة أصحاب اللغات، والذي بتقديمه يمكننا أن نُفحم كل شخص ونُدينه ونُسكته سواء أكان هنديا أو فارسيا أو أوروبيا أو أميركيًّا أو من أي بلد آخر، هو أن معارفه وحقائقه وعلومه الحكيمة اللامحدودة تُكشف بحسب حاجة كل عصر، وهي مستعدة كجنود مدَجّجين لمواجهة الأفكار المتجددة في كل زمن. ولو كان القرآن محدودا من حيث حقائقه ودقائقه لما عُدّ معجزة تامة قط. البلاغة

والفصاحة وحدها ليست بالأمر الذي يمكن أن يدرك كلُ مثقف وغير مثقف وجه إعجازها، إنما الإعجاز المبين هو أنه يضم في طياته معارف ودقائق غير محدودة. والذي لا يعترف بهذا الإعجاز القرآني فهو محروم تماما من علم القرآن الكريم. ومن لم يؤمن بذلك الإعجاز فوالله ما قدر القرآن حقّ قدره، وما عرف الله حقّ معرفته، وما وقّر الرسول حق توقيره.

يا عباد الله، اعلموا يقينا أن إعجاز القرآن الكريم من حيث المعارف والحقائق غير المحدودة إعجاز كامل قد عمل في كل عصر أكثر من عمل السيف. وفيه ردٌّ كامل ودفاع كامل وحجة كاملة على ما يأتي به كل عصر من الشبهات نتيجة ظروفه المتجددة، أو ما يدّعيه من المعارف السامية. لا يسع أحدا سواء أكان من أتباع طائفة الـ "براهمو" أو البوذية أو الآريا أو فيلسوفا من طراز آخر، أن يستخرج حقائق ربانية لم توجد في القرآن الكريم مسبقا. إن عجائب القرآن الكريم لن تنتهي أبدا. كما لم تقتصر عجائب صحيفة الفطرة وغرائبها على زمن خلا، بل تتجدد دائما، وكذلك الحال بالنسبة إلى هذه الصحف المطهرة، وذلك ليتحقق الانسجام التام بين قول الله تعالى وفعله."[1]

هذه هي النقطة العظيمة التي قدمها المسيح الموعود عليه السلام أمام العالم. كان المسلمون يظنون أن القرآن كامل، ولكن لم يخطر ببالهم منذ ١٣ قرنا أنه ليس كاملا فحسب، بل هو ذلك الكنز الذي أُودع أسبابًا خفية لسد حاجات العصور المستقبلية أيضا. وإن التنقيب والبحث في مضامينه سوف يؤديان إلى انكشاف علوم متجددة مثلما ينكشف إثر التدبر في الطبيعة بل أكثر منها. وببيانه هذا فقد فتح مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية في العالَم الروحاني البابَ على مصراعيه لاكتشافات لا تضاهيها الاكتشافات العلمية. لم تقتصر مهمة مؤسس الجماعة على تصحيح المسائل التي تسرب إليها الفساد بمرور

---

[1] إزالة الأوهام، الخزائن الروحانية ج٣، ص٢٥٥-٢٥٩

الوقت فقط بل قدّم حضرته عليه السلام أيضا القرآن الكريمَ إلى العالَم بصورة سُدَّت بواسطته جميع حاجات الدهر الذهنية والعلمية التي كانت تطل برأسها بسبب الظروف المتجددة، كذلك عُثِر على مفتاح لحل كافة المشاكل في المستقبل أيضا.

مما لا شك فيه أن الدنيا في أيامنا هذه تهيم كالعطشان للعثور على بعض الحقائق ولحل بعض المشاكل الاجتماعية، وقد تبرَّأَ بعض الناس من كتبهم الدينية حين لم يجدوا حلولا لمشاكلهم، وبعضهم يميلون إلى اختراع شرائع جديدة فيزيدون الدنيا مصائب ومصاعب. ولكن كما سوف يتبين لكم لاحقا فإن حلول كل هذه المشاكل موجودة في التعليم الذي قدمه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية للدنيا. لا شك أن هذا التعليم كان موجودا في القرآن الكريم ولكن كان مَثَل بعض أجزائه كماء زلال خالطته الشوائب من الخارج فكدَّرته تكديرًا، وكان مَثَل الأجزاء الأخرى كمياه جوفية تجري في باطن الأرض دون أن يُعرف وجودها. فطَهَّر مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية الماء المكدر من الشوائب، وأطلَعَنا على المياه الجوفية التي تجري في باطن الأرض، وأزال الحجب عن أعيننا إلى الأبد وفتح علينا باب البحث والتحقيق على مصراعيه، ولكن بشرط المحافظة على صورة الإسلام التي أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون أبدية، وهي الصورة التي رُسمت في زمن رسول الله ﷺ مع سد حاجات الظروف المتجددة باستمرار.

بعد العثور على الحقيقة المذكورة آنفا يسهل جدا أن نفهم أن الجماعة الإسلامية الأحمدية، مع إيمانها الكامل بالقرآن الكريم وكون أفرادها يُدعَون مسلمين، ليست مجرد فرقة بين الفرَق المسلمة الموجودة حاليا بمعناها المعروف بل إنها، بحسب دعواها، جماعة قدَّمت الإسلام الذي وُجد قبل ١٣ قرنا، وقامت لتكشف عن علوم القرآن الكريم غير المحدودة لتشارك الإخوة الآخرين

أيضا في هذه العلوم والمعارف. ولم تظهر الجماعةُ الإسلامية الأحمدية نتيجةَ ارتقاء فكرة معينة، كما إنها ليست ذروة أفكار فرقة معينة، بل هي ثورة جديدة ذات ذراعين؛ فقد اتَّجهت إحدى ذراعيها إلى الماضي السحيق وامتدت إلى ١٣ قرنا مضت وأمسكت به بعزم وقوة، وانطلقت ذراعها الثانية لتحيط وتهتم بالحاجات المعاصرة والمستقبلية. لم تجمع هذه الثورة بين الشرق والغرب فحسب، بل جمعت بين الماضي والمستقبل أيضا. والآن نستطيع أن نقول دون أدنى ريب: إن النبي ﷺ الذي أُنزِلت عليه الشريعة الكاملة الأخيرة كان آدم من حيث تكميله الشريعة، والمسيح الموعود عليه السلام -الذي أرسله الله عز وجل لتوسيع نطاق علوم القرآن ولإظهار حقيقة أن القرآن قادر على سد حاجات جميع العصور- كان آدم من حيث تكميله التبليغ، كما كان آدم الأول تكميلا للبشرية.

كان بيانُ معتقدِ الأحمدية هذا ضروريًا جدًا لأن الأحمدية، كما قلتُ، ليست اسما لدين جديد. ولو بيَّنتُ تعليم الجماعة وفصَّلتُ مبادئها دون هذا الشرح لتعذر عليكم- لأن الأحمدية محتوية على التعاليم القرآنية ومبنية عليها- أن تفهموا ما إذا كنت أذكر الأحمدية أو الإسلام، مع أن الإسلام والأحمدية اسمان لمسمّى واحد كما يكون قد اتضح لكم إلى الآن. وليس المراد من الأحمدية إلا حقيقة الإسلام التي أظهرها الله في هذا العصر بواسطة الشخص الموعود مجيئُه.

إذن فإن أساس الأحمدية كله مبني على القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، ومع ذلك فإنها تختلف كثيرا عن الفرق الإسلامية الأخرى لاختلاف تعاليمها عن الأفكار السائدة في مختلف الفرق الإسلامية في هذه الأيام. وبواسطة الأحمدية قُدِّمت من جديد كثير من الحقائق التي كانت قد انمحت من وجه الأرض، وأظهِرت كثيرٌ من الحقائق الخاصة بهذا العصر والتي لم يعثر عليها

السابقون. وكذلك أُخرجتْ العلوم القرآنية التي كانت مدفونة تحت حُجُب الكلمات وجُعِلت دنيا العلم والمعرفة غنيةً بها. وإذا قلتُ: "إن هذا هو تعليم الإسلام" فالمراد منه هو تعليم الإسلام بحسب منظور الأحمدية، وإن لم يقبله الآخرون. وحين أقول: "إن هذا هو تعليم الأحمدية" فالمراد منه هو التعليم الذي جاء به الإسلام وليس تعليما جديدا.

ولكن قبل أن أبين التعاليم التي تميز الأحمدية عن الأديان الأخرى، أرى من الضروري أن أبين كتمهيد أنه أيا كان هدف المشرفين على هذا المؤتمر الديني، فإنني أرى أنه ينبغي أن يكون الهدف الأكبر من مثل هذا المؤتمر أن تتاح للناس فرصة المقارنة بين الأديان ليعرفوا أي دين يساعدهم على نيل الهدف الذي بسببه يبحث الإنسان عن الدين أصلا. إذًا فليس من اللازم أن يتم بيان كافة حِكَم الدين في المقالات التي تُقرأ في مثل هذه المناسبات، بل يجب تقديم التعليم الأساسي بما قلَّ ودلَّ، حتى يعرف الناس أن الدين الفلاني هو القادر على سد كافة الحاجات المهمة، ولا يركز على بعض الأمور فقط.

والأمر المهم الآخر لتحقيق هذا الهدف هو أن يقدم ممثلو الأديان تعليم دينهم وليس أفكارهم هم، وإلا لن نقدر على الوصول إلى الحقيقة أبدا. إن الأفكار ليست شيئا ماديا حتى يحتفظ به أتباع الأديان في صناديق مقفلة. عندما تُطرَح فكرة ما على البساط تصبح مِلكا عاما، فمن شاء أخذها واستفاد منها. وإن لم يوجد طريق ناجع يُعرَف من خلاله أن الأفكار المقدَّمَة نيابة عن دين معين إنما هي أفكار ذلك الدين حقيقة و لم يسرقها المحاضر من الآخرين، فلن يكون الحكم بين الأديان أمرا سهلا على الإطلاق، ولن نتمكن من المقارنة الصحيحة ولن نتوصل إلى النتيجة، بل يتضرر الناس أكثر ويظنون أن الأديان كلها سواسية مع أن تلك الحقيقة تكون موجودة في دين واحد فحسب،

والأديان الأخرى خِلْوٌ منها، وأتباعها الشاطرون سرقوا تلك الأفكـــار مـــن الآخرين ونسبوها إلى أديانهم.

لقد قدم مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية- درءا لهذه المشكلة- اقتراحا ووضعه في الحسبان في كتبه وكتاباته دائما. والانتباه إلى هذا الاقتراح يـــضمن إزالة هذه المشكلة كليا، وهو أنه يجب أن يثبت ممثل دين معين كل ما ينسبه إلى دينه من خلال كتابه الديني الموحى به، أو من خلال شرح الشخص الذي أُنزِل عليه هذا الكتاب؛ وبذلك يمكن أن يزول تماما ستار الخفـــاء الـــذي يحجـــب الصدق، وينجلي الحق فيظهر بوضوح تام أيّ الأديان كامل وأيها ناقص يسرقُ أتباعُه التعاليمَ من الأديان الأخرى لينسبوها إلى دينهم إثباتا لكماله.

ومع أن المشرفين على مؤتمر الأديان لم يضعوا شرطا كهذا، إلا أنني آمـــل أن توضع شروط مثلها عند عقد المؤتمرات الدينية في المستقبل حتى يسهل الحُكمُ على الناس. وقد لا يتقيد ممثلو الأديان الأخرى بهذا الشرط ولكنني سأتقيد بـــه طواعية، فالتعليم الذي سأنسبه إلى الإسلام أو الأحمدية لن يكون إلا ما يقدمه ديننا، ولن يكون مستعارًا من دين آخر. ولسوف أثبت كل شيء من كتـــب ديننا مبدئيا. ولو أهملتُ- في بعض الأماكن- قراءة النص من الكتاب خـــشية الإطالة، فلكل شخص الحق أن يطالبني بالنص الذي نسبتُ به تعليما معينا إلى الإسلام.

بعد هذا التمهيد الوجيز أتوجه الآن إلى صلب الموضوع. فاعلموا أن للدين أربعة أهداف مهمة.

الهدف الأول أن يعلِّم الإنسان مبدأه، أي يزوِّده بالمعتقدات الصحيحة عن خالقه وبارئه حتى لا يُحرم من الاستفادة من مصدر القوة والطاقة هـــذا، ولا يغفل عن الغاية من خلقه التي لا يسع أحدا أن يبيِّنها إلا الخالق نفسه. ولتحقيق هذا الهدف لا بد من بيان أربعة أمور وهي:

١- حقيقة ذات الله وصفاته ﷻ.

٢- كيفية علاقة العبد مع الله تعالى.

٣- بيان الأعمال التي من خلالها يمكن للإنسان أن يظهر علاقته مع الله، أو ما هي واجبات العبد تجاه الله تعالى.

٤- طريق الوصول إلى الله تعالى، وكيفية تحقيق هذا الهدف في الحياة الدنيا ليتجاوز الإنسان مرحلة الظن بوجود الله ويصل إلى مرتبة اليقين.

الهدف الثاني من الدين هو أن يعلّم الإنسانَ تعليما أخلاقيا كاملا، ولتحقيق هذا الهدف أيضا لا بد أن يبينَ سبعة أمور:

(١) ما هي الأخلاق الحسنة؟ (٢) ما هي الأخلاق السيئة؟ (٣) ما هي المدارج المختلفة للأخلاق الحسنة؟ (٤) ما هي المدارج المختلفة للأخلاق السيئة؟ (٥) على أي أساس يُعتبَر عملٌ ما حسنةً أو سيئةً؟ (٦) ما هي الأسباب التي تُمكِّن الإنسان من التحلي بالأخلاق الحسنة؟ (٧) ما هي الأسباب التي تمكّنُ الإنسان أن يتجنب الأخلاق السيئة؟

بيان هذه الأمور السبعة ضروري جدًّا عند ذكر الأخلاق الحسنة وإلا فلن يتحقق الهدف.

والهدف الثالث للدين هو سد حاجات البشر التمدنية والحضارية. فما دام الله ﷻ قد خلق الإنسان مدنيّ الطبع فلا بد من أن يسنَّ له القوانين الأساسية التي تضمن إرساء دعائم الأمن والسلام في العالم؛ ليعيش أفراد كل طائفة وفرقة ضمن دائرة حقوقها، ولا يغصب أحد حقوق غيره قصدا منه أو عن غير قصد. ولو تأملنا في الأمر لوجدنا أنه لا أحد يقدر على سنِّ حقوق المجتمع أو بيانها إلا الله، لأن الناس يكونون محرومين- بسبب مصالحهم الشخصية- من سعة النظر والأفق المطلوب لهذا الغرض. فمن أهم واجبات الدين أن يبين القواعد التي تشكّل أساس التمدن الإنساني. والدين الذي لا يحقق هذا الهدف لا يستحق أن

يُعَدّ دينا مطلقا، ولتحقيق هذا الغرض يجب على الدين أن يلقي الضوء على ما يلي:

١- الأمور العائلية، أي العلاقات بين الأقارب وحقوقهم، لأنها الجزء لأهم للتمدن.

٢- كيفية أداء الحقوق السياسية والقومية على أحسن وجه.

٣- العلاقات بين السيد والخادم، أو بين الأغنياء والفقراء.

٤- العلاقات بين أتباع مختلف الأديان، وبين سكان مختلف البلاد.

والهدف الرابع للدين هو بيان عاقبة الإنسان، أي ما هو مصير الإنسان بعد الممات، وما هي طبيعة المعاملة التي يمكن أن يتلقاها. ولتحقيق هذا الهدف لا بد من بيان الأمور التالية:

١- هل للإنسان من بقاء بعد الممات؟ وإذا كان فما نوعه؟

٢- وإذا كان له بقاء، فهل له صلة بالفرح أو الترح؟

٣- إذا كان بقاؤه مرتبطا بالفرح أو الترح، فما طبيعتهما؟

٤- هل الطريق إلى الحسنة أو السيئة مفتوح أمام الإنسان بعد الممات أيضا أم لا؟ وإذا كان الجواب بنعم، فكيف؟

ولا يمكن التوصل إلى نتيجة صحيحة بالنسبة إلى ما يدّعيه دين معين إلا بعد الاطلاع على تعليمه حول هذه الأهداف الأربعة. ولسوف أقدم تعليم الأحمدية، أي الإسلام الحقيقي، حول هذه الأهداف راجيا وواثقا من أنكم لو تدبرتم في هذا التعليم بالعدل والإنصاف لثبت لكم أن الدين الذي يفي بهذه الأهداف الأربعة إنما هو الإسلامُ، والإسلامُ وحده.

تعليم الإسلام عن ذات الله ﷻ

كما قلت من قبل، إن هذا الموضوع ينقسم إلى أربعة أسئلة. فسأتناول هذه الأسئلة الأربعة واحدا تلو الآخر وسأبين لكم تعليم الإسلام حولها.

السؤال الأول المتعلق بالهدف الأول هو: ما هو تعليم الإسلام عن ذات الله وصفاته؟ فاعلموا أن القرآن الكريم يصف الله ﷻ كذات كاملة وجامعة لجميع الصفات، فيبدأ القرآن الكريم بقول: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فبما أن كل شيء في الدنيا قد خلقه الله، وكل شيء محتاج إلى ربوبيته عزّ وجلّ، لذا فالله تعالى هو الذي يستحق الحمد على جميع الصفات والمزايا الملحوظة في كل شيء في العالم، لأن كل ما حظيت به هذه الأشياء إنما نالته من الله تعالى. فمثلا إن مشهدا جميلا، وزهرًا ذا شذى طيب، وطعامًا ذا طعم لذيذ، وفرْشًا ناعمًا أملس، ولحنًا عذبًا، بل كل الأشياء الجميلة التي تفرح بها حواس الإنسان وتتمتع بها فقد خلق الله ﷻ هذه المزايا فيها.

ثم يقول عزّ وجلّ: ﴿الرَّحمَن﴾، وهو الذي خلق- بفضله ورحمته وإنعامًا منه على العباد- جميع الأشياء والأسباب التي سيحتاجون إليها في المستقبل، بما فيها النور والضوء، والنار والماء والهواء، والأغذية المتنوعة، والأدوية، والخشب والحديد والحجر. باختصار، فقد خلق الله ﷻ لكفاح الإنسان ونضاله أشياء كثيرة لتتاح له فرصة الانهماك في العمل والتقدم في علمه وكماله حيثما توجّه. فلم يترك الله ﷻ حاجة من حاجات الإنسان إلا وقد خلق أسبابا لسدها قبل ولادته. كذلك وردت في القرآن الكريم صفة أخرى لله ﷻ وهي: ﴿الرَّحِيْم﴾، الذي يجزي ويكافئ مجاهدات الإنسان ومساعيه بأعلى النتائج وأصوبها؛ فبقدر ما يسعى الإنسان ينال جزاءً، ولا يُضاع سعيه بل يعطي ثماره باستمرار.

ثم يقول القرآن الكريم إن الله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْن﴾، أي بالإضافة إلى النتائج التي تظهر بحسب قانونه الجاري في الطبيعة، والجزاء الذي يناله الإنسان كلما جدّ واجتهد، فقد عيّن الله ﷻ نهاية لكل عمل حيث يعطَى كل إنسان جزاءه النهائي؛ فينال الصالح جزاءً حسنًا وينال الطالح جزاءً سيئًا. ونظام الثواب والعقاب هذا يجري تحت مالكية الله تعالى وهو يعفو أيضا إذا شاء.

كذلك ورد عن الله تعالى أنه ﴿القدير﴾ الذي قدّر كل شيء تقديرا، فقدّر تأثير الأشياء وقدّر نتائج الأعمال أيضا، ولذلك يجري نظام الدنيا على ما يرام. لولا هذا التقدير لخيّم الظلام على العالم كله ولترك الناس أعمالهم كليا. معلومٌ أن الخباز يُشعل النار للخَبز لأنه يعلم أنها ستولِّد الحرارة حتما. ولولا هذا القانون ولو لم يتم تسخير النار للحرق، ولو لم يُسخَّر الماءُ لإطفائها، بل إذا أنتجت النار الحرارة مرة والبرودةَ مرة أخرى، وأطفأ الماءُ النارَ تارة وأشعلها تارة أخرى لما استفاد الناس من هذه الأشياء كما يستفيدون منها اليوم، بل فُتَّ في عضدهم وثَبطت هممُهم وهلكوا لعدم يقينية النتائج.

ثم يخبرنا القرآن الكريم عن صفة أخرى لله ﷻ وهي ﴿العليم﴾، أي أنه عليم بكل صغيرة وكبيرة، وهو يعلم ما تخفي الصدور، بل يعلم أيضا الأسرار المخفية في الفطرة الإنسانية التي لا يدركها الإنسان بنفسه، بل تستوي عنده الأشياء المدفونة في باطن الأرض والموضوعة على قمم الجبال. إنه ﷻ يعلم الماضي ويعلم الحاضر ويعلم أيضًا ما سيحدث في المستقبل. ثم إنه ﴿السميع﴾، أي إنه يسمع كل صوت ومطلعٌ على أخفى الأمور، فهو قادر على أن يسمع كل نوع من الكلام مهما كان منخفضا، حتى دبيب النمل أيضا لا يخفى عليه إن صوت حركة الدم في شرايين الإنسان لايخرج عن نطاق سمعه. إنه ﷻ - ﴿الحي﴾، أي هو حي بذاته ويُحيي الآخرين. وهو ﴿الخالق﴾ و﴿القيوم﴾ أي قائم بنفسه ويقيم الآخرين بفضله وعونه. وهو ﴿الصمد﴾ أي لا يمكن أن يبقى

شيء في الوجود دون عونه ونصرته ﷻ. ثم إنه ﴿الغفور﴾ أي يغفر أخطاء الناس وذنوبهم. وهو ﴿القهار﴾ أي كل شيء خاضع لقدرته ﷻ. وهو ﴿الجبار﴾ فهو يجبر أي يصلح كل ما فسد. وهو ﴿الوهاب﴾ أي يعطي عباده حظا وافرا من إنعاماته. وهو ﴿السبوح﴾ أي لا نقص فيه ولا عيب. وهو ﴿القدوس﴾ أي جامع لكل نوع من القدوسية والطهارة، لا تأخذه سِنة ولا نومٌ ولا تعب ولا إرهاق، هو موجود منذ الأزل وسيبقى موجودا إلى الأبد. وهو ﴿المهيمن﴾ أي إنه محافظ على كل شيء ويظل يحمي الناس دائما من الصدمات والضغوط التي لا يعلمونها هم أيضا؛ فكم مرة يشرف الإنسان على أن يكون فريسة للأمراض أو الحوادث ولكن عوامل مخفية عن أعين الناس تحميه. حالما يتولد المرض تتولد في الجسم أسبابٌ لمقاومة سمه. وما لم يصبح الإنسان غافلا تماما وما لم يصرّ على نقض قانون الطبيعة فإنه يبقى مصونا من كثير من العواقب السيئة. يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[1].

لبابُ القول؛ ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[2]، ورحمته غالبة على كل شيء، كما يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[3]، أي أن صفاته المتعلقة بالغضب خاضعة لصفاته المتعلقة بالرحمة. وهو ﴿الأحد﴾ أي لا شريك له ولا نِدَّ. وهو ﴿الواحد﴾ فقد جاءت كل الأشياء إلى حيز الوجود بأمره، وهو الحلقة الأولى من كل شيء.

كذلك هناك أسماء كثيرة أخرى لله ﷻ مذكورة في القرآن الكريم ويتبين منها أن الإسلام يقدم للعالم إلـهًا كاملا يجمع في ذاته كلتا المزيتين، أي

[1] سورة النحل

[2] سورة الحشر: ٢٥

[3] سورة الأعراف: ١٥٧

موجبات الحب وموجبات الخوف التي بدونها لا يمكن أن تنشأ العلاقة الكاملة أبدا.

يستطيع كل عاقل أن يفهم بسهولة أن الطاعة الكاملة والاتحاد الكامل لا يتحقق إلا لسببين اثنين، إما بسبب الحب أو بسبب الخوف. لا شك أن صلة الحب هي الأعلى والأكمل، ولا شك أيضا في أن بعض الطبائع لا تخضع إلا لعامل الخوف فحسب. فما لم يركز دين معين على صفات الغضب وصفات الحب كلتيهما على حد سواء لا يمكن أن ينفع العالم. وإذا تطلعنا إلى الإصلاح لن نركّز فقط على الدوافع التي تحرض الفئة العليا من المجتمع على القيام بعمل ما، بل لا بد من النظر في ظروف الفئة العليا والسفلى كلتيهما وإلا سنفشل في مهمة الإصلاح. والحق أن الناس من الفئة العليا يميلون إلى الهداية من تلقائهم، لذا يتحتم علينا أن نركّز أكثر على الذين يواجهون ظروفا متردية ومُسخت طبائعهم ونسوا واجباتهم. والناس مثلهم لا ينقادون إلا للخوف إلا ما شذ وندر. وما لم يهددهم خطر الخسارة وخيبة الأمل لا يميلون إلى الإصلاح. فالدين الذي يهدف إلى إنشاء الصلة بين الله عز وجل وجميع الناس لا بد له من أن يراعي مقتضيات الفطرة. الأسلوب الجميل الذي استعمله الإسلام والاعتدال الذي اهتم به في بيان صفات الله عز وجل هو على وجه اليقين علاجٌ لكافة أنواع الطبائع، ولا يمكن أن يكون هناك علاج أكمل منه. فقد قدم صفات غضب الله تعالى كما بين صفات رحمته، وإلى جانب ذلك قال تعالى أيضا: ﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي إن رحمتي تطفئ غضبي، لأن غضبي يكون للإصلاح لا للإيذاء والتعذيب.

إن كمال وسموّ هذا التعليم عن ذات الله تعالى بيّن وجليّ، فهو يضمن تحقيق الهدف من وراء الدين بأحسن وجه ولكنه مع ذلك ليس تعليما متميزا لأن معظم الأديان، على ما أرى، تقدم التعليم نفسه حرفيا ببعض الاختلافات

البسيطة. والناظر بنظرة سطحية يتساءل مستغربا: لماذا الاختلاف بين الأديان إذًا؟ والحق أن الناس يخطئون في ذلك حين يزعمون أن جميع الأديان تقدم تعليما مماثلا، وبسبب موقفهم هذا يضربون بمقتضيات الفطرة الإنسانية عُرض الحائط. إننا نرى أن الفطرة الإنسانية قد أُودِعت مزية قبول بعض الأمور أو رفضها دون مساعدة خارجية، وهذه الأمور تُسمَّى البديهيات، وإنْ رفَض بعضُ الفلاسفة كونها بديهية. ولكن عامة الناس لا يشكّون في الأمور البديهية لأنها قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من طبيعتهم، وإذا تبنّى أحد موقفا يخالفها فلا أمل في نجاحه. فمن هذه الأمور أن الناس كلهم، إلا قليل منهم فقط، متفقون على أن الله تعالى ذات كاملة لا عيب فيه. ولو ادعى دين خلاف ذلك وقال بأنه يوجد في ذات الله عيب كذا وكذا، أو لا توجد فيه مزية كيت وكيت فلن يتوجه أحد إلى هذا الدين على الإطلاق. لذا لا يمكن أن يكون هناك اختلاف كبير بين الأديان فيما يتعلق بالأسماء التي تُنسَب إلى الله تعالى، بل الاختلاف يكون في الشرح والبيان الذي يشرح به أتباع مختلف الأديان هذه الأسماء. ولا يعود السبب في وحدة الأفكار في صفات الله إلى أن جميع الأديان تعطي تعليما واحدا في هذا الصدد بل سببها هو شعور قلبي أن الناس ليسوا مستعدين على أن يسمعوا أسماء أخرى سواها. فعند المقارنة بين الأديان لا بد من الإمعان في التفاصيل التي تبينها مختلف الأديان لهذه الصفات.

فمثلا، كل الأديان متفقة على أن الله رب العالمين، أي هو خالق كل شيء، ويربّي وينمّي كل شيء في نطاق قدرة ذلك الشيء واستطاعته. ولكن فيما يتعلق بشرح هذا المبدأ فهناك اختلاف كبير بين الأديان. وبما أنني أقدّم تعليم الأحمدية لذا سأبين تعليم الإسلام بخصوص هذه الصفة الإلهية.

من الواضح أن مدلول هذه الصفة هو أن الله تعالى ليس ربًّا لفئة معينة بل هو رب المخلوقات كلها، فلا يمكن أن تكون له صلة خاصة بقوم معين من

منطلق الربوبية فقط، بل الناس كلهم عنده سواسية كبشر. كما يتولى ﷻ ربوبية أهل أوروبا كذلك يقوم بربوبية سكان آسيا، وكما يربِّي أهل أميركا كذلك يربّي القاطنين في أفريقيا. وكما يربي الناسَ كلهم ربوبية جسمانية كذلك يربيهم ربوبية روحانية. فبحسب هذا المبدأ قام القرآن الكريم ببيان مذهل- في زمن سادت فيه التعصبات القومية والمِلِّية في كل حدب وصوب، وجهل الناس بفكرة وجود النبوة في بلاد أخرى بوجه عام- فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّة إلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]. ولقد ورد في الحديث أيضا أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ: هل سبق أن أُنزِل الوحي باللغة الفارسية أيضا؟ فقال: نعم! لقد أنزل الله تعالى على أحد أنبيائه وحيا باللغة الفارسية.[2]

انظروا إلى البيان العظيم الذي قام به القرآن الكريم تحت صفة الله تعالى "رَبِّ العالمين" كيف أنه خلق حقيقة جديدة بكلمة واحدة سواءٍ بين أتباع الأديان في العالم كله! وكيف نشر روح الأخوة بين بني البشر كلهم! فبحسب هذا التعليم لا يمكن لمسلم أن يكِنّ أي ضغينة لزعماء مختلف الأديان. لذا فإن "رامشندر" و"كرشنا" و"بوذا" و"زرادشت" و"كونفوشيوس" أنبياء عند المسلمين تماما مثل موسى وعيسى عليهم السلام جميعا. والفرق الوحيد هو أنه لما ورد اسم موسى وعيسى عليهما السلام في القرآن الكريم فهما محل ثقة أكبر من غيرهما. فكم أصبح شأن الإسلام أعلى بسبب هذا المبدأ! لأنه كلما تم

---

[1] سورة النحل: ٣٧

[2] "اين مشت خاك را گر نه بخشم چه كنم"؛ كوثر النبي، للحافظ عبد العزيز الملتاني، الصفحة ٥٥٥

العثور على دين أو نبي جديد في أية منطقة في العالم فالمسلم لا يحسبه خصما جديدا لدينه ولا يضيق به ذرعا بل ينشرح قلبه لأنه يَعُدّ بشرى سارة عن مصدِّقٍ جديد للقرآن الكريم. أَليس صحيحا أن الإسلام قد أثبت أن الله تعالى هو ربّ العالمين؟ وقال إن أفضاله ﷻ ليست خاصة ببلاد العرب أو الشام، بل كما إن الشمس تطلع على جميع أكناف العالم وتُنوِّرها، كذلك تنوِّر شمس كلام الله جميع الأمم والشعوب.

هنا يمكن أن يثير أحد شبهةً فيقول بأنه إذا كانت الأديان في الدنيا كلها جاءت من عند الله تعالى فلِمَ لا نعتقد أن كلها حق ونؤمن بأن الإنسان يمكن أن يصل إلى الله تعالى باتباع أيّ دين شاء؟ لقد رد الله تعالى على هذه الشبهة في القرآن فقال: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

لقد قيل في هذه الآية إن الكتب والتعاليم التي سبقت النبيَّ ﷺ قد حدث فيها الاختلاط الداخلي، وإن أفكار الناس ووساوسهم قد وجدت طريقها إليها. فمع أنها كانت من عند الله تعالى أصلا ولكنها لم تعد جديرة بأن يُعْمَلَ بها في صورتها الحالية ولا يمكن الثقة بقدرتها على إيصال الباحث إلى الله ﷻ.

وهناك سؤال آخر بالنسبة إلى صفات الله تعالى يتحتم على الكتب الدينية الردُّ عليه، وهو لماذا لا نستطيع أن نرى الله ﷷ؟ فمن السهل جدا القولُ باللسان بأن الله موجودٌ ولكن إثبات صفات الله تعالى المختلفة أمر صعب للغاية. القرآن الكريم يتحمل هذه المسؤولية ويثبت الصفات الإلهية المختلفة؛ فمثلا يقول الله تعالى عن عدم قدرتنا على رؤية الله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ

[1] سورة النحل: ٦٤-٦٥

يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] . أي إن أعين الإنسان المادية لا تقدر على رؤيته ﷻ، غير أنه هو تعالى يدرك الأبصار ويمنحها القدرة لتراه، إنه لطيف بحيث تعجز العين الإنسانية عن رؤيته، وإنه خبير بأحوال عباده.

تَرَى كيف حل القرآن الكريم القضيةَ كلها بكلمات وجيزة! أي أن الأشياء اللطيفة لا يمكن رؤيتها، مثل الكهرباء ومادة الأثير، بل لا يسع الإنسان أن يرى الهواء النقي أيضا، فكيف إذن يمكن رؤية الله الذي هو ألطف من كل شيء، وهو ليس مخلوقا بل هو خالق، و لم يُخلَق من أية مادة مهما كانت لطيفة؟ ولكنه حين يرى أن عبده مشتاق للقائه ومضطرب لرؤيته، يأتي عبدَه ويجعل نفسه أمام عينيه، أي يُظهر نفسه على عبده من خلال قدراته وتجلياته، وبذلك يراه العبد بأعين عقله.

يقول الله تعالى عن إثبات وجوده: ﴿تَبَارَكَ الَّذي بيَده الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ * الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ليَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزيزُ الْغَفُورُ * الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَات طبَاقًا مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ منْ تَفَاوُت فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى منْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلبْ إلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسئًا وَهُوَ حَسيرٌ﴾[2] ... أي قد جعل الحياة للعمل والموت للجزاء، لأن نوال الجزاء الكامل في هذا العالم مستحيل... حتى لا يصبح إيمان الناس بلا حقيقة نظرا إلى الثواب والعقاب... فقد خلق سبع سماوات بحيث تساند إحداها الأخرى.. أي ألقوا نظرة جامعة على الكون تجدوا لكل حاجة ما يسدها. وقد أتيحت لكل شيء وسائل وأسباب حتى يستخدم جميع القوى والقدرات المودَعة فيه. إن حاجات جِرم صغير يُخلق في الدنيا تُقضى بواسطة كوكب يدور على بُعد عشرات ملايين الأميال. فتأملوا في هذا النظام، أي نظام "الحاجة

---

[1] سورة الأنعام: ١٠٤

[2] سورة الملك: ٢-٥

وسدّها"، وتأكدوا منه أن لهذا الكون خالقا اهتم بقضاء أبسط الحاجات أيضا وخلق أسبابا لتحقُّق كل أمنية وبحث صادق.

هناك سؤال آخر يُطرح بالنسبة إلى صفات الله، وهو أنه إذا كان الله هو الرحمن، كما يقال، فلماذا خلق الوحوش الضارية والحشرات الضارة؟ ولماذا خلق المصائب والأمراض العديدة؟

لقد تصدى الإسلام لهذا السؤال أيضا و لم يترك الموضوع بقوله ﴿الرَّحْمَن﴾ فقط، بل ورد في القرآن الكريم: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا برَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1]؛ أي كل الأشياء الضارة التي تستحق أن تُدعى بنات الظلمة مثل الأفاعي والعقارب والوحوش الضارية أو السموم والأمراض والمصائب وغيرها، قد خلقها الله تعالى كلها، ولكن خلْقها ليس منافيا لرحمته ﷻ بل تُثبت رحمته. والتأمل في حقيقتها يؤدي إلى حمد الله تعالى والثناء عليه بدلا من اتهامه. ومع ذلك فإن الذين يجهلون الحقيقة يرون خلق هذه الأشياء منافيا لصفات الله تعالى، ويجعلون لله شريكا، ويقولون إن لهذه الأشياء الضارة خالقا آخر.

تَرَى كيف أماط الإسلامُ اللثامَ عن وجه الحقيقة بكل جلاء، وكيف رد على هذا السؤال ردا جميلا قائلا بأن الأشياء التي تُعَدّ ضارة ليس الهدف من خلقها الضرر، بل في خلقها منفعة وفائدة للإنسان، فلا بد أن نحمد الله تعالى على خلقها.

فلو أمعنّا النظر من هذا المنطلق في الأشياء التي تبدو ضارة لثبت لنا الأمر مختلفا تماما. لا شك أن السم يقتل الإنسان، ولكن كم من أناس يُعطَون الزرنيخ وجوز القيء والأفيون لعلاج أمراضهم! فهل الذين يموتون باستخدامهم الزرنيخ وجوز القيء والأفيون هم أكثر عددا أم الذين ينجون باستخدامها؟ لا شك أن

[1] سورة الأنعام: ٢

مئات آلاف الناس ينجون كل عام من موت محتوم باستخدامهم هذه الأدوية. فكيف يصح القول إذًا "لماذا خلق الله هذه الأشياء"؟ كذلك الحال بالنسبة إلى الأفاعي والعقارب وغيرها. الحق أن المتخصصين في خواص الأشياء لم يهتموا بها اهتماما لائقا، وحين يفعلون ذلك سوف يعرفون بوضوح أن هذه الحيوانات أيضا مفيدة للغاية. وإضافة إلى ذلك، وكما يتبين من القرآن الكريم، أن خلقها كان تمهيدًا لخلق الإنسان. والمعلوم أن حشرات الأرض تلعب دورا بارزا في تطهير الجو فوق الأرض. والحق أن هذه الحشرات هي الحلقات الأولى من سلسلة خلق الإنسان، وليس كما يزعم بعض الناس اليوم. بل كل حيوان منها يدل على تغيرات مختلفة حدثت في الأرض وهو تذكار لهذه التغيرات.

كذلك يقول ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[1]؛ أي أن الله قد خلق الشمس والقمر والنجوم وغيرها، ثم جعل الإنسان حاكما على الأرض. فلو لم يستفد الناس من بعض الأشياء أو تضرروا بسبب سوء استعمالهم إياها فهذا خطؤهم هم. غير أن ما يفعله الله ﷻ هو أنه ينقذ الناس من سوء عاقبة أخطائهم. فالمصائب التي تحل بالإنسان ليست من الله وإنما تأتي نتيجة سوء استعمال قوانين الطبيعة التي خُلقت لفائدة الإنسان.

الأمراض أيضا نتيجة قوة التأثير والتأثر التي خُلقت في الإنسان، وجميع أنواع رقي الإنسان وازدهاره منوطة بهذه القوى. لو لم توجد في الإنسان قوة التأثير والتأثُّر لما كان على ما هو عليه الآن. والمعلوم أن الإنسان يؤثر في كل ما يحيط به من الأشياء ويتأثر بها أيضا بحسب قانون الطبيعة العام. وكلما نقض القانونَ من حيث هذا التأثير والتأثر سقط مريضا، أو تعرض للأذى. فمجمل

[1] سورة الشورى: ٣٠-٣١

القول إن الله تعالى لم يخلق المرض بل خلق قانون الطبيعة الذي أناط به تقدم الإنسان، إلا أن الإنسان يخلق المرض بنفسه نتيجة الإفراط أو التفريط في استعمال هذا القانون. ولأن القوانين التي قد تؤدي إلى المرض إنما هي نتيجة رحمة الله تعالى، فلا يقع على الله ﷻ أي اعتراض بسبب خلقه الأمراض وما شابهها. والمبدأ الذي ينطبق على المرض ينطبق هو نفسه على الذنب، إذ ليس للذنب أيضا أي وجود مستقل في حد ذاته مثل المرض. بل التفريط أو الإفراط في قوانين الطبيعة أو قانون الشريعة، هو الذنب. إذًا، فبوجود الذنب أيضا لا يقع أي اعتراض مطلقا على رحمانية الله وقدوسيته ﷻ.

إن جميع أوصاف الذنب الواردة في القرآن الكريم تدل إما على الإفراط أو على التفريط، و لم ترد فيه كلمة واحدة تثبت وجود الذنب، مما يدل على أنه لا حقيقة للذنب بحد ذاته بحسب القرآن الكريم بل الذنب هو عدم الحسنة، والعدم ينتج عن فعل الإنسان؛ فعندما يترك الإنسان نعمة الله التي أُعطِيها أو يسلب حق غيره، فإنما يتسبب في عدم شيءٍ لا في إثباته.

هذا التعليم الجميل- الذي قدمه القرآن الكريم- القائل بعدم وقوع الاعتراض على صفات الله الحسنة مع وجود الأشياء الضارة في العالم، لم تقدمه الكتب الأخرى، كما لا تقدم أي دليل على دعاويها كما يفعل القرآن الكريم. وهذه مزية فريدة قد انفرد بها القرآن الكريم إذ لا يكتفي ببيان صفات الله تعالى فحسب، بل يعطي عنها علما كاملا بحيث يمتلئ القلب بعواطف الحب والطاعة، ويغمر الذهنَ السرورُ والحبورُ، وتعلو العينَ المتعةُ واللذة، وتتلاشى كافة أنواع الشك والريبة. وإلا فإن بيان صفات الله الحسنة إجمالا ليس شيئا يعتدّ به.

كذلك يُعتَرض على صفة الله تعالى "الرحيم"، ويقال مثلا بأن الكبار يتعرضون للمصائب والأذى نتيجة أعمالهم ولكن لماذا يُجعَل الصغار عرضة لها؟

الحقيقة أن الجواب على السؤال السابق يضم الرد على هذا السؤال أيضا، وهو أنه تعالى قد وضع قانونا، وهو أن كل شيء يتأثر بغيره، ولو لم يكن هذا القانون لما كان الإنسان قادرا على قبول أي تغير، وبالتالي لما قبل دواعي وأسباب التقدم التي يقبلها ويستفيد منها الآن. فالصغار يتأثرون بآبائهم في الأعمال الحسنة والسيئة، كما يقعون تحت تأثيرهم من حيث المرض والصحة. فلو لم يرثوا من الآباءِ الأمراضَ والمصائب لما ورثوا القدرة على الحسنات والخيرات أيضا، ولأصبح الإنسان مثل تمثال حجري لا يتأثر بما هو خير أو شر، ولبطل الهدف من خلقه ولصارت حياته أسوأ من البهائم.

أما السؤال: ما هو الجزاء الذي يتلقاه الإنسان مقابل ما يتعرض له من المصائب والأذى نتيجة هذا القانون الطبيعي؟ لأنه مع أن قانون الطبيعة يهدف إلى تقدم الإنسان، مع ذلك يصاب بعض الناس ببعض الأذى والمصائب نتيجة أخطائهم على أية حال.

إن شريعتنا ترد على هذا السؤال وتقول بأن كل أذى يتعرض له الإنسان من جراء أسبابٍ لا دخل له فيها، سوف تؤخذ بالحسبان عند النظر في تقدمه الروحاني. فيقولُ الله في القرآن الكريم: ﴿الوَزْنُ يَوْمَئذٍ الْحَقُّ﴾[1]. أي في يوم الجزاء العظيم سوف تؤخذ بالاعتبار الأمورُ التي حالتْ دون تقدم أحد و لم يكن له أي دخل فيها. ثم يقول الله تعالى في آية أخرى في القرآن الكريم: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾[2]. أي لا شك أن المؤمنين الذين يخدمون دينهم والذين لا يخدمونه لا يستوون، غير أن المقصرين في الخدمة بسبب تعرضهم لإعاقة مثلا من جراء قانون الطبيعة لن يطبَّق عليهم هذا المبدأ، بل سوف يأخذ الله تعالى إعاقتهم هذه في الاعتبار.

[1] سورة الأعراف: ٩

[2] سورة النساء: ٩٦

كذلك يقول رسول الله ﷺ: "مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[1]؛ أي كلما حل بالمؤمنين بلاء سواء كان في نفسهم أو مالهم أو ولدهم غُفِر لهم من خطاياهم، وبسبب تحملهم البلايا تنشأ في روحهم قوة الطهارة إلى درجة أن يكونوا قد تطهَّروا حين يلقون ربهم. ولا يخطرَنَّ بالبال هنا أن هذا الحكم ينطبق على المؤمنين فقط، بل الحق أن كل واحد يستفيد من هذا المبدأ بقدر استحقاقه. هذا هو الحكم القرآني العام، غير أن الكلام في الحديث المذكور قد ورد ردا على سؤال المسلمين، لذا فقد وُجِّه الخطاب إليهم مباشرة.

تَرى إلى أين وصل الخلاف بين مختلف الأديان في شرح صفة واحدة من صفات الله ﷻ، إذ استمد منها الإسلام معنى واستنبطت الأديان الأخرى معنى آخر. فقد عرضت بعضها عقيدة التناسخ بغية المحافظة على صفة الرحمة بحسب زعمها، في حين يتبين بأدنى تدبر أن ما ذهب إليه الإسلام في شرح هذا الأمر إنما هو طبيعي جدا وينسجم مع قانون الطبيعة. وأن الشروح الأخرى كلها مبنية على أمور افتراضية لا يمكن إثباتها.

إن صفتَي الله تعالى "العدل" و"الرحمن" أيضا جديرتان بالانتباه. جميع الأديان تؤمن بكون الله تعالى عادلا ورحيما أيضا، إلا أن هناك اختلافا كبيرا في شرح هاتين الصفتين. يقول الإسلام إنه لا تناقض بينهما، بحيث يمكن أن تعملا عملهما في آن معا كما هو الحال فعلا. فالعدل لا يتنافى مع الرحمة بل هو سابقُها. فيقول ﷻ في القرآن الكريم: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[2]، يتبين من هذه الآية أنه ليس من الظلم عند الإسلام أن يُعطى أحد أكثر من حقه، وإنما الظلم هو أن

[1] الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء.
[2] سورة الأنعام: ١٦١

يعاقَب أحد أكثر مما يستحق. ومما لا شك فيه أن الظلم هو معاقبة أحد أكثر مما يستحق، أو أن يُجزى أحد أقل مما يستحق، أو أن يُعطَى حقُّ أحدٍ لغيره، وهذا ما لا يفعله الله على الإطلاق. فإنه ﷻ لا يعاقب أحدا أكثر مما يستحق، ولا يبخس أجره ولا يعطي حق أحد لغيره، بل ما يفعله الله تعالى هو أن كل مَن يخر على عتبته بالخجل والندامة معترفا بخطئه، ومتخليا عن أعماله السابقة، ويأتي ربه بقلب خافق وشفتين مرتعشتين وعينين ذارفتين بغزارة مطرقا رأسه ندما وخجلا، وبقلب زاخر كالبحر بنية الطهارة الكاملة في المستقبل، فيعفو الله تعالى عنه ويعطيه فرصة ليبدأ حياة جديدة، ويضمه إليه كما يضم الأب إلى صدره ابنه الذي عاد إلى البيت خجلا ندما بعد أن ظل غارقًا إلى فترة طويلة في الفساد والضلالة وهو لا يستطيع أن يرفع رأسه أمام والده. فيضم الوالد ابنه هذا إلى صدره بقلب تغمره عواطف الحب والوداد ولا يطرده من بيته، بل يبدي سعادته الغامرة على عودته إلى البيت. فهل تصرف الوالد هذا مدعاةٌ للشكوى من قبل الأولاد الآخرين الذين كانوا عاكفين على خدمة والدهم؟ وهل لهم أن يعترضوا على ذلك؟ كلا، والله لا.

لا شك أن العقاب وسيلة عظيمة للإصلاح، ولكن الحق أن نار جهنم ليست أكثر عقابا وعذابا من الندامة الحقيقية والتوبة الصادقة. والمهمة التي يمكن أن تنجزها نار جهنم في مئات آلاف السنين تنجزها الندامة الصادقة في دقائق فقط. عندما يخر الإنسان على عتبات الله تعالى تائبا توبة صادقة من ذنوبه السابقة، وعازما على الإصلاح في المستقبل، فمن مقتضى رحيمية الله تعالى أن يرحم هذا الإنسان. فالعبد المتواضع الذي يخِرُّ على عتبات رحمته بعد أن أصبح صورة متجسدة للأمل والرجاء، وقد تبرَّأ من أعماله السابقة، أَيُعقل أن يطرده الله الرحيم الكريم ويُعرض عنه؟ كلا، والله لا.

وأخيرا أتناول الصفة التي هي أشهر الصفات الإلهية وقد اختُلِف في تفاصيلها أكثر من غيرها، وهي صفة الله تعالى "الأحد". لا يوجد في العالم اليوم دينٌ يؤمن بإلهين اثنين أو أكثر، بل قد أجمعت جميع الأديان من حيث المبدأ على مسألة التوحيد. بل يطعن أتباع دين في أتباع أديان أخرى بأنهم لا يؤمنون بالتوحيد حق الإيمان. وقد قرأتُ كتبا لبعض المؤلفين الأوروبيين الذين يقولون بكون المسلمين مشركين. وقد سمعت أن كثيرا من الناس في أوروبا وأميركا الذين ليس لديهم إلمام بالكتب الإسلامية يظنون أن المسلمين يعبدون رسول الله ﷺ، مما يعني أن الطبائع تشعر بشكل عام أن الاعتقاد بتعدد الآلهة في العصر الراهن مستحيل تماما، والعالم ليس جاهزا للإصغاء إليه. ولكن مع إجماع جميع الأديان على كلمة التوحيد، هناك اختلاف كبير بينها في العقيدة نفسها؛ وهناك كثير من الأديان التي تخفي كل نوع من الشرك تحت اسم التوحيد. ولكن الإسلام بريء من الشرك كليا، واستأصل كافة أنواع الشرك استئصالا كاملا، وأماط اللثام عن حقيقته، ولم يعد ممكنا أن ينخدع أحد. يقسمُ القرآن الكريمُ الشركَ إلى أربعة أنواع.

النوع الأول: هو جَعلُ أحد ندًّا لله تعالى، أي الاعتقاد أن هناك إلها آخر مثل الله شريكا لذاته ﷻ.

النوع الثاني: هو الإشراك بالله، أي الاعتقاد أن هناك شريكا في بعض صفات الله تعالى أو جميعها، سواءً اعتُبِر هذا الشريكُ معبودا أم لا. لنأخذ مثلا الاعتقاد أن إنسانا ما قادر على الخلق أو إحياء الموتى. فلو نُسِبتْ هذه الصفات إلى أحد- ولو باعتباره إنسانا- لكان ذلك أيضا شركا، لأنه قد عُدّ إلـهًا في الحقيقة وإن لم يُطلَق عليه اسم إله.

والنوع الثالث من الشرك هو اعتبار أحد إلـهًا، أي عبادة أحد من دون الله، وإن لم يُعتبر هذا المعبود إلـها حقيقيا، أو لم يُعتبَر شريكا في صفات الله

ﷻ، كما كانت هناك عادة عبادة الوالدين في بعض الشعوب في الأزمنة الغابرة.

النوع الرابع: هو اعتبار أحد ربًّا، أي اعتبار أحد من المرشدين أو الأولياء منزها عن الأخطاء البشرية، وأن كل ما يأمر به هذا المرشد أو الولي لا بد من العمل به مهما كان الأمر سيئا. وكذلك تفضيل أمر أحد من الناس عمليًّا- أيًّا كان- على أمر الله وإن لم يُعتبر إلـها من حيث الاعتقاد. لقد ذكر الله تعالى هذه الأنواع الأربعة من الشرك في الآية التالية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

أي قل يا أهل الكتاب اتفقوا معنا على أقل تقدير في أمر نتفق فيه إجمالا أعني أن نعبد الله الذي لا شريك له في جوهره، ولا نشرك أحدا في صفاته ولا نقدم قول أحد العباد على أحكامه وأوامره، فإن لم يقبلوا ذلك فقل سنطيع الله تعالى بهذا الأسلوب. لاحظوا كيف جُمِعت جميع أنواع الشرك صغيرة كانت أم كبيرة في هذه الآية الوجيزة. فبحسب هذه الآية، عندما يقول المسلم بأنه يؤمن بإله واحد فإنه يقصد في قرارة قلبه ما يقوله بلسانه. فهو لا يعبد أحدا سوى الله الواحد الأحد، ولا ينسب صفاته إلى غيره، بل ينزهه تعالى عن كافة علاقات القرابة، ويؤمن به ﷻ أسمى وأرفع من الحلول بأحد بصفة الروح والتجسد، ويراه أرفع من الموت والإحساس بالجوع والعطش وإن كان على سبيل التنازل، ولا يخضع جبينه أمام أحد سوى الله، ولا يحسب غيره مآل آماله، ولا يخاطب أحدا سوى الله تعالى في أدعيته. إنه يحترم أنبياء الله حق الاحترام ولكن يحسبهم أيضا أناسا مثل الآخرين مقابل الله ﷻ. هذا ما يعلّمه

[1] سورة آل عمران: ٦٥

الإسلام وينصحه للعمل به مدى الحياة. لا شك أن جميع الأديان تتفق مع الإسلام في إقرار وحدانية الله إجمالا، أما في التفصيل فلكل دين مسلكه ومنهجه، وهكذا يقع بُعد شاسع بين الأديان.

ملخص الكلام أن تعليم الإسلام عن صفات الله تعالى كامل غاية الكمال إجمالا وتفصيلا. والمتعة التي يمكن أن تنشأ في قلب الإنسان بواسطة هذا التعليم لا يمكن نشوؤها بواسطة أي دين آخر مطلقا. والمزية الأخرى هي أن الإسلام يذكر كل صفة من صفات الله تعالى مفصَّلا، ويبين أيضا تأثيرها على حياة الإنسان اليومية. ويوضِّح علاقات مختلف الصفات ببعضها ويبيِّن دائرة تأثيراتها أيضا، وكأن الله يتمثّل أمام عين عقل الإنسان، فيفيض قلبه بحبه تعالى. أما اشتراك الأديان الأخرى مع الإسلام في بيان صفات الله ﷻ فإنما هو في الظاهر فقط وليس في الجوهر والحقيقة، والمعلوم أن الأصل هو الجوهر وليس الاسم.

السؤال الثاني، صلة العبد بالله تعالى

بعد بيان تعليم الإسلام عن ذات الله وصفاته بإيجاز أتناول الآن السؤال الثاني المتعلق بالهدف الأول وهو: كيف يجب أن تكون صلة العبد بالله تعالى؟

اعلموا أن الاعتراف بوجود شيء أمر عادي، فمثلا يسلِّم جميع المثقفين بوجود القطب الشمالي والقطب الجنوبي ولكن لا علاقة معها إلا لبعض الناس الذين يقومون ببحوث متقدمة في تلك المناطق، ولا تنشأ في عواطفهم حركة بذكرهما. ولكن مما لا شك فيه أن عواطفهم تتهيَّج على الفور عند ذكر شخص له علاقة حقيقية بهما. وهناك سؤال آخر يفرض نفسه وهو: ما هي طبيعة العلاقة مع الله تعالى التي يطالب بها الدينُ أتباعَه؟ فبناء على طبيعة هذه العلاقة يمكن أن يقدَّر مدى صدق الدين أو خطئه، وقبوله أو فشله. فإذا كان الدين يطالب أتباعه بشيء يتنافى مع عظمة الله فلا بد من القول إنه لا يؤمن

بصفات الله إيمانا حقيقيا. أما إذا كان الطلب سليما ولكن أتباع الدين لا يوفون به فلا بد من القول أيضا إن ذلك الدين قد فشل في تحقيق أهدافه.

يتبين من صفات الله التي ذكرها من قبل، وتتفق عليها جميع الأديان تقريبا، أن علاقتنا الحقيقية إنما هي مع الله تعالى وحده، لأنه هو الذي خلق كافة الأسباب لراحتنا ورقينا ونجاحنا، وهو السبب الحقيقي وراء مجيئنا إلى الوجود، وإن حياتنا المستقبلية أيضا منوطة بفضله ورحمته. ولا يفوقه ﷻ من حيث العلاقة آباؤنا ولا أولادنا ولا إخواننا ولا أزواجنا ولا أصدقاؤنا ولا بلادنا أو أهلها، ولا حكومتنا ولا عقاراتنا ولا منصبنا ولا شرفنا ولا حتى أنفسنا لأن كل هذه الأشياء إنما هي جزء من عطايا الله ﷻ التي أعطانا إياها وهو معطي الكل. والحق أنه بعد بيان الصفات المذكورة آنفا لا يمكن أن يثبت صدق أي دين إلا الذي يطلب من أتباعه أن يؤثِروا حب الله على حب كل شيء آخر ويجعلوا التأدب معه واحترامه فوق التأدب مع أي حاكم آخر واحترامه، ويضحوا بكل شيء ابتغاء مرضاة الله تعالى إذا اقتضت الحاجة، ولا يضحوا برضا الله من أجل أي شيء آخر على الإطلاق؛ وأن يطلب هذا الدين من أتباعه أن يتجذر حب الله في قلب الإنسان بقوة أكثر من أي شيء آخر، وأن يكون ذكره ﷻ أكثر وأَوْلى من ذكر جميع الأحبة. وألا يهمل الإنسانُ ربَّه ﷯ حاسبا إياه شيئا عاديا من موجودات العالم مثل الجبال أو الأنهار الموجودة في بلاد نائية بل يجب أن يعُدّه منبعا لكل أنواع الحياة ومصدرا لكل أمل ووجهة لكل نظر.

هذا ما يعلِّمه الإسلام بالضبط، فيقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

المسلم لا يمكن أن يُعَدّ مسلما قط ما لم تكن علاقته بالله تعالى على غرار ما ذُكر في هذه الآية، فعليه أن يضحي بكل شيء آخر وبكل عاطفة أخرى لنيل مرضاته تعالى، وينبغي أن يقدم حبه ﷻ على كل شيء آخر. وفي موضع آخر يذكر القرآن الكريم علامة حب الله تعالى كما يلي: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[٢]؛ أي إن حب الله تعالى يترسخ في قلب المؤمن بحيث يتمنى قربه ولقاءه ﷻ مرة بعد أخرى. وكما أن المحب يذكر حبيبه دائما فالمؤمن يظل مشغولا بذكر الله تعالى أكثر من ذلك المحب. ويغمر قلبَه إحسانُه تعالى وذكر صفاته الحسنة دائما، وتغمر قلبه رغبة عارمة للتقرب إليه والفناء فيه مرة بعد أخرى، حتى إن انتباه العبد يبرح منصرفا إلى الله تعالى على الدوام، أثناء أشغاله في النهار وعند جلوسه للاستراحة وحين نومه ليلا.

كذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣].

أي إن المؤمنين هم الذين تستولي على قلوبهم مخافة الله تعالى بحيث إنه إذا ذُكر الله في مجلسهم تهيج موجة خشية الله، وإذا قرئ عليهم كلام الله يمتلئ قلبهم بالإيمان وهم على ربهم يتوكلون؛ أي يرون أن إتمام كل عمل يتوقف على عونه ونصرته ويحسبون أن نجاحاتهم تتوقف على فضله المحض.

أرى من المناسب هنا أن أزيل شبهة تُثار على الإسلام عادة وهي أن الإسلام يعلِّم الإنسان ألا يستخدم الأسباب المادية المتاحة بل يجب أن يفوّض

---

[1] سورة التوبة: ٢٤

[2] سورة آل عمران: ١٩٢

[3] سورة الأنفال: ٣

أموره كلها إلى الله تعالى. لا شك أن بعض الناس يعتنقون مثل هذه الأفكار ولكنها لا تمت إلى تعليم الإسلام بصلة مطلقا. القرآن الكريم مليء بالآيات التي تقول بكل صراحة وجلاء إن الله تعالى خلق نِعَمَ الدنيا لفائدة الإنسان، فكيف يمكن إذًا أن تكون مشيئة الله في تركها؟ يقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[1]، أي أتموا جميع الأمور بحسب الأساليب والطرق التي حدّدناها لها، أي أن الأسباب أيضا قد خلقها الله تعالى فلا بد من استخدامها عند القيام بأي عمل. وقال تعالى أيضا: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[2]، أي أيها المسلمون اتخذوا جميع الأسباب التي من شأنها أن توصلكم إلى النجاح. ثم قال في آية أخرى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾[3]، أي عندما تخرجون للسفر يجب أن تأخذوا الزاد معكم. كذلك ورد عن النبي ﷺ أنه جاءه رجلٌ فسأله النبي ﷺ: إلى من سلّمت الجمل؟ فقال: تركته متوكلا على الله. قال ﷺ: هذا ليس توكلا، بل اعقلْ الجملَ أولا ثم توكل[4]. كان النبي ﷺ يقصد من وراء هذا الكلام أن التوكل لا يعني ترك الأسباب، بل المراد منه اليقين بأن الله تعالى إله حيٌّ ولم يجلس عاطلا بعد خلق الكون، بل يجري حكمه في الدنيا اليوم أيضا، وأن نتائج كافة الأعمال تظهر بحسب حكمه ﷻ، وهو يحمي عبده الموقن به حين يكون غافلا، ويراقب أمور عبده حتى في حالة غياب العبد.

إذًا، التوكل هو اليقين بأن الله تعالى ينصر عباده اليوم أيضا، ويكون معهم عند عجزهم، ولكن لو حل غضبه على أحد لاستحال عليه الفلاح رغم وجود

---

[1] سورة البقرة: ١٩٠

[2] سورة النساء: ٧٢

[3] سورة البقرة: ١٩٨

[4] الترمذي، شرح الإمام ابن عربي، أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في التوكل.

الأسباب الضرورية. أي إن التوكل لا يعني ترك الأسباب، بل هو حالة قلبية معينة وليس القيام بعمل أو تركه ظاهريا.

ثم يقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1]، أي إن رضى الله تعالى يفوق كل شيء، ومعنى ذلك أن على الإنسان ألا تكون علاقته بالله ﷻ مبنية على طمع الإنعام في الدنيا أو الآخرة، بل يجب أن يكون رضى الله تعالى وحده نصب عينيه في كل الأحوال. فإذا كان الله تعالى هو محبوبه فإن من الإساءة إلى حبه أن يُفضِّل الإنسان شيئا آخر على رضاه ﷻ.

الآيات القرآنية المذكورة آنفا التي اقتبستها كنموذج تتضح منها طبيعة العلاقة التي يتوقعها الإسلام من العبد مع ربه. وأنا شخصيا أرى أن الذي يؤمن بالله تعالى حقا سيتفق معنا حتما أنه إذا كان هناك إله فلا بد أن تكون علاقتنا به على هذا النحو تماما.

السؤال الثالث، بأية أعمال يمكن للعبد إظهار علاقته بالله تعالى؟ أو ما هي المسؤوليات التي كلَّف اللهُ بها العبدَ؟

بعد الرد على السؤال الثاني أتناول الآن السؤال الثالث. لقد ردّت مختلف الأديان على هذا السؤال بشتى الأساليب. وأرى أن بين الأديان اختلافا أكبر في الإجابة على هذا السؤال مقارنةً مع الأسئلة السابقة. يجيب الإسلام على هذا السؤال، وهو الجواب الطبيعي، أنه يجب على الإنسان أن يحقق الغرض الذي خُلق من أجله، أي يجب أن يتحرى معية الله تعالى، ويكون عبدا كاملا له. فيقول الله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذي جعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

[1] سورة التوبة: ٧٢

* هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ * قُلْ إِنِّي نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلمَ لِرَبِّ الْعَالَمينَ﴾[1] .

أي أن الله تعالى هو الذي جعل لكم الأرض يتوفر فيها جميع ما تحتاجون إليه، كما جعل السماء مدعاة لحفظكم، ووهبكم صورا تناسب أعمالكم، ورزقكم رزقا طيبا، ذلكم ربكم، فتبارك الرب الذي هو ليس ربكم فقط وإنما هو رب جميع المخلوقات، هو حي ويحي الآخرين. لا إله إلا هو فادعوه ولا تعبدوا أحدا سواه، الحمد لله الذي هو رب الخلق كله. قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم من دون الله بعدما جاءني البيّنات من ربي، وأمرت أن أسلم كليا لرب العالمين.

يتبين من هذه الآيات أن الله تعالى يريد من الإنسان أن يطيع أوامره وأحكامه في أعماله الظاهرية أيضا بالإضافة إلى العلاقة القلبية التي سبق ذكرها. ولهذه الأوامر عدة أنواع كما يتبين من القرآن الكريم، غير أنني سوف أتناول هنا أحكاما لها علاقة مع العبادة فقط؛ أي تلك الأحكام المنوط بها إظهار العبودية في حضرة الله سبحانه وتعالى والتي لا ترتبط بالبشر مباشرة.

لقد قسّم الإسلام هذه الأحكام أو الأعمال إلى خمسة أقسام: (١) الصلاة، (٢) الذِّكر، (٣) الصوم، (٤) الحج، (٥) الأضاحي. إن جميع الأديان شبه متفقة على هذه الأوامر الخمسة، بمعنى أن العبادات المذكورة موجودة في كل الأديان وإن كانت أساليب التعبد مختلفة. البحوث الحديثة حول الأديان القديمة تضيف كل يوم دينا جديدا إلى صفوف الأديان التي وجدت فيها العبادات بأنواعها الخمسة المذكورة آنفا. والغريب في الأمر أنه في الوقت الذي تؤكد فيه هذه البحوث أن هذه العبادات ثابتة في الأديان كلها، يميل تيار الأفكار الحديثة

[1] سورة غافر: ٦٥-٦٧

إلى نظرية عدم فائدة هذه العبادات، وذلك بذريعة استحالة أن يقيد الله تعالى عبادَه في سلاسل هذه الأشكال الظاهرية. وكنتيجة لهذه الأفكار نرى اليوم أن تأثير العبادات الظاهرية يكاد يكون مفقودا من الدنيا إلى حد كبير، وقد ترك أتباع معظم الأديان العبادات الظاهرية كليا. أما الإسلام، فكما يضم في طياته كنوزا لا تنفد من التعاليم لسد حاجات جميع العصور، كذلك من مزاياه الفريدة أن تعاليمه القيّمة لا تتغير، فهو كصخرة لا تزحزحها فيضانات الدهر من مقامها. يأتي الإسلام باكتشافات جديدة بحسب مقتضى العصر ولكن من مزاياه الفريدة أن قوانينه،كقوانين الطبيعة تمامًا، لا تتغير، لأن قوانينه كلها قد أسسها عالم الغيب على الحق والحكمة.

اعلموا، ولا شك في ذلك قط، أن أساس العلاقات هو القلب، فإذا كان القلب فاسدًا وخاليا من الحب فمهما أظهر الإنسان تواضعا أو إخلاصا فلا فائدة منهما، بل هذا الفعل يدفع صاحبه إلى أغوار غياهب الظلمات. الإسلام لا يسلِّم بهذه النقطة فقط بل يؤكد عليها بشكل خاص فيقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[1]. كذلك يقول عن الذين يعطون الصدقات رياءً دون إخلاص القلب: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾[2]، أي أن هطول المطر على صخرةٍ عليها تراب، فهو يزيله من فوقها ويذَرُها صخرةً جرداء لا ينبت فوقها حبٌّ. فالذي يتصدق رياءً تسوء صدقتُه حالتَه بدلا من أن يرث فضل الله تعالى. ففي الإسلام لا تنفع العبادة ما لم تصدر من قلبٍ ملؤه الإخلاص. ويؤكد الإسلام أيضا على ضرورة اشتراك اللسان والجسم مع القلب في العبادة.

---

[1] سورة الماعون: ٥-٧

[2] سورة البقرة: ٢٦٥

يتبين جليا من القرآن الكريم وأقوال النبي ﷺ أن الإيمـان يكتمـل بعـد انسجام تام بين ثلاثة أشياء وهي: القلب واللسان والجوارح. أما الذين لا تقبل قلوبُهم الحقَ ولكنهم يقرون الإيمان بالجوارح واللسان فهم منافقون، والـذين تكون قلوبُهم ثابتة على الإيمان ويخالفها لسانُهم وجوارحهم فهـم كـاذبون، والصادق هو الذي يكون قلبه ثابتًا على الإيمان وتوافقه جوارحه ولسانه.

فترى أنه إذا أحب الإنسانُ أحدا ثم ذُكر حبيبه أمامه بدت على وجهـه أمارات معينة على الفور، ويعلم الغريب أيضا أن في قلبه حبا لذلك الشخص. لماذا يُظهر الآباء حبهم لأولادهم؟ ألا يكفي الحبُّ الموجود في قلـوبهم؟ لمـاذا يقبِّلون الأولاد ويحتضنونهم؟ ولماذا يصافح الناس أصدقاءهم؟ الناس في الغـرب حين يحضرون أمام الملوك يكشفون عن رؤوسهم، أو يجثون أمامهم، فما سبب تصرفهم هذا؟ ألا يكفي بمثل هذه المناسباتِ الحبُ أو الإخـلاصُ الكـامن في قلوبهم؟ وإذا قيل: بما أن الإنسان لا يعرف ما في الصدور، لذا فقد جُعلت هذه التصرفات علامةً لإظهار الحب الكامن في الصدور، وبها يعرف الآخر أنه يكِنُّ له حبًّا. ولكن هذا الجواب ليس صحيحا لأن كل شخص يعلم أنـه عنـدما يتحبب أحد ولدَه أو يمد يده إلى أحد أقاربه أو صديقه للمصافحة، فإن فعلـه هذا لا يكون ناجما عن فكرة إظهار الحب له؛ ألا تحب الأم وليدها الحـديث الولادة الذي لا يفهم شيئا؟ أَوَلا يحب الآباء أولادَهم في كثير من الأحيان وهم نيام؟ فتَبَيَّن أن إظهار الحب بالجوارح ظاهرة طبيعية، وليست وسيلة لإظهـار حالة القلب. فالذي يكنُّ حبا لله وينجذب قلبه إليه ﷻ حقيقة أنّى له ألا يسعى لإظهار حبه بالأعمال واللسان؟ هذا هو الهدف الذي يريـد الـدين تحقيقـه بالعبادات. العبادة هي علامة ظاهرية للعلاقة القلبية، والذي يكنُّ في قلبه حبـا صادقا لله تعالى أنّى له أن يعترض على هذا الإظهار من خلال العبادة مع قيامه

بإظهار حبه لأشياء أخرى بالجوارح؟ الحق أن منشأ الاعتراض على العبادة إنما هو قلة الحب.

ومع أن السبب المذكور آنفا يكفي لتوضيح حقيقة العبادة وإفهامها، ولكن الإسلام وضع بالاعتبار حِكَما أخرى كثيرة للعبادة، منها كما ورد في القرآن الكريم أن الأعمال الظاهرية تؤثر في الباطن كما للباطن تأثير على الظاهر، فيقول: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1]، أي الذين يبجِّلون المقامات التي ظهر فيها جلال الله تعالى، ينبغي أن يحصلوا على تقوى الله، لأن خشية القلوب تؤثر في الظاهر. لقد ذُكر هنا تأثير الطهارة القلبية في الظاهر بصورة طبيعية. وفي موضع آخر يذكر القرآن الكريم تأثير الظاهر في الباطن ويقول: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، أي اعلموا أن الفساد قد تطرق إلى قلوبهم بسبب أعمالهم الظاهرة، بحيث كانوا من قبل يقومون بتصرفات تنافي الحق الصريح من أجل مصالحهم الشخصية، وبالنتيجة غدت قلوبهم أيضا خُلوًّا من حب الحق.

لقد ثبتت في هذا العصر الحقيقةُ المذكورة آنفا بصورة قطعية من خلال علم النفس. لقد قرأت في كتاب عالم نفس أميركي أن عميدا في كلية أميركية كان يُعَدّ فطينا جدا من قبْل، ولكنه ظهر غبيا جدا بعد توليه منصب العميد. وقد أشار عليه أحد أصدقائه أنه لو تعود على إغلاق فمه الذي يبقى مفتوحا عادة لأثّر ذلك في أخلاقه ولأدى إلى تحسين مؤهلاته الإدارية. ففعل كما أشار عليه صديقه حتى تلاشت عنده عادة عدم الثبات والاستقرار، وصار عميدا ناجحا جدا. ترى في الحياة العادية أيضا أنه لو تكلّف أحد إظهار العبوس على

---

[1] سورة الحج: ٣٣

[2] سورة المطففين: ١٥

وجهه لثارت في قلبه أفكار الغضب بعد برهة. وكذلك لو أضحكْنا أحدا بالدغدغة أو بطريق آخر- بعد أن كان غاضبا- لزال غضبه. ولو تكلّف أحد البكاء لتطرقت إلى قلبه عواطف الهم والغم، وكذلك لو تكلّف الإنسان الضحك لنشأت فيه مشاعر الفرح والانبساط. فبناء على هذه الحكمة قد سنَّ الإسلام عباداتٍ ظاهرة مثل الصلاة وغيرها، لأن الإنسان حين يتعود على الخشوع والخضوعٍ ظاهريا يتفجر في قلبه ينبوع المحبة رويدا رويدا، وفي نهاية المطاف ينجذب إلى الله تعالى كما ينجذب الحديدُ إلى المغناطيس.

ومن حِكم العبادة الظاهرية أنها تؤدي إلى نشوء روح القومية، فيتعلم الصغار نظرا إلى العلاقات الظاهرية والتعامل المتبادل بين الناس حولهم أن من واجبهم أن يحبوا إخوتهم وأقاربهم. ولو ظلت عواطف الحب والغضب خافية في القلوب فقط لما وُجدتْ بين الأقارب علاقات الحب والود لأن ذوات الصدور لا تظهر على أحد. أنّى كان لطفل صغير أن يعرف أن فلانا يحب أبويه أو أقاربه، وأن فلانا يناصبهم العداوة؟ من الواضح أن كل ذلك يعرف من العلامات الظاهرية، وهكذا تظل هذه العواطف سارية كابرا عن كابر. لو لم تكن هناك علامة ظاهرة لإظهار حب الله تعالى، ولو لم يتم الإقرار بعظمته وقدراته بالجوارح والعلامات الظاهرية بصورة مستمرة، لاستحال أن ينشأ الحب والإخلاص في قلوب الأجيال التالية التي تتعلم ذلك من آبائها. هذا الحب والإخلاص لله يمكن أن ينشأ في قلوبهم عند رؤيتهم بعض العلامات الظاهرية كل يوم وتأثرهم بآبائهم. فنرى أن الشعوب التي ترغب عن العبادة الظاهرية شيئا فشيئا تنتشر فيها أفكار الإلحاد والإعراض عن الله تعالى بكثرة.

والفائدة الأخرى للعبادة الظاهرية هي أن جميع أعضاء الإنسان المثقلة تحت منن الله تعالى تشترك بهذه الطريقة في الشكر على مننه ﷻ. لقد منّ الله تعالى على جسم الإنسان وروحه أيضا. فعندما يرافق الجسم الروحَ في العبادة تكتمل

العبادة، وإلا فتبقى ناقصة وغير محفوظة، فالعبادة القلبية مثل اللُّبّ، والمحافظة على اللبّ بدون قشره مستحيلة. لا شك أن القشر لا يكون مقصودا بالذات ولكنه ضروري من أجل المحافظة على اللُّبّ، فإذا رمى أحد بالقشر حاسبا إياه بلا جدوى فسيفسد اللب أيضا في الحقيقة.

والآن، بعد إثبات أن العبادة الظاهرية أيضا ضرورية للروحانية، أتناول العبادات التي فرضها الإسلام على متبعيه. وأهمها الصلاة التي هي كالروح لجميع العبادات الأخرى. فقد فُرض على المسلم أن يقف أمام الله تعالى خمس مرات ويعبده بحسب القوانين المنصوص عليها في هذا المجال. فأولا يتوضأ المسلم، أي يغسل اليدين والقدمين بطريقة معينة، وفي ذلك منافع روحانية أيضا إضافة إلى الطهارة والنظافة التي أكد عليهما الإسلام أيما تأكيد، ومنها أنه بهذه الطريقة تُحرس جميع المنافذ التي يمكن أن تتسبب في تشتت الأفكار، وهي ممثّلات الحواس الخمس: الأذن، والأنف، والعين، والفم، والقدمين واليدين حاسة اللمس. والذين لديهم إلمام بالأمور الروحانية يدركون هذه النقطة جيدا، ولكني للأسف لا أستطيع أن أخوض في التفاصيل لضيق المجال. ولقد أشار الإسلام إلى هذين الأمرين في كلمة "الوضوء" نفسها، إذ معنى الوضوء: الطهارة والجمال. وهذه الكلمة تدل على أن الوضوء يضمن الطهارة الظاهرية التي هي ضرورية للطهارة الباطنية، وبها تتحلى الصلاة بالجمال، وبواسطة الوضوء يتجنب الإنسان تشتت الأفكار، وتنشأ في الصلاة تلك الحقيقة التي من أجلها يؤديها الإنسانُ.

ثم بعد الوضوء يقف الإنسان مستقبلا القبلةَ، والقصد من وراء ذلك توجيهه إلى ما قام به سيدنا إبراهيم عليه السلام من تضحيات ونتائجها الطيبة. ثم يقرأ المصلي بعض العبارات المعينة التي تشمل ثلاثة أمور روحانية. أولا: تسبيح الله تعالى وتحميده وبذلك يتمثل أمام المصلي وجود الله تعالى بصفاته، وينفعل قلبه

بشدة الحب وغلبة الإخلاص، وينشأ في قلبه جذب خاص إلى الله تعالى. وثانيا: يطّلع المصلي على نقاط ضعفه بإقراره أنه محتاج إلى نصرة الله تعالى وعونه في كل ما له صلة مع رقيه وتقدمه، فينصرف إلى إصلاح نفسه ويميل إلى التوجه إلى الله تعالى. ثالثا: تشتمل هذه العبارات على الدعاء الذي هو أساس الصلاة، وبها يجذب الإنسان أفضال الله تعالى، ويلقي روح حب الله على روح حبه فينال الفيوض التي تشبه تماما-من حيث الروحانية- مادة التناسل التي تتولد نتيجة اجتماع الذكر والأنثى ويتولد منها خَلقٌ آخر.

باختصار تتضمن الصلاة الإسلامية من الكمالات ما يتحير العقل الإنساني برؤية مزاياها. ولكن الشرط هو أن تؤدَّى الصلاةُ بحسب الشروط التي فرضها الإسلام وإلا فلن تُحدث تأثيرا أبدا، بل سيشكو المصلّي من صلاته دون مبرر.

والحركات الظاهرية التي حدّدها الشرع الإسلامي للصلاة هي الأخرى مليئة بالحِكَم، بما فيها قيام المصلي ضامًّا يديه، ثم الركوع والقيام مرسلا إياهما، والسجود والقعود. فهي كلها حركات تعبيرية يقوم بها الناس في مختلف البلاد إظهارا للتذلل والانقياد التام. ففي بعض البلاد يقوم الناس رابطين أيديهم إظهارا للأدب والاحترام الكاملَين، وفي بلاد أخرى يقومون مرسلين إياها. كان المصريون في قديم الزمان يضعون أيديهم على الركبة إظهارا للأدب المفرط، وكانت في الهند عادة السجود، كما سادت في أوروبا عادة الجثو لإظهار الأدب والاحترام، وقد جمع الإسلام في عبادته هذه الحركات الجسدية كلها.

وبالإضافة إلى مزايا الصلاة المذكورة آنفا هناك مزية أخرى وهي أن الحُكم العام للصلاة هو أن يُصليها المسلمون جماعةً لكي تتقوى عاطفة الأخوة. فعندما يقف الملِك والأجير البسيط جنبا إلى جنب في صف واحد، يشهد القلب أنها حقيقَة وليست تكلُّفا. فيقف الناس جميعا أمام ذات واحدة، فينسى الملِك كونه ملِكا، ويقف إلى جانب شخص عادي بسيط.

يزعم بعض الناس أن الإسلام أمر بالصلاة على سبيل الحرص والطمع، إذ يطمع المصلون أنهم سوف ينالون بها شيئا من الله تعالى، ولكن هذه فكرة باطلة تماما. بل الحق أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أبطل هذه الفكرة، وبيّن أن العبادات في الإسلام ليس مثل طلبات الناس الطماعين من أهل الدنيا بل إنها ترمي إلى تحقيق هدفين عظيمين؛ الأول: الشكر على منن الله تعالى والإقرار بها، أيْ الاعتراف بحقيقتها. والإنسان لا يستحق أن يُدعى إنسانا بدون الاعتراف بالحقيقة. والهدف الثاني هو نيل الرقي الروحاني. ويذكر القرآن الكريم هذين الأمرين كما يلي: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[1]؛ أي اعبدوني أيها الناس حتى أشرِّفكم بلقائي، واشكروا نِعَمي عليكم ولا تكفروها. فمن منافع العبادةِ الارتقاءُ الروحاني، والشكرُ على نِعم الله تعالى. يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2].

يتبين من الأحاديث أن الصحابة سألوا النبي ﷺ: لماذا تكلِّف نفسك في العبادة إلى هذا الحد؟ فقال: "أَفَلَا أَكُون عَبْدًا شَكُورًا؟"[3]، وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[4]، أي بذكر الله ﷻ تنال القلوب الطمأنينة والسكينة والمعرفة التي تزيل الشك والريبة. فالصلاة وسيلة للرقي الروحاني، كما هناك وسائل مختلفة لإنجاز شتى الأمور المادية في الدنيا.

مجمل القول إن تعليمَ الإسلامِ الصلاةَ مبنيٌّ على حِكَمٍ عظيمة، وتضم مزايا لا تضاهيها عبادات الأديان الأخرى. الصلاة تشمل كافة حاجات العبادة، لذا فهي الوسيلة الوحيدة لنيل التقوى، والذين يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى عبادة

[1] سورة البقرة: ١٥٣

[2] سورة العنكبوت: ٤٦

[3] صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل حتى ترم قدماه.

[4] سورة الرعد: ٢٩

ظاهرية فهم مخطئون. أيُّ منطق يمكن أن يقبل أن الأنبياء- بمن فيهم إبراهيم مع كل تقواه، وموسى مع كل تضحياته، وعيسى مع كل تواضعه، ومحمد ﷺ مع كونه جامعا للكمالات كلها- كانوا بحاجة إلى العبادة الظاهرية دون اكتفائهم بالعبادة القلبية، فكيف يكفي بعضَ الناس الذين يقوون عاكفين على الأمور الدنيوية ليل نهار ولا يدخل ذكر الله تعالى قلوبهم إلا نادرا، أن يذكروا الله في قلوبهم دون الحاجة إلى العبادة الظاهرية؟ الحق أن هذه الفكرة ناشئة إما عن كسل في نفوسهم إذ تريد بهذا العذر أن تجتنب تأنيب الضمير، أو هو عذر يريد به الناس إخفاء إلحادهم أمام الاعتراضات الموجهة إليهم من الخارج.

النوع الثاني من العبادة هو "الذِّكر"، وقد سنَّه الإسلام لحكمة أن الصلاة التي يصلِّيها المرء بحركات جسدية معينة وبشروط معينة لا يمكن للإنسان أن يؤديها في كل حين، وكما يكون جسم الإنسان بحاجة إلى الماء على فترات قصيرة وبدونه يشعر بالإرهاق والجفاف، كذلك روحه أيضا بحاجة إلى الماء الروحاني، لأنها تحرم من غذائها بسبب انصراف الإنسان إلى الأمور المادية على مدى النهار كله، لذلك أكد الإسلام على أن يذكر الإنسان بين حين وآخر صفات الله الحسنى ويتدبرها حتى لا يبقى انتباهه منصبًّا على الدنيا كليا، بل يظل يذكر الله أيضا وتبقى جذوة حبه مشتعلة في القلب. ولهذا الذكرِ المنافعُ نفسها التي سبق ذكرها.

النوع الثالث من العبادة الذي أمر به الإسلام هو الصوم. فالصوم أيضا يشكل قاسما مشتركا بين جميع الأديان تقريبا. ولكن صورة الصوم التي قدمها الإسلام وحافظ عليها تتميز عما تقدمه بقية الأديان. فيأمر الإسلام أن يصوم كل عاقل بلغ رشده لشهر كامل متواصل، إلا أن يكون مريضا أو كان متأكدا من أن الصوم سيؤدي به إلى الإصابة بمرض، أو كان مسافرا أو بلغَ من العمر عتيًّا وأعياه الضعف. وقد أُمر المرضى والمسافرون أن يصوموا في أيام أُخر. ولا

صوم على الذين لا يطيقونه لاضطرار ما. وفي حالة الصوم لا يأكل الصائم شيئا ولا يشرب، لا قليلا ولا كثيرا، بدءا من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولا يأتي زوجه. عليه أن يأكل ويشرب قبل طلوع الفجر حتى لا يرهق جسمه أكثر من اللازم. لقد استنكرت الشريعة صوم المرء المتواصل مكتفيا بوجبة العَشاء وحدها.

لقد ذكر القرآن الكريم الحِكَم في الصوم، فمنها قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، أي أن الفائدة الأولى للصوم هي أنكم ستُكثرون في هذه الأيام من ذكر الله تعالى بسبب تفرُّغكم من مشاغل الأكل والشرب وانصرافكم عن أمور الدنيا على مدى النهار. والفائدة الثانية هي أنّ تحمُّلكم الجوع والعطش سوف يؤدي إلى نشوء عاطفة الشكر في قلوبكم، لأنه من عادة الإنسان أنه مادام حائزا على نعمة لا يقدرها كما ينبغي، وإذا انتُزِعت منه عرف قدرها. الكثير من الناس لهم عينان ولا يخطر ببالهم طول الحياة أن العينين نعمة كبيرة ولكن عندما يُحرم أحد منهما عندها يعرف عظمتهما وقدرهما، كذلك حين يتحمل الإنسان الجوعَ في صومه ويشعر بمعاناته، عندها يعرف كيف أن الله تعالى قد هيأ له السهولة واليسر؛ لذا عليه أن يبذل حياته في الأمور الحسنة والمفيدة، لا في اللهو واللعب.

ثم يقول الله تعالى مبيِّنًا حكمة الصوم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْن﴾[2]. لقد وردت كلمة "تتقون" في القرآن الكريم في عدة أماكن ولها ثلاث معانٍ. الأول: تجنب المعاناة. الثاني: بمعنى الاتقاء من الذنوب. والثالث: بمعنى الوصول إلى مدارج عليا في الروحانية. فمن خلال هذه الكلمة بيّن الله تعالى ثلاث حِكَم للصوم. الأولى: أن الإنسان يتجنب المصائب والآلام نتيجة الصوم. يبدو للوهلة الأولى

[1] سورة البقرة: ١٨٦

[2] سورة البقرة: ١٨٤

غريبا أن يتجنب الإنسان الآلام والمصائب بالصوم، لأن الصائم يتحمل الأذى أكثر على ما يبدو. ولكن لو تأملنا في الأمر لوجدنا أن الصوم يعلِّم الصائم درسينِ يضمنان له حماية قومية. الدرس الأول هو أن الأثرياء الذين يأكلون أطيب الأطعمة على مدار السنة و لم يمروا بمعاناة الجوع، لا يشعرون بمعاناة إخوهم الذين يتحملون مشاق الفقر والجوع، ولكن عندما يصوم كبار الأغنياء أيضا- بأمر من الإسلام- عندها يعرفون ما هي معاناة الجوع، وبالتالي يستطيعون أن يقدروا حالة إخوانهم الفقراء فيتولد في قلوبهم حماس لمواساتهم، مما يؤدي إلى رقي القوم وحمايته، وحماية القوم إنما هي حماية الفرد في الحقيقة.

الأمر الثاني هو أن الإسلام لا يحبذ أن يكون الناس كسالى وغافلين وغير متعودين على تحمل المشاق، بل يهدف الإسلام إلى أن يكونوا قادرين على تحمل المشاق والمصاعب بحكم مقتضى الظروف والأوضاع. ويأتي الصوم كل عام ليولِّد فيهم هذه الصفة. والذين ينفذون هذا الأمر الإلهي لا يمكن أن يهلكوا متورطين في اللهو واللعب.

إن هدف تجنب الصائم الذنوب يتحقق بشكل غريب نوعا ما، إذ ليس الذنب إلا الجنوح إلى الملذات المادية. وقد لوحظ بوجه عام أن الإنسان إذا تعود على شيء تعذر عليه تركه. ولكن لو كان قادرا على أن يهجر عادته حين يريد لَمَا غلبتْ عليه. وعندما يتجنب الصائم لوجه الله تعالى جميع الملذات التي من شأنها أن تجره إلى الذنوب أحيانا، ويتركها لشهر كامل أثناء الصيام، ويحاول أن يتعود على السيطرة على نفسه، تكون النتيجة الطبيعية أنه يقدر على التصدي بكل سهولة للأطماع التي تجره إلى الذنب.

بالصيام تُحرَز القوة على إرساء دعائم التقوى، فأولًا يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر لتناول السحور فيوفَّق للعبادة والدعاء أكثر من المعتاد، وثانيا عندما يترك راحته لوجه الله فقط يجذبه الله إليه ويهب روحَه القوةَ.

النوع الرابع من العبادة هو الحج، وأهدافه تماثل أهداف الصوم والصلاة، ومنها تعويد الإنسان على هجر وطنه وأقاربه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وقد بيَّن القرآن الكريم هدفا آخر أيضا من وراء الحج وهو أنه يوجِّه إلى تعظيم شعائر الله وإحياء ذكراها. الحج في الحقيقة تذكير بحادث ترك إبراهيمَ ابنَه إسماعيل عليهما السلام في واد غير ذي زرع. وثانيا يقول الله تعالى عن الكعبة المشرفة في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...﴾[1]، ففي الحج يتذكر الإنسان هذا الحادث ويرى كيف يُنقذ الله الذين يقدمون التضحيات في سبيله، وكيف يُكرمهم ﷻ إكراما عجبا، فيترسخ في قلب الحاجّ جلال الله تعالى ويزداد يقينا بوجوده ﷻ. وحين يجد الحاج نفسه في أول بيت وُضع للناس يشعر بعلاقة روحانية عجيبة تجاه المنخرطين- منذ آلاف أو مئات آلاف السنين- في السلسلة الروحانية التي انخرط فيها هو الآن. إن علاقة حب الله تعالى وذكره قد جمعت بين أهل الأزمنة السحيقة والأزمنة الحديثة.

هذا، وهناك منافع سياسية في الحج، منها أن طائفة من أصحاب النفوذ يجتمعون مرة في العام ويطِّلعون على أوضاع المسلمين في العالم كله، وهكذا تتقوى فيهم أواصر الأخوة والمحبة، كما يجدون فرصة مواتية لاطلاع بعضهم على مشاكل بعض وإيجاد أساليب التعاون المتبادل والاستفادة من محاسن بعضهم بعضا. ولكن للأسف الشديد لا يُستفاد من هذا الهدف في الوقت الحالي.

النوع الخامس من العبادات هي الأضحية أو القربان. إن كثيرا من الناس لا يفهمون حقيقة الأضاحي والقرابين في الإسلام، ويظنون أن الإسلام قد أمر بتقديم القرابين لكي تحمل القرابين ذنوب الذين يقدمونها، ولكن هذا ليس صحيحا، إذ إن الإسلام لا يعلِّم ذلك على الإطلاق. إن كلمة "القربان"

[1] سورة آل عمران: ٩٧

مستمدة من "القرب". الحق أن "القرابين" تعبير عملي لطيف للغاية، وقد وقع الناس في الخطأ لعدم فهمهم إياه. من الواضح تماما أنه توجد في العالم تعـابير وسلوكيات عملية وشكلية بكثرة، ومع إحراز اللغات تقدما ملموسا، وبلـوغ العلم والأدب ذروتهما فإن الأسلوب القديم لإظهار ما في الضمير ما زال قائما في العالم إلى الآن، وما زال الناسُ يقبلون تأثيره، فيلاحظ تأثيره في كافة فروع الحضارة. فمثلا عندما يتصافح شخصان لا يقول لهما أحد إنكمـا ارتكبتمـا لغوا، ولا يفكر أحد في مدى السعادة التي نالاها نتيجة المـصافحة. الحـق أن المصافحة تعبير عملي وشكلي لا يزال رائجًا نتيجة التقاليد والعادات القديمـة. ومع أن الناس في هذه الأيام لا يعرفون سببها الآن ولكنها لا تـزال جاريـة ورائجة وتُعَدّ من أفضل الأعمال في العالم، لأنها تساعد على إنشاء المحبة وإظهار نوعية العلاقات المتبادلة. كانت بداية هذه العادة أنه كلما عقـد شخـصان معاهدة على أن ينصر أحدهما الآخر ويقاتلا معا إن اقتضى الأمر ذلك، ومـا دامت اليدان تُستخدَمان في الدفاع والهجوم، فكان كلٌّ منهما يمسك بيد الآخر وكأنه يقول لصاحبه بتعبير عملي إن الذي ترتفع عليه يدك سوف ترتفع عليه يدي لأن أيدينا قد أصبحت يدا واحدة، وستبقى واحدة في حالـة الهجـوم والدفاع. لاحظوا كيف بُدئت هذه العادة لعقد معاهدات خطـيرة، ولكنـها أصبحت الآن وسيلة لإظهار الحب بشكل عام، ولا تزال تنفع الدنيا إلى حـد ما، ولا يريد الناس التخلي عنها.

كذلك السبب الحقيقي وراء عادة التقبيل أيضا هو تعـبير شـكلي. إن عملية التقبيل في الحقيقة تشبه عملية الامتصاص. وبهذه الطريقة تقول الفطـرة الحيوانية بلسان حالها (استخدمتُ كلمة "الحيوانية" لأن هذه الصفة توجـد في البهائم أيضا) أن الوجود الذي أقبِّله لا أريده أن يبقى بعيدا عني، بل أريده أن يصبح جزءا لا يتجزأ من جسمي.

فمجمل القول إن التعابير الرمزية لا تزال مستخدمة في حياتنا اليومية، وتُستمَد منها فوائد جمة، منها القربان أو التضحية. لو تأملنا في الموضوع جيدا لوجدنا أن التضحية بنفس حية ليس بأمر هيّن، بل يترك في نفس الإنسان تأثيرا عميقا للغاية، إلا الذين قد تعودوا على الذبح بحكم مهنتهم، وإلا فعملية الذبح تترك في طبيعة الآخرين تأثيرا قويا وعميقا حتما، وتحدث عندها ثورة قوية في الأفكار حتى عَدَّ بعض الشعوب التضحية والذبح ظلما بسبب تأثيره في نفوسهم. لا شك أن قولهم هذا راجع إلى ضعف في نفوسهم ولكن مما لا شك فيه أيضا أن التضحية تؤثر في طبيعة الإنسان حتما، ولخلقها هذا التأثير فقد عُدّت الأضحية من العبادة. والهدف من وراء ذلك هو أن مقدِّم الأضحية يقر رمزا وتمثيلًا بأنه كما أن هذه الدابة التي هي أقل مني شأنا قد ذُبحتْ من أجلي، لذلك لئن مست الحاجة إلى التضحية بنفسي من أجل مَن هو أعلى مني فسوف أقدمها ببالغ السرور والسعادة ودون تردد.

فكِّروا الآن، كم ستترك التضحية تأثيرا عميقًا في نفس من يقدمها إن أدرك الحكمة منها، وكم سيكون مقدِّمُها منتبها إلى واجبه الذي ألقاه خالقه على عاتقه! لا شك أن ذكرى هذا الذبح تبقى حية في قلبه إلى الأبد، ويظل ضميره يذكِّره على الدوام بأنك بذبحك الكبش بيدك قد أقررت أمام ربك بأن الأدنى يُذبح من أجل الأعلى، لذا لا بد أن تكون على استعداد تام دائما لتقديم هذه التضحية التي تُطلَب منك إرساءً لدعائم الصدق والحق ودرءًا للمصائب التي ألمَّت بالبشر. يشير القرآن الكريم إلى الموضوع نفسه ويقول: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[1]، أي إذا حققتم الهدف الذي من أجله تقدَّم الأضاحي والقرابين، عندها فقط تستفيدون منها وتنالون

---

[1] سورة الحج: ٣٨

الجزاء، وإلا فقد أهرقتم الدم وأكلتم اللحم فقط وليس إلا، ولن تستفيدوا فائدة حقيقية.

بعد هذا البيان يكون قد اتضح لكم جيدا أن الإسلام لا يهدف من الأضاحي إلى ما تهدف إليه الشعوب الأخرى مطلقا. إن الإسلام يحافظ على الروح التي سُنَّت الأضحية من أجلها في لغة الرمز والإشارة، أما الأديان الأخرى فتقدم أهدافا أخرى ناسية الهدف الحقيقي.

السؤال الرابع المتعلق بالهدف الأول

هل يمكن أن يصل الإنسان إلى اللهِ تعالى؟

السؤال الرابع المتعلق بالهدف الأول هو: هل يمكن أن يصل الإنسان إلى اللهِ تعالى؟ وهل مِن دين يدّعي تحقيق الوصال بالله ويوصل العبد بالله ﷻ فعلا؟

هذا السؤال أهم من غيره، كما هو واضح. ولو أمعنا النظر لوجدنا أن فائدة الدين منوطة بجواب هذا السؤال في الحقيقة. كل من لا يعرِض عما ترشده إليه الفطرة السليمة ولا يغمض عينيه عن هديها، لا بد وأن يشعر في قرارة قلبه أنه إذا كان هناك من غرض أو هدف من وراء الدين فما هو إلا أن يرشد الإنسان إلى طريق الوصال إلى الله تعالى، بل ويوصله بالله تعالى حقيقة. أما الأسئلة الأخرى فهي ثانوية أو فروع لهذا السؤال.

فلو بيّن دينٌ معين صفات الله تعالى وأكد كثيرا على وحدانية الله ﷻ، وحثّ أتباعه على إنشاء علاقة مخلصة مع الله تعالى، وبيَّن لهم طرق عبادته أيضا، ثم لزم الصمت والوجوم عند السؤال فيما إذا كان بإمكانه أن يوصل أتباعه مع الله تعالى أم لا، أو هل يقدر على أن يحقق هذا الوصال في هذه

الدنيا؛ ففي هذه الحالة تصبح جميع بياناته السابقة كلاما فارغا ومضيعة للوقت واستهزاء وسخرية من بني البشر.

سيكون مَثَلَ هذا الدين كمثل شخص يعلن على صوت الأبواق ودقات الطبول أن اكتشافا عظيما قد حصل، فليجتمع الناس كلهم ليطّلعوا عليه، وينبغي ألا يتخلّف أحد لأنه اكتشاف مهمّ لم يوجد له نظير من قبل، وهو مهم إلى درجة أنه يتحتم على الجميع أن يطلعوا عليه، وهو مفيد للجميع وإن فائدته كبيرة إلى درجةٍ أنه لم ينفع بعدها أي شيء آخر إلى اليوم بقدر نفعه، وأن عدم الاستفادة منه تعاسة وشقاوة كبيرة. وإذا توافد الناس من قريب وبعيد واحتشدوا إثر سماعهم هذا الإعلان وأتوا إليه ضاربين بمهامهم الأخرى كلها عرض الحائط نظرا إلى أهميته، قال لهم هذا المعلن: لقد اكتُشف بلدٌ، وهو من السعة بحيث يستطيع الجميع أن يسكنوه بكل سهولة وفي قمة السعادة. وإن هذا البلد ليس ببعيد بل هو على مقربة من باب كل واحد منكم. والينابيع فيه جارية هنا وهناك، وفيه الأزهار والأثمار بكثرة، بل يوجد فيه كل شيء بكثرة حتى يَعُد ساكنوه الخصام والشجار فيما بينهم لغوا نظرا إلى كثرة ما هو من نصيبهم، لأنهم سيجدون كل شيء في هذا البلد. أما توفير الراحة والأمن فيه فحدِّثْ ولا حرج. إن كُلًّا من شمسه البازغة التي تنور الأرض بضيائها، وظلَّه الظليل الذي يريح المستظلين تحته يكونان من الروعة والجمال بحيث إن كل من دخل هذه الأرض لا يفكر في الخروج منها أبدا. فإذا اشتد شوق الناس إلى هذا البلد واتسعت دائرة آمالهم وسألوا أين ذلك البلد حتى ندخله ونتذوق من ثماره ونشرب من زلاله؟ يقول المعلن: نعم تلك هي مواصفات ذلك البلد ومزاياه ولكن للأسف الشديد لا أدري أين هو ولا أعرف سبيل الوصول إليه، إذ كنتُ قد قرأت كتابا في مكتبة آبائي ووجدت فيه أن هناك بلدا قد اكتُشف حديثا فأردتُ ألّا تجهلوا هذا الاكتشاف العظيم. فيمكنكم أن تقدِّروا ماذا عسى أن

يعامل به المستمعون هذا المعلن! ولكن من الغريب حقا أن الناس يواجهون مثل هذا الاستهزاء بالدين ولا أحد يسأل لماذا يُفعل بهم هذا؟ إذ يُدعى الناسُ إلى الله تعالى ولكن عندما يأتي أحد لا يجد شيئا بل يبقى صفر اليدين بل يزداد اضطرابا وحسرة.

ما من أحد إلى يومنا هذا قد سمع أن شخصا عشق معشوقا خياليا دون رؤيته. الحق أن العشق إنما ينشأ في القلب برؤية الحسن والجمال وليس بمجرد سماع ذكره. فكيف إذن يُتوقع من الإنسان أن يتولد ذلك الحب في قلبه بدون رؤية الله ﷻ؟ الحب هو ذوبان القلب، ولكن إن لم تكن هناك نار فكيف يمكن أن يذوب شيء؟ لذا أولا وقبل كل شيء يجب أن يكون هناك وجه منير كالشمس ليذيب القلوب بحرارته، عندها سوف يتولد الحب. إذًا، لا يمكن لدين أن يولِّد عشقا حقيقيا لله تعالى ما لم يفتح باب لقائه ﷻ.

انظروا إلى حالة العصر! كم من أناس اليوم يكنّون في قلوبهم حبّا لله ﷻ؟ يمكن القول بالجزم أن عددهم لا يصل حتى إلى عشرة بالمئة. وهذا العدد يشمل أيضا أولئك الذين يظنون أنهم يحبون الله، ولكنهم في الحقيقة يتبعون تقاليد قديمة ويسلكون مسالك رسمها لهم آباؤهم. نرى الظلام مخيِّما في كل أنحاء الدنيا وصَعُبَ على الناس التضحية في سبيل الله. وتشوب القرابينَ التي تقدَّم باسم الدين عاطفةُ النخوة القومية. ولنأخذ مثلا المَعرِض الذي عُقد هنا في هذه الأيام؛ إنكم ترون توافد الناس لمشاهدته من أماكن نائية ولكن لا يخرج أحد من بيته لرؤية الله تعالى، لأن الناس يعرفون أنه لا يُرى في أي مكان، لا في البيت ولا في الخارج. وإذا كان الناس غير قادرين على رؤيته فإنهم معذورون. إن أمر الدين لا يمكن أن يُؤجّل للآخرة لأن الإنسان لا يأتي إلى الدنيا مرتين، فلو لم يُبصر في هذه الدنيا شيئا، وعلم في الآخرة فقط أن الطريق الذي كان يسلكه في الدنيا كان خاطئا فماذا عسى أن يفعله عندئذ؟ ولو افترضنا جدلا أنه

ليس هناك من إله ولا حياة بعد الممات لكانت حياة الإنسان مجموعة من الأوهام والشكوك فقط.

كل دين يدعي أن بواسطته سوف يتم الوصال بالله تعالى بعد الممات، ولكن كيف يمكن لشخص أن يفوّض أمرا مهمًّا كهذا إلى حسن الظن فقط؟ كل ما يُقال للناس هو أن اعملوا كذا وكذا، ولكن الأهم في الموضوع هو ماذا سيفعل الله مقابل أعمالنا هذه؟ إن مَثَلَ أعمالنا كمثل الذي يطرق الباب، والسؤال هنا: هل أشارت علينا تلك الذات المقدسة التي أنارت الدنيا بأشعتها قبل ١٩٠٠ عاما أن الباب سوف يُفتح أيضا لنا؟ إذا كان البابُ لا يُفتح، وإذا كان طرْقُنا البابَ غير مدعوم بإشارة تضمن فتحه، فماذا سينفعنا إخبار هذا المخبر؟ إذ بإمكاننا نحن أيضا أن نصخب هكذا بدون أن نهتدي إلى الطريق، غير أن هذا المخبر قد جعلنا نضطرب أكثر بخلقه في قلوبنا أمانٍ قابلة للتحقق. كان بالإمكان أن تتحقق الفائدة من إخباره إيانا إذ عَلَّمنا لطرق الباب طريقا يضمن فتحه، وأن يُفتح في هذه الدنيا لكي نطمئن- قبل أن يُسدَّ من خلفنا طريق العودة- بأننا نسلك طريقا سليما.

أيها الإخوة والأخوات، أيًّا كان بلدكم، إنني أبشركم أن الإسلام، أو بكلمات أخرى الأحمدية، تدَّعي وترشدنا إلى طريق يضمن فتح هذا الباب. وليس هذا فحسب بل تزيد وتدعي أيضا أنها ساعدت كثيرا من الناس من قبل أن يفوزوا بهذا المرام. هناك كثيرون جدا فتح عليهم اللهُ البابَ عن طريق الأحمدية ووجدوه سبحانه وتعالى في حياتهم الدنيوية. فإن كنتم أنتم أيضا تتحرون لقاءه عز وجل عليكم أن تتوجهوا إلى الأحمدية، فإنها تحقق لكم أمنيتكم هذه إلا ما شاء الله.

قبل أن أشرح كيف تحقق الأحمديةُ الوصالَ بالله تعالى أرى لزاما أن أبين ما هو المراد من الوصال بالله؟

اعلموا أنه ليس المراد من الوصال الإلهي أن لله تعالى وجودا ماديا يمكن أن يراه الإنسان بعينيه المادية، بل المراد أنه يمكن للإنسان أن يرى الله تعالى بعينيه الروحانية. ولكن عندما أقول إنه يراه ﷻ بعين روحانية فلا أقصد من ذلك أيضا أنه يرى بعين خيالية ويظن أنه يراه، كما يظن أحيانا أولئك الذين يعوِّدون أذهانهم على تدريبات معينة. بل أقصد هنا الرؤية الحقيقية، كما نرى الشمس والقمر وغيرهما من الأشياء بحيث لا يبقى لدينا أي شك في وجودها. ولو قال لنا مائة مليون من الناس أن الشمس لا تطلع علينا حقيقة بل نظن أو نتوهم فقط أنها بازغة أمام أعيننا، لقلنا إن هؤلاء الناس البالغ عددهم مائة مليون قد أصابهم الجنون، ولن نفكر إطلاقا أننا لم نر الشمس. وذلك لأننا قد رأيناها بالأساليب التي لا مجال للشك بعدها.

الفرق بين الخيال والواقع هو أن الخيال يكون ناتجا عن حاسة واحدة عادة، أما العلم فيكون مدعوما بعدة حواس. فمثلا حين يظن أحد أن شخصا يقف أمامه، دون أن يكون لهذا الشخص وجود في ذلك المكان، ولو مدّ القائل بذلك يده ليبطش به لظهر خطؤه، لأن يده لن تشعر بوجود شيء. أما إذا كان الشخص موجودا في الواقع فإن حاسة اللمس سوف تؤيد حاسة البصر، وسوف تشعر يده بوجود شيء محسوس. وقد تسيطرُ الأوهام أيضا على عدة حواس أحيانا ولكن هذه الحالة تكون ناتجة عن الجنون الذي تظهر عيوبه للعيان تلقائيا.

غير أن هناك علاجا ناجعا أيضا لتدارك هذا النوع من الخدعة وهو أنه مهما رأى المتوهم أشياء بسبب توهمه فإنه يعجز أن يُريها الآخرين. أما إذا كانت أفكاره مبنية على حقيقة ثابتة فسيقدر على إراءة أماراتها للآخرين أيضا. فحين أقول إن الإسلام أي الأحمدية يوصل الإنسان بالله تعالى فلا أقصد أن ذلك يحدث بفعل أوهامي، فأتباع كل دين يتوهمون اليوم أيضا أنهم يصلون

إليه تعالى لكن ذلك خيال ووهم. بل أقصد اللقاء الحقيقي واليقيني كـــاليقين بوجود الأشياء الحقيقية، بمعنى أن تصدق حواس عديدة هذا اللقاء، مع إمكانية إراءة أماراته للآخرين أيضا. ولكن لا بد من القول بأن هذه الرؤية تكون رؤية العرفان لا رؤية العين المادية.

يمكن تقديم الآيات التالية لإثبات أن الإسلام يرد على السؤال قيد البحث بالإيجاب وأنه يدعي تحقيق الوصال الإلهي. ففي بداية القرآن الكريم يقـــول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، أي إن هذا الكتاب هـــو الكتاب نفسه الذي وُعد به في الكتب السابقة، ولا مجال للشك فيه. والـــدليل على ذلك أنه يهدي المتقين ويرفعهم منـــزلة. والمراد أن الأديان الأخرى تدَّعي جعلَ الإنسان متقيا فحسب وتقول بأن كل من سلك مسلكنا صار تقيًّا. ولكن الإسلام لا يدَّعي جعلَ متبعيه أتقياء فقط بل يرفع مكانتهم أكثر من ذلك. إنه لا يدلهم على واجباتهم فحسب، بل حين يكونون قد بذلوا كل ما في وسعهم عاملين بأوامر الإسلام عندها يأخذهم إلى مكانة أرفع وأسمى. أي أن الله تعالى أيضا يتوجه إليهم، فلا تتراءى مظاهر الحب والسعي من جانب واحد بل مـــن كِلا الجانبين.

كذلك يقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَـــسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾[2]، أي الذين يطيعون الله ورسوله محمدا ﷺ طاعة كاملة سوف يهبهم الله تعالى أربع درجات ينالونهـــا على قدر مراتبهم. فيهب درجة الأنبياء للذين هم مطيعون من الدرجة الأولى، ويهب لمن دونهم درجة الصديقين، أي درجة المقربين. وتوهب لمن دونهم درجة

[1] سورة البقرة: ٣

[2] سورة النساء: ٧٠-٧١

الشهداء، أي أولئك الذين قد زال الحجاب عن أعينهم ولكنهم لم يبلغوا درجة لِيُدْعَوا من أخص الأصدقاء، والذين دونهم أيضا توهب لهم درجة الصالحين، أي الذين يحاولون أن يصلحوا أعمالهم ولكن لم تُفتح عليهم بعدُ نافذة من قِبل الله. ثم قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيْقًا﴾، أي إذا استفاد الإنسان من صحبتهم نال الإصلاح. وكل هذه الدرجات التي وعدها اللهُ تعالى إنما توهب كفضل خاص من الله. ثم قال: ﴿وكَفَى بالله عَلِيْمًا﴾، أي إن الله تعالى يعلم جيدا أن أمنية التقدم غير المحدود التي خلقها الله تعالى موجودة في غريزة الإنسان، وقد أودِعت طبيعتُه لوعة للقاء حبيبه. فكان ضروريا أن يحقق الله تعالى هذه الأمنية الموجودة في الإنسان، فهيأ بفضله أسبابا لذلك، والآن يستطيع الإنسان أن يغتنمها إذا أراد.

ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

أي الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالأسباب والتطورات المادية واطمأنوا بها ويحسبون عند المكاسب الدنيوية أنهم قد نالوا بغيتهم ولا يحتاجون إلى أي شيء آخر، والذين يظلون في غفلتهم على الرغم من الآيات التي نريها ليتوجهوا إلينا، فهؤلاء الذين هم قد ابتعدوا بأنفسهم عن مصدر السعادة الحقيقية لن يحرزوا السعادة الحقة، وإنما يتعذبون روحانيا نتيجة لأعمالهم.

وقال في موضع آخر: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[2]، أي الذين يدركون مقام ربهم ويعملون بحسب ذلك يُعطَون جنَّتين، جنة في هذه الدنيا وجنة بعد الممات. وفي مكان آخر يبين الله تعالى إنعاما من أعلى إنعامات الجنة

[1] سورة يونس: ٨-٩

[2] سورة الرحمن: ٤٧

فيقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، أي إن الذين يدخلون الجنة يكونون سعداء فرحين لرؤيتهم ربهم. أما المراد من الفوز بالجنة في هذه الدنيا فهو أنهم يحظون برؤية الله ﷻ في هذه الدنيا، وينالون معرفة صفاته الحسنة بعيونهم الروحانية، ويجدونها سارية في أنفسهم.

وفي موضع آخر قال ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[2]، أي أذكروني أرفعكم إلى مقام اللقاء، واشكروني ولا تكفروا نعمائي. أي إذا كنتُ قد هيأت لكم أسبابا لراحة الدنيا فكيف يمكن ألا أحقق لكم الأمنية الحقيقية التي خُلق الإنسان من أجلها.

السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ما هي كيفية اللقاء أو الرؤية التي يذكرها الإسلام؟ والجواب هو أن بيان كيفية شيء لطيف كهذا يفوق قدرة الإنسان. إن هذه الكيفية تتعلق بإدراك القلب فحسب. والذي يحظى بهذه الكيفية هو وحده القادر على فهمها وإدراكها، ويتعذر على الآخرين استيعابها لأنها حالة جديدة بالنسبة لهم بكل معنى الكلمة. والناس لا يستوعبون إلا الحالات التي تكون قد وردت عليهم من قبل. فمثلا إذا سبق لأحد أن تذوق الحلوى فيمكننا أن نبين له معنى الحلاوة. فلو قلنا له إن هذا الشيء حلو جدا لتبادرت إلى ذهنه الحالة التي تطرأ عليه عند تناوله الحلوى. ولكن الذي لم يتذوق الحلوى قط يستحيل عليه إدراك الطعم الحلو، إلا أن نبين له بلغة الإشارات، ومع ذلك لن يقدر على فهمها جيدا. وقد نقدر على إفهامه كيفية الحلوى من خلال بعض تأثيراتها على الأشياء الأخرى مثل اللزوجة والرطوبة وما شابههما، وهكذا يمكن أن نخبره إلى حد ما أن للحلوى مذاقا غير مذاق الملح مثلا. غير أن أفضل سبيل لإفهامه الأمر هو أن توضع قطعة حلوى في فمه

[1] سورة القيامة: ٢٣-٢٤

[2] سورة البقرة: ١٥٣

ويقال له: هذه هي الحلوى. وهكذا فإن كيفية لقاء الله أيضا لا يمكن بيانها بالكلمات. ولكن بما أن الموضوع يتعلق بالإيمان الذي يعتمد عليه تقدم الإنسان الروحاني لذا فقد خلق الله تعالى أسبابا وآثارا يتبين جليا من خلالها أن شخصًا ما يحظى برؤية الله وبعلاقة حية معه ﷻ. ومثله كمثل الآلة المصنوعة من المعدن تماما، فإذا وُصلت بالكهرباء تولدت فيها القوة تلقائيا، وسيعرف الناظرون أنها متصلة بقوة أكبر. وهكذا ظلت آثار لقاء الله تعالى تظهر منذ القِدم ولا تزال تظهر على المنوال نفسه. إن علاقة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم ظهرت للعيان من خلال تجلي صفات الله تعالى، وإلا كان من المستحيل أن يفهم أحد كيفية صلتهم بالله في زمنهم أو في هذا الزمن.

وبما أن ذات الله تعالى وراء الوراء لذا فلا تتحقق العلاقة به أو رؤيته إلا بواسطة تجليات صفاته. يقول رسول الله ﷺ: "تخلقوا بأخلاق الله"[1]، أي إذا كنتم تريدون لقاء الله ﷻ فعليكم أن تتصبغوا بصبغة صفات الله واجعلوا أخلاقكم مماثلة للصفات الإلهية.

اعلموا أن الصلة بالذات التي هي وراء الوراء لا تتحقق إلا بالمعرفة، والمعرفة كما فصّلها القرآن الكريم على ثلاث درجات. الأولى: علم اليقين، أي أن يعلم الإنسان شيئا بواسطة آثاره دون رؤيته إياه. والثانية: عين اليقين، أي أن يرى الإنسان ذلك الشيء رأي العين- وألا يقتصر الأمر على آثاره- ولكن دون أن يعرف حقيقته معرفة تامة. والدرجة الثالثة للمعرفة هي حق اليقين: أن يطلع الإنسان على حقيقة ذلك الشيء ويرى تأثيراته على نفسه إلى درجة أنْ يتمكن الآخرون من بني جنسه من التعرف عليه.

---

[1] *التفسير الكبير للإمام الرازي، تفسير الآية: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. (المترجم)*

إن مَثَلَ هذه الدرجات الثلاث كالذي رأى دخانًا يتصاعد من بعيد فاستيقن أن هناك نارا تشتعل، ولكنه لا يكون على يقين كامل، لأن العين تخطئ أحيانا في المشاهدة وتظن الغبار دخانا. ولكنه لو اقترب من المكان وشاهد النار مشتعلة بعينيه لازداد يقينا، ولكنه رغم رؤيته النار بعينه لا يطّلع على حقيقتها بصورة كاملة. ولكن لو وضع يده في النار وجرّب صفة الحرق فيها لوصل يقينه إلى درجة الكمال. ومع أن هناك درجات أخرى لهذه الدرجات الثلاث لليقين ولكن الأنواع الرئيسة هي تلك التي ذكرناها. ولقد أودعت الفطرةُ الرغبةَ في الحصول على هذه الدرجات، فترى أن الطفل عندما يكبر قليلا يجد في نفسه رغبة عارمة في أن يضع يده في النار مرة على الأقل ليجرب تأثيرها. وأظن أنه ليس في الدنيا طفل واحد لم يحرق يده في سبيل تحقيق رغبته هذه.

الإسلام يقدم درجات العرفان الثلاث هذه، الدرجة الأولى لمعرفة الله هي أن يسمع الإنسان من الناس عن صفاته ﷻ أنها كانت تظهر في السابق بصورة كذا وكذا، فيقرأ مثلًا عن أحداث الذين خلوا من الصلحاء ومعاملة الله تعالى لهم بأسلوب خاص، فيتولد في قلبه يقين بحتمية وجود نوع من الحقيقة في الأمر، ولكن هذا اليقين يمكن أن يُحدث هياجا مؤقتا وليس أكثر، فعندما يخطو بنفسه بهذا الاتجاه يكون مَثَلُه كمثل الذي يرى الدخان من بعيد فيجري بحثًا عن النار، ولكنه مهما مشى طويلا لا يرى إلا الدخان ولا يعثر على النار، فيجلس يائسا في نهاية المطاف، ويحسب أن عينه قد خُدعت بدخانٍ مزعوم، وأنه قد يكون سحابة أو ما شابهها. فالذي يطمئن بالعلم الحاصل من القصص القديمة ويحاول الحصول على المعرفة بنفسه يكون عرضة لليأس في نهاية المطاف. ولا يطمئن إلى القصص القديمة إلا الذين لا يحاولون بأنفسهم الحصول على

شيء، فلا تكون لديهم فرصة أن يجربوا بطلان تيقنهم، وهذه حالة ليست بالتي يحسد عليها.

الإسلام لا يجعل معرفة الإنسان مقتصرة على درجتها الأولى فقط، بل- وكما قلتُ من قبل- يترك باب الدرجات الثلاث من المعرفة مفتوحا على الدوام، ويدّعي أنه كلما تقدم أحد بحسب المبادئ التي بيَّنها الإسلام وفق التعليم الإلهي ينال المعرفة على قدر سعيه. وليس هناك مقام معرفة قد سد الله تعالى بابه على عباده الآن وكان مفتوحا على الذين خلوا.

لقد بيّنتُ من قبل أن العرفان الحقيقي كيفية معينة تتولد في قلب الإنسان، وهي تجديد للبصيرة الروحانية التي من خلالها يرى الإنسان صفات الله تعالى من منظور جديد، وهي حدة الأحاسيس التي من خلالها يجد الإنسان نفسه محاطا بصفات الله سبحانه وتعالى. ولكن كما أن لكل شيء بعض العلامات كذلك للوصال الإلهي أيضا بعض العلامات التي من خلالها يشعر الإنسان بعلاقته مع الله عز وجل، ويشعر بها الآخرون أيضا، فمن المعلوم أن اقتراب شيء من شيء آخر له صفة معينة يؤدي حتمًا إلى تأثر الأول بصفة الثاني. فمثلا حين يجلس الإنسان قرب النار يشعر بالحرارة، وعندما يجلس قرب الثلج تؤثر فيه البرودة. وكذلك لو احتك شخص بشيء ذي رائحة زكية لفاحت من ثيابه رائحة طيبة، وإذا اقترب من ذات قادرة على الكلام فإن موجات الكلام تتناهى إلى أذنيه، فيأخذ نصيبه من علم المتكلم. إذًا، لو حظي أحد بلقاء الله تعالى لوجب أن تلاحظ في نفسه بعض العلامات الدالة على أنه حائز على قرب الله عز وجل. وإن لم يتجاوز الأمر الادعاء باللسان فقط، فما الفرق إذًا بين ما يدعيه شخص مخادع ومخاتل وما يدعيه عباد الله الصالحون؟ وماذا عسى أن يستفيد الناس من مخالطة شخص حائز على درجة لقاء الله سبحانه وتعالى؟

لقد بيّن الإسلام ثلاث درجات للقاء الله وتتبين كيفيتها من خلال علاماتها؛ فهي من ناحية درجات لقائه، ومن ناحية أخرى وسيلة لتقوية اليقين بذات الله ﷻ وهي كالتالي:

(١) استجابة الدعاء. (٢) المكالمة الإلهية، (٣) احتضان الصفاتِ الإلهيةِ الإنسانَ.

الدرجة الأولى؛ استجابة الدعاء:

الإسلام يدّعي أن الله تعالى قد فتح باب الدعاء ليهب الناس يقينا بذاته وليرزقهم علما بوجوده وليجذبهم إلى نفسه. أي إذا دعا اللهَ أحدٌ استجاب اللهُ دعاءه بشرط أن يكون بطريق معقول وإلى حد مناسب. فيقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] ... فيزيل ظلم الظالم ويقيم المظلوم المستغيث مقامه. هل من إله غيره يملك هذه القوة والقدرة؟

لقد ترك الله تعالى هذا المجال مفتوحا للجميع؛ بمعنى أن الله تعالى يستجيب دعاء جميع الناس- أيًّا كان دينهم- إذا دعوا في حالة الاضطرار. وهكذا يُتيح لهم الفرصة أن يشعروا بوجود الله والصلة به ﷻ، ويخرجوا من حالة الشك والريبة. ومما لا شك فيه أنه من المفروض أن يحظى الناس بالمعرفة إلى حد ما- كيفما كانت حالتهم- ليتوجَّهوا إلى الله تعالى، لأن الإنسان إنما يتوجه إلى شيء ما حين تتولد في قلبه أهميته.

وهذا المقام، كما قلت، مفتوح لأتباع جميع الأديان. فيمكن لأتباع كل دين أن يجربوا دعاء الله، ولسوف يشعرون بفائدته وسيعلمون أن كثيرا من المصائب التي كانوا يعانونها من قبل تزول بالدعاء. ولكن هذه الدرجة من

[1] سورة النمل: ٦٣

المعرفة ناقصة جدا لأنه يمكن أن يساور الإنسانَ شكٌّ في أن الأمر الذي تم بعد الدعاء كان من الممكن أن يتم بدونه أيضا، والمصيبة التي زالت بعد الدعاء كان ممكنا أن تزول بغيره أيضا. وكثيرا ما نرى حدوث الصُدَف مثلا أن الأمر الذي يكون على وشك التمام يتوقف صدفة، وتنحل المشكلة أحيانا بدون الدعاء أيضا. ويحدث تارة أن الشخص الذي يمر بهذه التجربة لا يكون مؤمنا بالدعاء أصلا.

هذا، وهناك عيب آخر في درجة المعرفة هذه، وهو أنها تشبه بعض القوانين الطبيعية بما فيها المسمرية والتنويم المغناطيسي. فترى أن كثيرا من الأمراض تزول والمصائب تختفي بهاتين الظاهرتين الطبيعيتين. فهنا قد تنتاب الإنسان شبهة فيقول: قد يكون الدعاء أيضا شيئا من هذا القبيل، إذ لا تأتي النصرة من الله تعالى بل تظهر بعض النتائج بتركيز التوجه فقط. ومع أنه من الممكن أن تتولد شبهات كهذه في الدعاء في هذه الدرجة ولكنها مع ذلك وسيلة لنوال اليقين إلى حد ما إجمالا، ويمكن للناس أن يستفيدوا منها. وحين أقول إنه من الممكن أن تنشأ شبهات كهذه في الدعاء في هذه الدرجة فأقصد من ذلك أن هناك درجة أخرى وهي يقينية تماما، ولكنها تندرج تحت أنواع أخرى من المعرفة سأذكرها في حينها.

الدرجة الثانية للمعرفة، المكالمة الإلهية:

الإسلام يركِّز على هذه الدرجة بوجه خاص، في حين تعتقد الأديانُ الأخرى بشكل عام أن هذا الباب مغلق. ولكن ليس للعقل أن يسلّم أن الله تعالى كان يكلِّم الناس من قبل ليهبهم اليقين بذاته ولكنه امتنع الآن عن الكلام مطلقا. والحق أن صفات الله قائمة على الدوام، وإنه ﷻ منزه من الزوال والخلل، فلماذا إذاً هذا السكوت الذي طال أمده إلى مئات السنين بل يكاد

يبلغ آلاف السنين؟ وإذا كان الله لا يتكلم فكيف نعرف أنه يسمع؟ وكيف نعلم أن صفاته الأخرى أيضا بخير؟ ألا يحق لأحد أن يتساءل بعد امتناعه عن الكلام أنه ﷻ لم يعد يرى، وفقَدَ علمه أيضا؟ كما لم يعد قادرا على الحماية، وإن نظام العالم يعمل الآن تلقائيًا؟ وإذا كانت صفاته الأخرى تعمل الآن أيضا كما كانت تعمل من قبل فلماذا تعطلت صفة الكلام؟ من المعلوم أنه ﷻ وراء الوراء، فلا يمكن رؤيته للتيقن من وجوده، و لم يكن من سبيل لتزويد الناس بالعلم واليقين بوجوده إلا كلامه، فإذا أُغلِق هذا الباب أيضا فأي سبيل بقي ليوقن الناس بوجوده؟

أيها الإخوة والأخوات! يعلن الإسلام أن الظنّ بانقطاع سلسلة كلام الله لا يصح، بل الله ﷻ يتكلم الآن أيضا كما كان يتكلم من قبل، وإنه يذكرُ عباده الآن أيضا كما كان يفعل من قبل. بل قد وسّع سلسلة الكلام على غرار سلسلة الدعاء ليهدي الناس إلى نفسه؛ وقد يتلقى الوحيَ أحيانا أناس هم بعيدون عن الدين حتى لا يرتابوا في كلام الصادقين بل يشهدوا على صدقهم.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[1]، أي سوف تنالون كل ما تتمناه نفوسكم، بمعنى أنه سوف تتحقق بصورة أعلى وأكمل أمنيتكم للقاء الله التي هي الأمنية الأساسية للمؤمنين.

يتبين من هذه الآية بكل جلاء أن الإسلام يعتقد أن باب نزول كلام الله مفتوح، بل يَعِدُ ﷻ به أيضا. ولكل واحد أن يقدِّر إلى أي مدى سيزداد إيمان الذي يكلِّمه الله مباشرة أو بوساطة الملائكة، وإلى أية درجة يتقوى يقينه وإيمانه

[1] سورة فصّلت: ٣١-٣٢

بالله وكم سيتقوى قلبه! لأن سماع الكلام نوع من الرؤية؛ فلو انفصل صديق عن صاحبه في الفلاة ثم ناداه من بعيد وقال إنني موجود في مكان كذا، لزال خوفه تماما كزواله برؤيته. إذًا، فالذي يكلمه الله تعالى ينال اليقينَ بذاته كيقينه برؤية العين.

الإسلام لا يدّعي فقط أنه لا زال يولَد في المسلمين منذ ١٣ قرنا إلى اليوم أناس كلّمهم الله على الدوام، وأن هذا الأمر قد بلغ درجة التواتر، وأن الشك فيه بمنزلة فتح باب الأوهام. لقد نزل كلام الله على المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر، وبتأثير قوته القدسية تيسر لآلاف الناس من جماعتنا أن يسمعوا كلام الله. وأرى أن ٥٠ ٪ من الأحمديين سمعوا كلام الله بشكل أو بآخر، مما أدى إلى تقوية إيمانهم ويقينهم.

يجب أن نتذكر هنا أنه ليس المراد من كلام الله- كما يفهمه الناس عادة- الأفكار الحسنة المندفعة بشدة إلى أذهانهم فيظنونها وحيا من الله. وقد فرّط بعض الناس جهلا منهم إلى درجة الظن أن كلام الله لم ينزل قط، وإنما سُمِّيت أفكار الأنبياء وحيا وإلهاما. ولكن الإسلام لا يعتقد ذلك على الإطلاق بل يخبرنا أن وحي الله تعالى إنما يتنَزّلُ بكلمات، ويكلِّم اللهُ العبدَ كما يكلِّم الناسُ بعضَهم، ويحدث صوت كما يحدث في أثناء كلام الناس فيما بينهم، فيسمع المرء هذا الصوت كما يسمع كلام الناس. والفرق الوحيد هو أن صوت الوحي يكون جليل الشأن وقويا. ومع وجود القوة والجلال فيه توجد أيضا متعة وفيها تسيطر على الإنسان حالة من الوجد، ويحسب أنه قد جُذِب إلى العالم العلوي، واستولت عليه قوة عظيمة. عندئذ يُلقى كلام لطيف إما على مسامعه فيسمعه، أو يُنزَّل على لسانه فيردده، أو يُعرض عليه مكتوبًا فيقرؤه ويعيه. وفي أثناء ذلك تبقى حالة من الوجد مسيطرة عليه، لتكون دليلا على أنها ليست من قبيل الوهم أو حديث النفس، بل كل ما حدث كان من قِبل ذات عُليا.

وبالإضافة إلى أنواع الإلهام المذكورة، هناك نوعان آخران ينـــزلان مجازيًا بدلا من الكلمات؛ أحدهما يسمى الحُلم، الذي يكون في أثناء النوم الكامـــل، وفيه يُرَى الإنسانُ شيئا بصورة الاستعارة والمجاز. فمثلا إذا رأى الإنسانُ لبَنًـــا يكون المراد منه العلم، وإذا رأى جاموسا فيكون المراد منه الوباء والمرض.

والنوع الثاني هو الكشف، بحيث يلتقي الإنسان مع الأموات لقاء روحانيا في يقظة كاملة، أو يرى بعض الأمور التي تحدث في مكان آخر مـــع كونـــه مشغولا في أعماله في مكانه. وتسمى مثل هذه المشاهد كـــشفا في المـــصطلح الإسلامي، وكل هذه الأنواع ثابتة من القرآن الكريم، غير أن ذكرها المفـــصل سوف يطوِّل المقال كثيرا.

إذًا، الإسلام لا يقول إن المراد من الإلهام هو أن تتولد فكرة ما في القلب فحسب، ولا شك أن هذا الظن نشأ بسبب الحرمان من نعمة الإلهام فقط، ولو اعتُبر صحيحا لفقد الإلهام مصداقيته تماما لأن مجرد الأفكار والتحريضات القلبية موجودة عند كل إنسان في العالم. لو كان ذلك إلهاما لأمكن لكل إنـــسان أن يعُدّ الأفكار الناشئة في قلبه إلهاما. وعندها يمكن القول بأنه لا يوجد في العـــالم كتاب يخلو من الإلهام. والحق أنه لا بد من أن يكون الكلام الإلهي من العظمة بحيث يفتح على صاحبه سبيل اليقين والثقة بدلا من فتحه بـــاب الوســـاوس والشبهات. أما إذا كان الإلهام اسما آخر لمجرد الأفكار والتحريضات القلبية دون أن ينـــزل الإلهام بالكلمات لواجه كثير من الناس مصيبة كبيرة وحسبوا كـــل فكرة تتولد في قلوبهم إلهاما. ولكن لا بد أن يكون في الكلام النازل من الله ما يميزه عن غيره بحيث لا تضاهيه الأفكار والأوهام فيُؤاخذ النـــاسَ دون مـــبرر وخطأ منهم.

إذًا، ما هي المزية الفريدة التي من خلالها يمكن للإنسان أن يميز أنها خاطرة خطرت بقلبه وليست إلهاما أو العكس هو الصحيح، أو هي عبارة كتبها بنفسه

وليس مما أملاه الله أو العكس صحيح؟ ولو قيل: إن متلقي الوحي يدرك للتـو أنه من الله وما هو بحديث النفس، لقلتُ: إذا اعتبرنا الأفكار الناشئة في القلب إلهاما لظلت أفكارٌ تنشأ في الذهن أن فكرة كذا وكذا ليست حديث النفس بل هي إلهام. والحق أن مثل هذه الاعتبارات لا تؤدي إلى فقدان الثقة في الـدين فحسب بل تزيد الأوهام والوساوس والجرأة على الله تعالى إلى درجة أن هناك خطرا على أصحاب هذه الأفكار أن يوجدوا لأنفسهم دينا جديدا بناء علـى هذه العثرات البسيطة، ويبتعدوا عن الحقيقة ويتعثروا ويسببوا العثار للآخـرين أيضا.

مما لا شك فيه أنه قد تساور بعض الناس شبهاتٌ حتى بالنسبة إلى الإلهام اللفظي؛ ففي بعض الأمراض الدماغية قد يرى المرء مشاهد أو يسمع كلمـات أحيانًا، ولكن هناك مخرج من هذه الحالة، هو أنه لا ينخدع من مثل هذا الإلهام المزعوم إلا من كان مجنونا واختل عقله. أما في الحالة الأولى فقد يعتبر الشخص العاقل أيضا أفكاره إلهاما حين تساوره الوساوس مهما كانت بسيطة، ولا تبقى في يده حيلة لدرء هذا الخطأ.

فكما قلتُ من قبل إن الوسوسة القائلة بأن الإلهام ليس إلا أفكار تتولد في الذهن، إنما تنشأ بسبب الحرمان من الإلهام. فلو تلقى أصحاب هذه الوسوسـة إلهاما من الله ولو مرة واحدة، لما انتابتهم هذه الوساوس، ولعلموا أن الله تعالى ينـزل كلامه بكلمات ذات هيبة وصوت جميل فيسمعها عباده كما يسمعون أيّ كلام آخر، ولا مجال للشك والريبة في ذلك. وبفضل الله تعالى إن كاتـب هذا المقال قد جرّب ذلك بنفسه، ويمكنه القول بناء على تجربته الشخـصية إن كلام الله يكون على هيئة كلمات وليس كالخيال فقط.

يجب أن نتذكر هنا أنه ليس ضروريا- بحسب القرآن الكريم- أن يكـون كل إلهام أو حلمٍ أو كشف من الله تعالى، بل يقبل الإسلام أن للإلهام والأحلام

أنواعا عدة. فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[1].

أي نقدم كشهادة النباتَ- الذي لا ساق له- إذا هوى. فكما أن النبات الذي لا ساق له إذا تصاعد قليلا فإنه يهوي إلى الأرض من تلقائه، كذلك حال الذي يدّعي النبوة كذبا وزورا- سواء كان يختلق الإلهام من عنده أو كان مخدوعا- لذا كلما بدأت جماعته بالازدياد تطرقت إليها آثار الانحطاط والتقهقر فورا، لأن تعليمه لا يكون مبنيا على العلوم الروحانية التي هي ضرورية لبقاء جماعة دينية. لذا فإن جماعته لا تحظى بالنمو والازدهار بل يصيبها الدمار قبل أن تأخذ صورة مذهب مستقل. فلا يقدر هذا المدعي على أن يقف إزاء أديان أخرى رافعا رأسه، بل يكون بصورة فرقة فقط بحيث ينخفض رأسُه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾، أي إن ادعاءه ليس ناجما عن غواية وضلال، بمعنى أنه ليس مخدوعا بخديعة كما أنه لا يفتري إلهاما من عنده على علمه أنه لا يُلهَم إليه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ أي إن كلامه ليس مبنيا على مشاهد خيالية اختلقها بهواه فاعتبرها إلهاما. بل نزل عليه الإلهام في الحقيقة من إله شديد القوى. ولا تزعموا أن هذا الإلهام نزل من قبل الشيطان بل إن منزِّل الإلهام عليه هو الإله شديد القوى الذي في يده ملكوت كل شيء، وبإظهار قدرته سيثبت أن الإلهام النازل على هذا المدعي صادق ومن عند الله. وسوف تزداد وتزدهر جماعته وتصير مثل دوحة عظيمة، وينضم إليها أصحاب طبائع وعلوم وثقافات مختلفة، ولن يقدر الدهر على محوها. وليقفِنَّ رافعا رأسه إزاء أصحاب المذاهب الكثيرة الأخرى ويُعَدُّ واحدا منهم.

---

[1] سورة النجم: ٢-٦

فهذه الآية تتناول أربعة أنواع للإلهام. النوع الأول هو الإلهام الذي يتعذر على الإنسانِ العثورُ على مصدره، لأن مصدره يكون خللاً دماغيًّا. والنوع الثاني هو الإلهام النابع عن أهواء النفس، ولو تأمل فيه الإنسان لعَلِم أنه شاهد مشهدا بحسب أفكار تولَّدت في قلبه. والنوع الثالث هو الإلهام من الشيطان الذي يكون مبنيا على تعليم السيئات والإلحاد بدلا من الروحانية. والنوع الرابع هو الإلهام النازل من الله تعالى.

فعندما أقول بأن الإسلام يعُدّ الإلهام وسيلة للقاء الله تعالى فلا أقصد من ذلك أن كل حُلم وإلهام يكون من هذا النوع حتما؛ بل أسلّم بإخبار القرآن الكريم عن الأحلام قبل البحوث الحديثة بفترة طويلة أن لها نوعين من الناحية الطبية؛ أولها: تلك التي يراها الإنسان نتيجة خللٍ في الدماغ، والثاني: التي يراها نتيجة أهواء النفس. وما قصدته هو الإلهامات التي تنزل من الله ﷻ وتتميز عن الإلهامات النابعة عن أهواء النفس.

وبما أن للإلهام أنواعا أخرى أيضا لذا فإن الإلهام العادي ليس بما يعتد به للحصول على المعرفة، لأنه لابد أن تكون الوسيلة المؤدية إلى المعرفة قطعية الثبوت وكاملة بحد ذاتها حتى لا يبقى مجال للشك والريبة بعدها.

ليكن معلوما أنني استخدمت كلمة الإلهام العادي لأن الشبهات المذكورة إنما تنشأ حول الإلهام العادي فقط وإلا فالإلهام والوحي الحقيقي أيضا يحتلان، مثل الدعاء، مكانة من شأنها أن تولِّد المعرفة من النوع الثالث التي سوف أذكرها تحت القسم الثالث. فالإلهام العادي يؤدي إلى المعرفة من النوع الثاني، بمعنى أنه يوصل صاحبه إلى عين اليقين ولا يرفعه أكثر من ذلك.

بعد بيان نوعين من المعرفة أتناول الآن النوع الثالث منها. الإسلام يدَّعي خلقَ هذا النوع من المعرفة أي حق اليقين ويؤكد على ذلك أيما تأكيد، فيأمر المسلمين أن يدعوا الله تعالى في صلواتهم الخمس كل يوم دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أربعين أو خمسين مرة تقريبا. ثم يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم إن المراد من المنعم عليهم هم الذين وهبهم الله تعالى مقام النبوة والصديقية والشهادة والصالحية. أي أنهم إما أنبياء أو قد قاربوا درجة الأنبياء، أو لم يقربوا مقام النبوة ولكنهم نالوا نصيبا من صفات الله ووصلوا مرتبة يستطيعون من خلالها أن يقدموا للناس نماذج عملية لصفات الله ﷻ، وقادرون على أن يرشدوهم إلى صفاته الحسنى بناء على تجربتهم الشخصية. أو أنهم قد خلقوا في أنفسهم مؤهلات لنيل درجة الشهادة. والحق أن الإنسان يبرأ من الشك والريب إن نال إحدى المراتب الثلاثة الأولى.

ماذا يفيدنا التأكيد على أن الله تعالى عليم ما لم نحصل على شهادة يقينية على علمه، وما لم نشاهد نماذج علمه بأم أعيننا؟ وكيف إذن يمكننا القول باليقين، أو بالأحرى كيف يمكننا القول بصدق إنه ﷻ عليم؟ يقال عن الله تعالى أنه هو الذي يحيي وهو الخالق، إن لم نر دليلا على أنه يحيي فعلا فكيف يمكننا أن نقول بيقين بل كيف يمكننا القول بصدق إنه يحيي الموتى فعلا. ويقال إنه الخالق في حين نرى أن كل شيء يُخلَق بحسب قوانين معينه، فكيف نوقن أن لله دخلا في الخلق؟ كيف يمكننا القول بالجزم، أو بالأحرى بأمانة أن الله هو الخالق في الحقيقة؟ ثم نقول إن كل شيء في قبضته وتحت تصرفه، وإلى جانب ذلك هناك كثير من الناس الذين ينكرون حتى وجوده ﷻ، فلما لا نرى علامة ظاهرية لتصرفه، فكيف يمكننا القول إذن باليقين، بل أقول كيف يمكننا القول بصدق بأن الله هو المتصرف في أمور العالم؟ والحال نفسه بالنسبة إلى صفاته الأخرى. فما لم يكن لدينا دليل قاطع على أن صفات الله تعالى تتجلى بصورة لا يمكننا عزوها إلى الصدفة، فكيف يمكننا القول إن هذه الصفات موجودة في الله ﷻ؟ الحق أنه ما دام الله تعالى لا يُرى بالعين وإنما نعلم وجوده من خلال صفاته، فما لم تكن لدينا شهادة قاطعة على ظهور صفاته أنّى لنا أن نقول

بصدق إن هناك إلها موجودا في الحقيقة، وأن كل ما يحدث في الدنيا ليس نتيجةً القانونِ الطبيعي الذي لا حياة فيه وهو معقد تعقيدا شديدا لا يُعرف كنهه، وهو ساري المفعول على أحسن ما يرام؟

الإسلام وحده يزيل هذه الشبهة. لقد كان في الإسلام أناس عاملون بتعاليمه فصاروا مظاهر لصفات الله تعالى ويلقون ظلال صفاته على أنفسهم أولا ثم أروا الآخرين وجودَه ﷻ ووهبوهم معرفته ﷻ الكاملة. فقد بعث الله تعالى في هذا العصر- ليعرف الناس ذاته ﷻ ويتخلّصوا من حياة الشك والريبة- المسيحَ الموعود الذي بعمله بتعاليم الإسلام نال هذه المرتبة التي نالها الأنبياء منذ القدم. بل أرشده الله القرآن الكريم إلى مرتبة أعلى من مراتب العديد من الأنبياء وهي مرتبة ما هُديَ إليها إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. وبقوته القدسية أثبت الله صفات الله تعالى بصورة يقينية بحيث يستغرب كل من شهدَ تجلياتها أو سمع عنها. لقد أُحيي بوساطة تلك الآيات الباهرات مئات آلاف الناس، وقد بُرِئ مئات الآلاف الآخرون من الأمراض بتلك المعجزات. ولقد نال حضرته الله من المعرفة درجة لا تترك مجالا لأي نوع من الشك والريبة، وحظي بلقاء بالله تعالى لا يبقى بعده بُعدٌ، ونال وصالا به ﷻ بما لا يبقى بعده انفصال، وانصبغ بصبغة الله تعالى بحيث لم تبق فيه صبغة أخرى. وصار من أجل هذا الحبيب الأزلي منقطعا عن الدنيا انقطاعا تاما فصار له الله ﷻ الحبيب الأزلي.

مجمل القول إنه الله جرّب بنفسه كل أمر من أوامر الإسلام ووجده صحيحا سليما وأحس بنتائجه الطيبة. وأُلبِس رداء صفات الله بصورة ظلية، فتوجه إلى الدنيا متزينا بذلك الرداء ليجذب الناس إلى الله تعالى. وكان من حقه وحده أن يجذبهم إليه ﷻ لأن السنة القديمة والمستمرة هي أنه لا يصعد إلى السماء إلا الذين ينزلون من السماء. يقول المسيح الناصري الله: "وَلَيْسَ أَحَدٌ

صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ."[1] . ولكني أضيف على ذلك وأقول: لا أَحد يستطيع أَن يصعد إلى السماء إلا الذي يُرسَل من السماء. فالمسيح الموعود الذي ألبسه الله تعالى رداء جلاله كعطاء من عنده ثم أرسله إلى الدنيا لهدايتها، كان من حقه وحده أن يوصل الناس إلى الله تعالى. فأظهر حضرته كل صفة من صفاته تعالى في نفسه، وقرّب الناس إلى الله تعالى بتقريب الله إليهم؛ لقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[2]، فالله تعالى ينظر إلى ضعف عباده فيدنو منهم بنفسه. فكما هي سنته ﷻ جارية منذ القدم كذلك تجلّى الآن أيضا على المسيح الموعود، وبواسطته أظهر ﷻ نفسه على الدنيا كلها ليَثبت أنه إله الأحياء. وإنه إلهنا اليوم أيضا كما كان إله إبراهيم وموسى وعيسى وإله محمد ﷺ، لم يخذلنا بل نحن الذين كنا قد هجرناه جهلا منا.

إنه لمن الصعب حقا أن أبيّن كل صفة من صفات الله تعالى وأوضح كيف قدمها المسيح الموعود عليه السلام أمام العالم وأثبتها، بعد الحصول على المعرفة الكاملة، ولكني سأتناول بعض الأمثلة فقط.

أتناول أولا تلك الصفة التي يقدّمها كل صغير وكبير وهي صفة العلم. يقول أتباع كل دين بأن الله عليم ويعلم كل صغيرة وكبيرة، ولكن لا أحد يقدر على أن يبين كيف يُعلَم أن الله عليم. أما المسيح الموعود عليه السلام فقد أثبت هذه الصفة للعالم بشهادات عملية، فأظهر على العالم علوما كان بعضها خافيا عن أعين العالم، ومنها ما كانت طريقة الحصول عليها غير عادية تماما، ومنها ما كان الإطلاع عليها فوق قدرة الإنسان. مثال النوع الأول هو ذلك التعليم الذي جاء به المسيح الموعود عليه السلام وقد ذكرتُ بعضه من قبل كمثال وسأذكر بعضه لاحقا بإذن الله. وفيما يلي أذكر أمثلة على النوع الثاني، والثالث.

---

[1] إنجيل يوحنا ٣: ١٣

[2] سورة الأنعام: ١٠٤

قد لا يكون معظمكم على علم أنه عليه السلام كان يسكن في ناحية من الهند كانت تحت حكم السيخ، وكان العلم والثقافة معدومين تماما في تلك المناطق. فهو لم يدرس في المدرسة إذ لم يلتحق بأية مدرسة ولو لعشرة أيام، غير أن والده جعله يدرس بعض الكتب الابتدائية على يد بعض المدرسين العاديين جدا. ولكن الله تعالى حين شرفه بمقام النبوة علمّه العربية في ليلة واحدة بحيث عجز علماء العرب ومصر عن مبارزته. فألّف كتبا بالعربية وتحدى فيها معانديه مرارا أنه إذا كانوا يحسبون تأليفاته نتيجة العلم الإنساني فليؤلّفوا كتبا مثلها. ولكن لم يبارزه أحد، لا من علماء مصر ولا من علماء العرب ولا من علماء الهند على تحدياته المتكررة ودعوته للمبارزة. فهذه المعجزة العلمية التي ظهرت على يده عليه السلام لا يمكن إلا أن تُعَدّ دليلا على كون الله تعالى عليما؟ هل يُعقل أن ينال المرء كمالا إلى هذه الدرجة بناء على الأوهام؟ إن منطقة البنجاب بعيدة عن بلاد العرب، كما تبعد عن مراكز العلم والثقافة بحيث لا توجد أدنى إمكانية أن يكون حضرته قد تلقى علوم العربية باحتكاكه مع الناس. وحتى إن افترضنا جدلا أنه تعلمها، فالمتخرجون من الجامعات الرسمية في البنجاب لا يقدرون على أن يكتبوا بضع صفحات بالعربية، فكيف تمكّن هو عليه السلام من إتقانها إلى هذه الدرجة نتيجة بقائه في صحبة العلماء لبضعة أيام وهو في بلدته في البنجاب، بحيث أصبح قادرا على تأليف زهاء ٢٥ كتابا وتحدى العلماء جميعا ولكن لم يبارزه أحد على الإطلاق؟ لا شك أن بعض الناس هم مضرب المثل في الفصاحة والبلاغة مثل شكسبير (William Shakespeare) ودانتي (Dante)[1]، ولكن تقديم مثالهم هنا لا يصحّ بأي حال لأنهم لم يدّعوا شيئا قبل

[1] وليام شيكسبير (١٥٦٤م- ١٦١٦م) شاعر إنجليزي عظيم وكاتب مسرحي، وُلد في "سترات فورد" عام ١٥٦٤م. إن فنه البديع أرفع من جميع الكمالات الأدبية التي قد يتصورها الإنسان. والأدباء والشعراء الذين جاؤوا بعده تأثروا جميعا بأسلوبه البديع.

بلوغهم تلك المرتبة، وما كانوا يعلمون أصلا إن كانت كتبهم ستنال قبولا، بل عندما اشتهرت تلك الكتب عندها علم الناس بعلوّ مرتبتها. والمعلوم أنه عندما يتسابق الناس في العدْو لا بد أن يسبق أحدهم على أية حال، والذي يسبق لا يحق له أن يعُدّ ذلك أمرا غير عادي. أما إذا كان هناك شخص مريض وهزيل لا يقدر حتى على المشي جيدا، ثم يخوض السباق ويخبر مسبقا أنه سيحرز قَصَبَ السَّبْق حتما ثم يحرزه فعلا فلا شك أن احتلاله المرتبة الأولى سوف يُعَدّ معجزة ويُنسب إلى قوة عليا.

فهكذا يُظهر الله تعالى صفته "العليم"، فيتبين من "سِفر أعمال الرسل، الإصحاح ٢" أن الله تعالى قد أظهر صفته "العليم" بواسطة الحواريين أيضا إذ علّمهم لغات قبائل أخرى. ولكن الفرق هو، كما يبدو من سفر أعمال الرسل، أنهم قد عُلِّموا لغات القبائل اليهودية، وكانت تصدر منهم الأخطاء أيضا. أما المسيح الموعود عليه السلام فقد عُلِّم لغة بلد أجنبي، وجُعل يتقنها أيما إتقان حتى إن أصحاب تلك اللغة أنفسهم لم يقدروا على مبارزته رغم تحدياته المتكررة لهم.

والبرهان الآخر على كون الله تعالى عليما ظهر في صورة مؤتمر الأديان هذا الذي اجتمعتم اليوم من أجله، والذي تلقى الإمام المهدي عليه السلام كشفا عنه قبل ٣٤ عاما، ذُكر فيه انتشار جماعته في أوروبا. وسجّل حضرته عليه السلام هذا الكشف في كتابه "إزالة الأوهام" المنشور في عام ١٨٩١م، وتعريب ما جاء فيه كما يلي:

(تلخيصيا عن الموسوعة الأردية، الجزء الأول، الصفحة ٨٧٢، طبعة لاهور عام ١٩٨٧م).

"دانتي" (١٢٦٥-١٣٢١م) شاعر إيطالي معروف، وله مجموعة منظومه باسم "الكوميديا الإلهية" التي بسببها يُعَدّ من أعظم الأدباء الستة في العالم. (تلخيصا عن الموسوعة البريطانية ج٧ ص٣٦- ٤١ طبعة ١٩٥٠م).

"أمّا طلوع الشمس من مغربها، فنؤمن به أيضًا؛ وقد كُشف عليّ في الرؤيا أن طلوع الشمس من المغرب يعني أن البلاد الغربية التي تسودها ظلمة الكفر والضلال من القِدم ستُنوَّر بشمس الصدق والحق، وستُعطَى نصيبا من الإسلام. ذات مرة رأيتُني في المنام على منبرٍ في مدينة لندن أبين صدق الإسلام باللغة الإنجليزية ببيان مدعوم بالحجج القوية، وبعدها أمسكتُ طيورا بيضاء كثيرة كانت على أشجار صغيرة، وكانت بحجم السُّمَاني على وجه التقدير، ففسرت الرؤيا أنه وإن لم يكتب لي شخصيا فإن كتاباتي ستنتشر بين هؤلاء القوم، وأن كثيرا من الإنجليز الصادقين سيكونون صيدًا للصدق. الحق أن علاقة أهل البلاد الغربية مع الحقائق الدينية في الأزمنة الغابرة كانت ضعيفة جدا، وكأن الله تعالى قد أعطى الفطنة الدينية كلها لسكان آسيا، أما أهل أوروبا وأميركا فقد أُعطُوا الفطنة الدنيوية كلها. وأن سلسلة الأنبياء أيضا كانت في نصيب أهل آسيا من البداية إلى النهاية، وهم الذين نالوا كمالات الولاية أيضا، أما الآن فيريد الله أن ينظر إلى هؤلاء القوم أيضا بنظرة الرحمة"[1].

الكلام بيّن والمقصود واضح، إذ قد أخبره الله تعالى قبل ٣٤ عاما أنه سيسافر إلى أوروبا ويبلّغ الإسلام، وأن خطاباته ستكون سببا لنشر الإسلام هناك، وأخيرا سينال الغرب نصيبا من الدين كما نال اليوم نصيبا من الدنيا.

لا شك أن المسيح الموعود عليه السلام رأى في الكشف أنه هو الذي يلقي الخطاب، ولكن مما لا شك فيه أن المراد من النبيِّ أمّتُه ولا سيما خلفاؤه. لذا فقد أنبِئ في هذا الكشف أن خليفة من خلفائه سيسافر إلى بريطانيا ويدعو الناس إلى الإسلام. وقيل فيه أيضا إن الدعوة إلى الإسلام ستُوجَّه إلى الناس من منصة، وسيعتنق الناسُ الأحمديةَ، فيبارك الله تعالى فيهم.

[1] إزالة الأوهام، الخزائن الروحانية ج٣ ص٣٧٦-٣٧٧

فيا أيها الإخوة والأخوات! لا تستهينوا بتحقق هذه الرؤيا لأن حقيقة كل شيء تظهر بعد الإطلاع على كافة الظروف المحيطة بها. انظروا الظروف التي أُدلي فيها بهذا الخبر، ثم فكِّروا مَن كان المخبر؟

لقد اُنبئ بهذا الخبر في ظروف كانت المسيحية غالبة إلى درجة أن كان المسلمون مرعوبين منها بكل معنى الكلمة، حتى أن بعض الكُتّاب المسلمين- دونك المؤلفين الأوروبيين- بدأوا يعترفون من خلال كتاباتهم أن المسيحية سوف تنتصر على الإسلام في غضون قرن واحد. أضفْ إلى ذلك أن بعض الناس كانوا قد بدأوا مشروعا باسم "الصلح الديني" ليُعقد الصلح بين الإسلام والمسيحية، ويتم الاعتراف بأن المسيحية حق والإسلام حق أيضا، وألا يكون هناك أي اصطدام بين الاثنين، وذلك لأنهم كانوا خائفين أن الإسلام لا يسعه الصمود أمام المسيحية. وبدأ بعض الناس بتقديم الاعتذار إلى أهل أوروبا فيما يتعلق بالقضايا التي كان الغرب يحسبها محل اعتراض، وبدأوا يقولون بأن الإسلام لا يقصد منها ما تظنون بل لا يقول عنها الإسلام في الحقيقة إلا ما تقولونه أنتم. أو شرعوا في تقديم الأعذار قائلين بأن الإسلام قد جاء في عصر الظلام حين كانت حالة العرب سيئة للغاية فأعطُوا بعض الأوامر مؤقتا بغية إصلاحهم التدريجي، ولم تكن تلك الأوامر هي المقصود بالذات، والآن سوف تنسخها مجامع العلماء، أو شرع بعض الناس يقولون بأن النبي ﷺ كان يتكلم نظرا إلى أفكار العرب القومية ومعتقداتهم ولكنه كان يقصد بذلك شيئا آخر.

إذًا، فقد كان المسلمون قد اعترفوا قولا وعملا أنه لم تبق من حياة الإسلام إلا أيام معدودة. ولم يجدوا في أنفسهم قوة للدفاع أيضا ناهيك عن الهجوم، وكانوا جاهزين للاستسلام. وكانوا ينتظرون أن يتم الصلح بينهم وبين المسيحية على شروط مقبولة وألا يُعَدّوا وحوشا كليا.

هذه كانت حالة القوم، أما حالة المسيح الموعود الذي نشر النبأ فلم يكن لديه أية جماعة، وكان إعلانه كونه المسيح الموعود حديث العهد جدا، وكان العالم كله يعاديه. كانت الحكومة والرعايا أيضا معارضة له. لقد عارضه المسيحيون وعاداه الهندوس أيضا، والقوم الذين قام المسيح الموعود لتأييد دينهم صاروا أعدى أعدائه. كان إعلانه على قدر كبير من الغرابة، إذ كان المسلمون ينتظرون مهديا سفاكا للدماء لينـزل من السماء مباشرة، بينما عرض فكرة أنه من المقدر أن يأتي المسيح لإقامة الصلح والوئام وحقن الدماء، وأن المسيح والمهدي ليسا شخصين منفصلينِ بل اسمان لشخص واحد، وأنه لن ينـزل من السماء بل يُبعث من هذا العالم. والأغرب من ذلك أنه ادعى أنه هو ذلك المسيح الموعود الذي لا يفوق غيره من حيث العلم والمرتبة والشرف وغيرها. من المعلوم أن الإنسان يحتاج إلى المال من أجل السفر إلى بلاد أجنبية بغية نشر صيته، ولكن حالة هذا المدعي كانت أنه لم يكن معه إلا أربعون أو خمسون شخصا وكان جميعهم- إلا اثنين كانا ميسوري الحال نسبيا- يعانون من حالة مادية متردية للغاية ومن الفقراء الذين يقل دخلهم الشهري حتى عن ١٥ روبية، وبهذا المبلغ الزهيد كانوا يسدون كافة حاجاتهم وحاجات أقاربهم؛ فنهض هذا المدعي مع جماعة تألفت من حفنة من هؤلاء الفقراء في الظروف التي ذكرتها آنفا. وقد قام في منطقة من الهند تقع على بُعد ٦٠٠٠ ميل من الغرب وتخضع لحكم الإنجليز، وتُعَد حقيرة الشأن جدا. والإقليم الذي قام فيه هذا المدعي كان الأكثر انحطاطا من ناحية التعليم والثقافة من بين جميع أقاليم الهند، وكان يقع على بعد مئات الأميال من شاطئ البحر. فقد بُعث هذا المدعي في قرية تقع على بُعد ١١ميلا من أقرب محطة للقطار، و لم يكن يأتيها البريد إلا مرتين في الأسبوع، وكان مدير المدرسة يقوم بأعمال البريد مقابل مبلغ زهيد. وإن أقصى حد للثقافة والتعليم في تلك القرية كان

شهادة الابتدائية العامة فحسب، إذ لم تكن بها أية مدرسة أعلى. هذا ما كانت عليه قاديان في الأيام التي نشر فيها المسيح الموعود ؑ النبأ المذكور وقال بأن الله تعالى قد أخبره أنه سوف ينشر تعليمه في الغرب، وسيُقرأ هذا التعليم هناك من على المنصات، وسيصدقه أهل الغرب ويدخلون جماعته، وهكـذا كـان. فراحت جماعته تتقدم وتزدهر ووصلت إلى بلاد الغرب، ودخلها النـاس مـن جميع الفئات حتى بدأت تنجذب إليها الأرواحُ الـمُحِبّة للصدق مـن أهـل الغرب.

الدعوة للاشتراك في هذا المؤتمر الديني ليست دعوة عادية بالنسبة للمذاهب الأخرى تُقدَّم مثل هذه المناسبة ليزيد عددُ المشتركين من رونق المنـصة علـى الأقل. أما بالنسبة لنا فتحمل هذه الدعوة أهمية غير عادية تماما لأنها قد حققت كشفا رآه ونشره سيدنا المسيح الموعود ؑ في ظروف مختلفة تمامـا. فلـو سلكت جماعته ؑ مسلكا عاديا فقط لكان من المستحيل أن تُوجَّـه إليهـا الدعوة للاشتراك في مؤتمر الأديان بلندن، بل كانت ستُدمَّر منذ فترة طويلـة. ولكن الله تعالى نمّاها بحسب الكشف المذكور، وفي نهاية المطاف حدث كمـا قيل بالضبط، وثبت أن الله عليم ويخبر عن أمور لا يمكن للإنسان أن يعلمهـا، ويخبر سبحانه وتعالى عنها حين يراها الناس غير معقولة البتَّة.

ولا يسعني أن أمتنع عن ذكر دليل آخر ضمن الدلائل التي قدمها الإمـام المهدي ؑ إثباتا لصفة الله "العليم"، لأنه أيضا يتعلق بأوروبا، ولا يزال تأثيره القوي والعميق ساري المفعول على أوروبا وأميركا. وهذا الدليل هو ذلك النبأ الذي نشره حضرته عن حرب أوروبا وعاقبة "قيصر روسيا". إن هذا النبأ قـد تم بيانه في أجزاء صغيرة واكتمل بصورته النهائية بدءًا مـن عـام ١٩٠٤م إلى ١٩٠٨م. فيقول ؑ في هذا الصدد ما مفاده: لقد أخبرني الله تعالى أن زلزالا قويا واقع قريبا. ثم قال عن الزلزال نفسه: "ليس ضروريا أن يكون المراد منه أن

الأرض سوف تهتز حتما بل قد يكون المراد منه آفة تـؤدي إلى الخـسارة في الأرواح وهدم البيوت فيسيل الدم أنهارا، ويصيب الناس فزع شديد."[1].

يتبين من الكيفية التي بينها حضرته لهذا الزلزال أن المراد منه كان الحـرب العالمية في الحقيقة لأنه يقول بأنه قد أُخبِر أن الفزع يعمّ العالم عند حدوث هذا الزلزال، ويكون الوقت عصيبا على المسافرين، (هذا يشير بصراحة إلى أن المراد هنا هو الحرب، لأن الزلزال العادي لا يؤثر على المسافرين بوجـه خـاص)، ويحمر ماء القنوات والجداول بالدم، وأن هذه الآفة سوف تحل فجأة ولن يعرف الناس عنها شيئا قبل حلولها، وأنها تشيِّب الشباب، وتُنسَف الجبال. يصاب كثير من الناس بالجنون من جراء صدمتها، وتأثيرها يعمّ العالم كله. وأن حالة قيصر روسيا تكون عندها مزرية، ويصيب الضعف شتى الحكومـات مـن جـراء صدمتها، وتُوضع السفنُ الحربية على أتم الاستعداد وتُبحر بكثرة من مكان إلى آخر لتعثر على أساطيل الأعداء وتحاربها. تُقلب الأرض رأسا علـى عقـب، وينـزل الله تعالى مع عساكره ليعاقب هؤلاء القوم على ذنوبهم. سيكون لهذه الآفة أثرٌ على الطيور أيضا، وسوف يخرج العرب للحرب نظرا إلى مصالحهم، وينهزم الأتراك في ميدان الشام، ولكنهم سيستعيدون بعد الهزيمة بعضا من قوتهم المفقودة. وستظهر أمارات هذا الزلزال قبيل حدوثه، ولكن الله تعالى سـيؤجله إلى بضعة أعوام.

غير أن هذه الآفة سوف تقع خلال ١٦ عاما من نشر النبأ عنها، وستقع بعد وفاة سيدنا المسيح الموعود عليه السلام.

لاحظوا الآن كيف تحققت كل هذه الأمور بكل قوة وعظمة ودقة، وبأية شدة حدث الزلزال الذي أُخبِر عنه، وكيف هزّ العالم كله. وكما قلتُ من قبل بأنه لم يكن المراد من الزلزال زلزالا عاديا، فقد استخدم القرآن الكريم هـذه

[1] البراهين الأحمدية، الجزء الخامس، الخزائن الروحانية، ج٢١ ص١٥١- ١٥٢ الهامش.

الكلمة بمعنى الحروب أيضا[1]. كما استُخدِم هذا التعبير في الكتاب المقدس أيضا للدلالة على الحرب[2]. ثم انظروا كيف تحقق النبأ بكل جزئياته وكيف اندلعت الحرب فجأة وأحاطت بالعالم كله؟ لقد نُشر هذا النبأ في عام ١٩٠٥م واندلعت الحرب بعده بتسع سنوات بالضبط وذلك بعد وفاة سيدنا أحمد عليه السلام في ١٩٠٨م. وتركت الحرب تأثيرها المهلك والمزري على العالم كله بحيث لم ينج منه أحد. الحكومات المتحاربة تضررت منها على أية حال، ولم تسلم منها الحكومات الأخرى أيضا. لقد ألحقت الحرب بالمسافرين أيضا أضرارا تنخلع لذكرها القلوب. وقصة المصائب التي تعرض لها المواطنون من الأقوام المتحاربة الذين كانوا عند نشوب الحرب يسكنون في بلاد خصومهم، وحاولوا الفرار من تلك البلاد أو أُسروا في النهاية لهي قصة أليمة وطويلة جدا. كان هناك ألوف من الناس الذين لم يعرفوا عن أقاربهم وحالتهم شيئا إلى سنوات طويلة. نُسفت الجبالُ كما تُنسَف تلال الرمال. وبعض الجبال في فرنسا التي كانت في ميدان القتال سُوِّيت بالأرض. وقد سُفكت الدماء مرات عديدة حتى جَرَتْ أنهارا عمليا، واحمرت منها مياه الأنهار. وقد شاخ بصدمتها كثير من الشباب قبل الأوان، وقد أصاب الكثير جنونٌ كما قيل، وارتفع عدد المجانين كثيرا حتى عُدّتْ "صعقة الحرب" مرضا جديدا، وسقط ضحيتها كثير من الناس فلم يقدروا على أي عمل إلى شهور بل إلى سنوات عديدة. وتحركت السفن الحربية بكثرة بحثا عن أهدافها بما لم يسبق له نظير. وقُلِّبت الأرض إلى درجة أنْ لم تتمكن فرنسا إلى اليوم من أن تعيد بعض مناطقها المدمَّرة إلى سابق عهدها. أما تأثيرها على الطيور فقد نُشر في الأخبار في تلك الأيام أن الطيور كانت-

[1] سورة الزلزلة: ٣
[2] صَمُوئِيلَ الأَوَّلُ ١٤: ١٥

بسبب الشغب وإطلاق القذائف- تبدأ بالطيران عفويا وعشوائيا وباضــطراب ولا يستقر لها قرار، حتى سقط كثير منها على الأرض منهكةً وماتت.

إن تأثيرات هذه الحرب، كما جاء في النبأ، ظهرت في فترة معينة من قبل ثم توقفت مؤقتا، أي في يوليو/تموز ١٩١١م حين أرسلت ألمانيا سفينة حربيــة اسمها (Panther) إلى ميناء مدينة "أغادير" المغربية بغية الاستيلاء عليها. ولــو لم تتدخل الحكومة الإنجليزية بقوة، ولولا أن بعض المفكرين الأوروبيين ارتأوا أن بلادهم ليست مستعدة للحرب بَعد، لاندلعت هذه الحرب في عــام ١٩١١م بدلا من ١٩١٤م.

وكما جاء في النبوءة فقد انضم العرب أيضا إلى صفوف القوى المتحالفة في الحرب وانفصلوا عن الأتراك نظرا إلى مصلحة بلادهم. وحين خابت الجهود كلها في ممر "دانيال" وفي العراق-مع أنهما كانتا تُعتبران جبهتين حقيقيــتين في الحرب- هُزمت تركيا في الشام في نهاية المطاف حسب النبوءة ووضعت الحرب أوزارها. ثم استعادت تركيا القوة مجددا بواسطة "مصطفى كمــال باشــا"، واستردت بعض كرامتها الضائعة كما قيل في النبأ.

غير أن الجزء المهيب من النبأ كان يتعلق بـــ" قيصر روسيا". وقد أُخبِر عنه دون غيره من السلاطين، وقيل بأن حالته ستكون مزرية، ولن يُنــزع منه الحكم فقط بل سيتعرض لمصائب أخرى أيضا، أي لن يموت ولن يُقتل بل سيبقى حيــا ويواجه معاناة ومصائب كبيرة. فترون كيف تحققت كل كلمة وحرف من النبأ، إذ زال حكمه أولا ولكنه نجا حينها بحياته، ثم قُتل بدون هــوادة بعــد ذلــك، وهُتكت أعراضُ زوجته وبناته أمام عينيه ولكنه كان بلا حول ولا قوة.

تنخلع القلوب وترتعد الأبدان بذكر المصائب التي تعرض لها قيصر روسيا، ولكن إلى جانب ذلك يتقوى الإيمان كثيرا بالله العليم الذي أخبر بوقوع هــذه

الأحداث قبل ١٤ عاما حين لم يكن لكثير منها أن تخطر على البال على الإطلاق.

ألا تكفي هذه الأمور كلها للإثبات أن إله الإسلام عليم؟ أو قولوا إن شئتم إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي بواسطته يمكن الحصول على معرفة الله العليم، وهو الدين الوحيد الذي بواسطته يمكن للإنسان أن يُنشئ علاقته بالله ﷻ.

والصفة الثانية من صفات الله التي هي على لسان وشفتي كل صغير وكبير وتتفق عليها معظم الأديان، هي صفة الخلق. تدّعي معظم الأديان أن الإله الذي تقدمه هو خالق الكون، وخلق الناس والدواب كلها، وأن كل ذرة مِن صنعه هو. ولكن ما هي الأدلة التي تقدمها تلك الأديان لدعم دعواها؟ طبعا ليس عندها أية أدلة. ليس بناء ادعائها هذا إلا على فكرة أنه إن لم يكن الله خالق هذا الكون فمن الذي خلقه إذًا؟ ولكن هذا الدليل موجود في أيدي الملحدين أيضا وهم يعرفون قوانين الطبيعة بعمق أكثر، فدينهم ودنياهم مقتصران على دراسة قوانين الطبيعة فحسب. وبعد دراستهم العميقة يتوصلون إلى نتيجة أن نظام الكون جارٍ من تلقائه. إذًا، فالذين بذلوا حياتهم كلها في دراسة قوانين الطبيعة ومع ذلك لم يتمكنوا من الاستفادة منها، فأنَّى لغيرهم أن يستفيدوا منها أو يثقوا بها؟

ثم لا بد من الانتباه أيضا إلى أن أكثر ما يمكن لنا العثور عليه بواسطة قوانين الطبيعة هو أنه يجب أن يكون لهذا الكون إله وخالق. ولكن التعبير "يجب أن يكون" يفيد الظن فقط ولا يوصلنا إلى مرتبة اليقين أبدا.

نرى في حياتنا اليومية أن الأمر الذي لا نعرف السبب وراءه نكتشف سببه بالعقل، ثم نعثر فيما بعد على أن سببه الحقيقي مختلف تماما عما ذهبنا إليه نحن، وهكذا يتبين خطأ أفكارنا. فبما أننا لم نكتشف إلى الآن كنه المادة وكيفية صنعها ومزاياها والدوافع وراء عملها حق الاكتشاف، أليس ممكنا والحالة هذه

أن نقول إنه "يجب أن يكون" وراء إدارة نظام هذا الكون خالق ومدبر آخر أيضا إضافة إلى قوانين الطبيعة، ولكن يجب أن تكون في الحقيقة للمادة بعض الميزات والدوافع التي تغنيها عن مساعدة خارجية وتجعلها قادرة على العمل من تلقائها؟ فما دامت مثل هذه الاحتمالات واردة فكيف يمكن أن يُقنعنا الدليل المذكور آنفا؟ الدليل المقنع هو ذلك الذي يسمو بنا من مرتبة "يجب أن يكون موجودا" ويوصلنا إلى مرتبة "بل هو موجود حتما"، ويزيل احتمال الشك والريبة كليا. وهذا لا يمكن أن يحدث ما لم نشاهد صفة الله "الخالق"، بأم أعيننا وما لم نر بأنفسنا أنه هو الخالق. ولكن ليس هناك دين جاهز على أن يهبنا هذا اليقين إلا المسيح الموعود عليه السلام الذي يوصلنا إلى هذه المرتبة من اليقين ويهبنا نصيبا من المعرفة. فلا يقول لنا أن نقرّ بأن هناك إلها وهو الخالق، بل يقول: تعالوا معي أريكم إلها يخلق، وأؤكد لكم أن الطبيعة لا تخلُق، بل الله الذي خلق الطبيعة هو يخلق. فالأدلة التي قدمها حضرته على هذا الموضوع كثيرة جدا ولكنني سوف أذكر هنا اثنين أو ثلاثة منها فقط.

اعلموا أن الدليل القاطع على كون شخص علة لأمر من الأمور إنما يتحقق حين نرى نموذج قوته من ناحيتين. أي أن يتحقق الأمر حين يريد هو فقط تحقيقه وإلا فلا. ولو ظهر جانب واحد فقط، أي يتحقق الأمر حين أراد ذلك، لكان ممكنا أن يساورنا شك فنقول: قد يكون وراء حدوث هذا الأمر أكثر من شخص يقدرون على تحقيق مثله. وحين نرى أن هذا الأمر لا يمكن أن يحققه إلا الشخص الفلاني فقط، فلا بد أن نقدم على ذلك أدلة من نوعين اثنين. أولا: يجب أن نثبت أنه قادر على فعل ذلك، وثانيا: أنه لو لم يقم هو بتحقيق هذا العمل فإنه لن يتحقق.

والآن أقدم- بناء على المبدأ المذكور- أدلة الإيجاب والنفي التي ساقها المسيح الموعود عليه السلام لإثبات كون الله تعالى خالقا.

فأولا أُثبت لكم ما هي المعجزات التي أراها المسيح الموعود عليه السلام ويثبت منها أن الله هو الخالق. وفي هذا المجال أذكر أولا بيانا لشخص اسمه السيد "عطا محمد" ويعمل محدّدَ الأراضي. فقد نُشر بيانه في كتاب "سيرة المهدي" حيث يقول:

"حين كنت غير أحمدي، وأعمل محدِّدَ أراض في منطقة "ونجوان" في مقاطعة "غورداسبور"، كان القاضي نعمة الله الخطيب البتالوي صديقا لي، وكان يبشرني كثيرا ببعثة المسيح الموعود عليه السلام، أما أنا فكنت لا أبالي بذلك. وفي أحد الأيام ألح السيد نعمة الله كثيرا في تبشيره، فقلت له: حسنا، سأبعث إلى مرشدك رسالة أطلب فيها الدعاء منه لأمر معين، ولو تحقق هذا الأمر لاعترفتُ بصدقه.

فبعثتُ رسالة إلى حضرته قلت فيها بأنك تدعي كونك مسيحا موعودا وولي الله، والمعلوم أن أدعية الأولياء مجابة. فادع لي أن يرزقني الله تعالى ولدا جميلا وسعيد الحظ من الزوجة التي أريده منها. وكتبتُ في نهاية الرسالة أن لي ثلاث زوجات، ولكن لم تنجب ولا إحداهن بعد. وأريد أن أرزَق بصبي من الزوجة الأولى (كان يقصد من ذلك أن الزوجة الأولى هي الأكبر سنا، فولادة صبي منها تكون أصعب) ثم وصلتني رسالة بخط المولوي عبد الكريم السيالكوتي، (وكان من كبار الجماعة ومسؤولا عن فرع بريد المسيح الموعود عليه السلام) جاء فيها ما مفاده أننا قد دعونا في حضرة الله تعالى، والله سبحانه وتعالى سيرزقك صبيا وسيما وسعيد الحظ من الزوجة التي تريد، ولكن بشرط أن تتوب توبة زكريا عليه السلام.

يقول المنشي عطا محمد: كنت في تلك الأيام بعيدا عن الدين أيما بُعد وأتعاطى الخمور وأرتشي فذهبت إلى المسجد وسألت الشيخ: كيف كانت "توبة زكريا"؟ فتعجب الناس وقالوا: كيف جاء هذا الشيطان إلى المسجد؟

ولكن الشيخ لم يستطع أن يجيب على سؤالي. ثم سألت المولوي فتح الدين الأحمدي من قرية "دهرم كوت"، فأجابني قائلا: المراد من "توبة زكريا" أن تتخلى عن السيئات، وكُلِ الحلالَ والتزم بالصلاة والصيام، وأكثِر من التردد على المسجد. سمعتُ ذلك وبدأت أعمل به. تركت شرب الخمر والرشوة نهائيا والتزمت بالصلاة والصيام.

لم يمض إلا أربعة أو خمسة شهور تقريبا، إذ دخلتُ البيت في أحد الأيام وإذ بزوجتي الأولى تبكي. سألتها عن سبب البكاء فقالت: كنتُ من قبل أعاني من أنني لم أُرزق بالأولاد، فجئتَ بضرتين علي، أما الآن فقد حلت بي مصيبة أخرى فقد انقطع الطمث (أي لم يبق هناك أي أمل في الإنجاب). كان أخوها في تلك الأيام يعمل في الشرطة في مدينة "أمرتسر"، فقالت: أوصِلني إلى بيت أخي حتى أتعالج هناك. قلتُ: لا تذهبي إلى هناك بل أفضّل بقاءك هنا، واطلبي القابلة لتفحصك وتعالجك.

فدعت القابلة وطلبت منها الدواء. فقالت القابلة لها: لن ألمسك ولن أعطيك دواء، لأنه يبدو لي وكأن الله تعالى قد نسي شيئا في أحشائك. (أي كنتِ عقيما ولكن يبدو الآن أنك حامل، وكأن الله تعالى قد جعلك حاملا خطأً، والعياذ بالله- من مؤلف السيرة) وبدأت القابلة تقول علنا إن الله تعالى قد نسي شيئا في بطنها. فقلتُ لها: لا تقولي هذا بل كنت قد طلبتُ الدعاء من حضرة المرزا لحملها.

يضيف حضرة المنشي ويقول: بعد فترة وجيزة بدأت علامات الحمل تظهر بكل وضوح. أما أنا فبدأتُ أشيع في الناس وأقول: اعلموا أنني سوف أُرزق طفلا ذكرا وسيكون وسيما أيضا. فاستغرب الناس كلهم وقالوا: لو حدث ذلك لكانت معجزة كبيرة حقا. فبعد انقضاء فترة الحمل أنجبت زوجتي ذات ليلة ابنا وسيما. ذهبتُ في الحال إلى قرية "دهرم كوت بغّا" حيث يسكن

كثير من أقاربي وأخبرهم بولادة المولود، فذهب كثير من النـــاس لتـــوهم إلى قاديان للبيعة، و لم يذهب بعضهم الآخرون. وكذلك قد بايع بعد هذا الحادث كثير من الناس من قرية "ونجوان" وبايعت أنا أيضا، وسميتُ الولد "عبد الحق". يقول حضرة المنشي المحترم: لقد رُزقت بهذا الابن بعد مضي أكثر من ١٢ عاما من الزواج، و لم أُرزق بالأولاد قبله[1].

كم هو واضح وبيِّن هذا الحادث! وكيف يتبين منه بجلاء أن إلهنا إله حي وخالق أيضا. فإذا لم يكن هناك إله أو لم يكن قادرًا على الخلق، فكيـــف رُزق بالذُرِّية هذا الشخصُ العقيم- الذي تزوج من ثلاث نساء في غضون ١٢ عاما للحصول على الأولاد- نتيجة دعاء المسيح الموعود ؑ؟ وليس هذا فحسب بل رُزق بالذرية وفق الشروط التي وضعها هو، أي أن يُرزق بصبي من الزوجة التي كانت الأكبر سنا، ثم رُزق بابن وسيم كما طلب. فإذا لم يكن هناك إله أو هو ليس بخالق، فكيف حدث كل ذلك بدعاء المسيح الموعود ؑ؟ ومما يزيد هذه المعجزة عظمةً وشأنا هو أننا نرى أن طالب الدعاء قد أُخبِر خطيا قبـــل الأوان أنه سوف يُرزق بالذرية حسب الشروط التي وضعها هو.

ثم تتبين عظمة هذا الحادث أكثر من خلال ذلك التأثير الذي وقع علـــى الناس الذين شهدوا حدوثه. كان تأثير هذا الحادث، كما قلت من قبـــل، أن الشخص المعني بايع على الفور، كذلك سافر للمبايعة كثير من أقاربـــه علـــى الفور إلى قاديان ليلا تحت جنح الظلام، وبايع كثيرون آخرون من أهل القرية. إن ذلك الطفل، وأباه وكثيرين آخرين ممن شاهدوا هذه المعجزة، لا زالوا على قيد الحياة بفضل الله تعالى، وبإمكان كل راغـــب في البحـــث والتحقيـــق أن يسألهم.

[1] سيرة المهدي الجزء الأول ص ٢٣٩- ٢٤١ طبعة ١٩٣٥م بقاديان.

إضافة إلى هذا الحادث هناك حوادث أخرى كثيرة من هذا القبيل؛ إذ قد رُزق بدعائه عليه السلام أناسٌ كانوا محرومين من الذرية، غير أنني أكتفي بمثال واحد في هذا المجال. والحق أن كل مولود وُلد في بيت المسيح الموعود عليه السلام، ذكرا كان أو أنثى كان نتيجة نبوءة. كذلك رُزق كثير من الناس الآخرين أيضا نتيجة دعائه.

الآن أقدم إليكم معجزة من نوع آخر عن إنجاب الأولاد لأن هذا الأمر يمثّل شهادة قوية ويقينية على خَلق الله. لقد ظهرت هذه المعجزة عندما رأى عليه السلام في الرؤيا أنه كتب- عن نفسه وأصدقائه- على ورقة بعض الأمور المتعلقة بالقضاء والقدر والحسنات والسيئات آملًا أن يحقق الله تعالى هذه الأمور كما كتبها تماما. ثم رأى اللهَ سبحانه وتعالى متمثلا، ووضع تلك الورقة أمامه ليوقِّعها. فوقّع الله عليها بالحبر الأحمر. وكان الحبر على سِنّ القلم عند التوقيع زائدًا فهزّ الله عز وجل القلم فسقطت قطرات من الحبر الأحمر على ثيابه عليه السلام، فاغرورقت عيناه بالدموع لقبول الله تعالى رجاءَه وتوقيعه على طلبه، ثم استيقظ عليه السلام. كان ميانْ محمد عبد الله عندئذ يربِّت على قدميه فأرى المسيحَ الموعودَ عليه السلام قطرات الحبر الحمراءَ وهي ندية على ثيابه، ثم سأله: لقد رأيتُ هذه القطرات الحمراء الندية عند دلكي قدميكَ- وقد لمس عبد الله إحدى القطرات بيده وكانت رطبة- فما الأمر؟ أرأيتَ كشفًا أو رؤيا؟ عندها حكى له سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هذا الكشف.

هذه القطرات قد سقطت على ثيابه عليه السلام وعلى قبعة المولوي محمد عبد الله-الذي كان يعمل جابيًا في ولاية بتياله- وكان يربّت على قدميه عليه السلام. طلب المولوي محمد عبد الله من المسيح الموعودِ عليه السلام القميصَ الذي وقعت عليه قطرات الحبر تذكارا لهذه المعجزة. فأعطاه حضرتُه القميص بشرط أن يوصي المولوي محمد عبد الله بدفن القميص معه عند وفاته حتى لا يكون سببا لانتشار

الشرك فيما بعد. لقد سألت شخصيا المولوي عبد الله المحترم، وهو لا يزال على قيد الحياة بفضل الله تعالى، فيما إذا كانت هناك أية إمكانية ظاهرية لسقوط الحبر أو ما شابهه في ذلك المكان؟ فقال ما مفاده: كان سقف الغرفة نظيفا تماما، ولقد أمعنتُ النظر في السقف ظنا مني أن تكون هذه القطرات سقطت من جرح في سحلية، فلم أجد أيّ أثر من هذا القبيل، ونوعية السقف أيضا كانت تستبعد تماما هذه الإمكانية. وقال أيضا بأنه لم يكن في الغرفة أي شيء من قبيل المحبرة وما شابهها. وكما قلت من قبل إن حضرة المولوي محمد عبد الله لا يزال على قيد الحياة بفضل الله تعالى، والقميص الذي وقعت عليه القطرات الحمراء محفوظ عنده، وهو يشهد على صدق هذا الحادث حالفا بالله سبحانه وتعالى[1].

اعلموا أننا لا نعتقد أن لله تعالى صورةً مادية، أو أنه يوقّع ماديًّا أو يستعمل القلم أو الحبر، وأن القطرات التي ظهرت على القميص قد نتجت عن حبر استخدمه الله تعالى في الواقع. بل نعتقد، كما قلت من قبل، أن الله تعالى منزه عن المِثل والنظير، ونؤمن بكونه منزها عن التمثل والحلول، ونعتقد أن ما رآه المسيح الموعود عليه السلام كان كشفا، وصورة الله تعالى التي رآها حضرته كانت في الحقيقة تجسيدا لعلاقته عليه السلام مع الله عزّ وجلّ. والمراد من التوقيع هو أن الله تعالى سوف يحقق أمانيه ويعطيه مراده. والحبر الذي وقع على ثيابه وعلى شخص جالس بجانبه لم يكن من قلم الله تعالى لأن الله تعالى لا يستخدم القلم ولا الحبر؛ بل الحق أنه عزّ وجلّ قد أنتج ذلك اللون بخلقه في الخارج بصفته "الخالق" وأسقطه ليكون آية له ولغيره. ولكي يتقوى الإيمان واليقين بصفة الله "الخالق"، ولكي يعرف الناس أن الله تعالى قادر على خلق الأشياء بدون الأسباب

[1] تلخيصا عن "كحل لعيون الآريا"، الخزائن الروحانية ج٢ ص١٨٠ الهامش.

الظاهرية أيضا. وأن صفته "الخالق" سارية المفعول اليوم أيضا كما كانت تعمل في بدء الخليقة.

والآن أقدم معجزة أخرى له عليه السلام، سيتبين من خلالها أن الله تعالى كما أنه قادر تمام القدرة على الخلق، كذلك إذا أمر بعدم حدوث أمر ما فإنه لا يحدث قط، ليثبت بصورة قطعية أن صفة الخلق توجد في الله تعالى وحده على وجه أكمل، ولا دخل لغيره فيها لأنه لو كان لغيره أيضا نصيب فيها لكان من الممكن أن يأتي أمر ما إلى حيز الوجود بأمر من غيره رغم حكم الله تعالى بعدم حدوثه.

وبيان ذلك أن عدوا لدودا للمسيح الموعود عليه السلام اسمه "سعد الله"، كان مدرسا في مدرسة المسيحيين في مدينة "لدهيانه" وكان بذيء اللسان إلى أقصى الحدود وكان شغله الشاغل أن ينشر باستمرار ضد المسيح الموعود عليه السلام كلامًا منظوما ومنثورًا يكيل فيه من السباب والشتائم ما لا يمكن لأي إنسان شريف أن يتصوره. وقد قال عنه المسيح الموعود عليه السلام ما مفاده: لا أظن أن شخصا آخر قد سبَّ نبيًّا بقدر ما سبني هذا الشخص. وإلى جانب سبابه كان هذا الشخص يروّج أيضا أن المرزا كاذب ومفتر- والعياذ بالله- لذا سوف يهلك ويدمَّر ولن تتحقق الأنباء التي نشرها عليه السلام عن أولاده، بل سيكون خائبا خاسرا. وحين تجاوزت شتائمه الحدود وصار حجر عثرة للكثيرين دعا المسيح الموعودُ في حضرة الله أن يري بشأنه آية.

فاستجاب الله دعاءه، ولكن لما كان هذا الشخص قد بَعُد عن الهداية أيما بُعد، وكان مصرا على إغلاق باب الرحمة على نفسه بيده، فقدّر الله تعالى أن يُقتَل بالسيف الذي كان قد امتشقه ضد المسيح الموعود عليه السلام. فأوحى الله عز وجل

إلى المسيح الموعود عليه السلام قائلا: "إن شانئك هو الأبتر"[1]. أي إن عدوك هـذا الذي يقول عنك إن نسلك سيُقطع، فإن نسله هو سوف يُقطع وسيبقى أبتر.

والغريب في الأمر أنه عندما تلقى المسيح الموعود عليه السلام هذا الوحي كـان لسعد الله ابنا يقارب عمره ١٤ عاما، وكان هذا العدو لا يزال في سن الشباب ولم يكن هناك سبب لانقطاع نسله في المستقبل. ولكن حين رفع الله الخالق ظِل صفته "الخالق" عن هذا الشخص بعد الوحي المذكور آنفا، انقطعت سلسلة نسله مع حداثة سنه نسبيا. وعاش بعد الوحي المذكور ١٤ عاما ولم يُرزق بذرية حتى مات في أواخر يناير/كانون الثاني عام ١٩٠٧م تحقيقا للوحي المذكور.

لو اقتصرت المعجزة على هذا الحد لكان في ذلك أيضا دليل قوي على صفة خلق الله تعالى، ولكن الله جل جلاله زادها عظمة. وبيان ذلك أن الأعداء حين رأوا ظهور آية عظيمة له عليه السلام، بدأوا من ناحية يثيرون ضجة أن المرزا (الإمام المهدي عليه السلام) كان قد تنبأ أن سعد الله سيكون أبتر ولكن ابنه موجود، ومن ناحية ثانية بذلوا قصارى جهدهم لتزويج هذا الابن ليكون له أولاد فتتسنى لهم فرصة لتكذيب حضرته عليه السلام. فكتب حضرته في كتابه "حقيقة الوحي" ردا على اعتراضاتهم أن هذا الابن كان موجودا قبل النبوءة، فوجوده لا ينافي مضمون النبوءة. ولكن لو رُزق هذا الابن أولادا لكان ذلك مدعاة للاعتراض، ولكن تذكروا أنه لن يُرزق بأولاد أبدا وسيبقى سعد الله مقطوع النسل وأبتر حتما، وكذلك كان؛ فقد زُوِّجَ ابن سعد الله ولكنه لم يُرزق بأولاد. ثم زوّجه أعداء أحمد عليه السلام مرة ثانية لعله يُرزق بولد فيجدوا فرصة لتكذيبه عليه السلام ولكنه لم يُرزق بولد إلى اليوم.

[1] "التذكرة"، مجموعة الرؤى والكشوف للمسيح الموعود عليه السلام، ص ٢٦٥ الطبعة الرابعة.

القول بأن شابا يافعًا لن يُرزق أولادًا لأمرٌ يرتعب الإنسان من الإقدام عليه. وعندما كتب حضرته ﷺ ذلك في كتابه اعترض عليه بشدة أحد مريديه- الذي كان محاميا وكان إيمانه ضعيفا لضحالة بصيرته، وقد تعثر بعد وفاته ﷺ كما تعثر بعض حواريي المسيح الناصري ﷺ- وقال: لماذا تكتب هكذا؟ فلو رُزق بالأولاد لواجهنا مشكلة كبيرة ولأدى ذلك إلى شماتة الأعداء، ومن الممكن أيضا أن يرفع أحد منهم قضية ضدك. فقال ﷺ في الجواب: أنّى لي أن أعرض عما يخبرني به الله تعالى أو أشك فيه؟ وإن اعتراضك هذا ناتج عن قلة الإيمان ليس إلا. وهذا ما ثبت بالضبط.

فلو مات ابن سعد الله في الصغر لقال قائل بأن وفاته كانت وليدة صدفة. ولكن انظروا وتأملوا! أن الله تعالى حرم سعد الله من الأولاد إلى ١٥ عاما. ثم زُوِّجَ الابن الوحيد الذي كان موجودا من قبل مرتين ولم يُرزق بأولاد. لو لم يكن الله قد قدّر أن يردّ على هذا العدو بذاءة لسانه، ويعاقب الذي تمرد واعتدى لما حدث ما حدث. فهل لأحد أن يتأمل في هذه المعجزة متجردا من التعصب أن يقول بأن إله الإسلام ليس خالقا اليوم كما كان منذ بدء الخليقة؟ أوَلم يقدِّر الله ﷻ أن يُرزق فلانٌ بالأولاد فحدث كما قدّر، وقدّر ألا يُرزق شخص آخر بولد فلم يُرزق به؟ فمن ذا الذي لا ينال إيمانا قويا وحيًّا بعد معايشة هذه الآية، ولا يمتلئ قلبه باليقين والانشراح؟ ومن ذا الذي لا يسمو بعدها من درجة الظن والشك وأنه: "يجب أن يكون هناك خالق ما"، إلى درجة اليقين والطمأنينة بأن "الخالق موجود"؟ فسبحان الله أحسن الخالقين.

والآن أتناول صفة ثالثة لله ﷻ، وهي أيضا معروفة مثل الصفات المذكورة آنفا ويعرفها كل صغير وكبير، أي صفة الشفاء. والحق أن الناس يؤمنون بهذه الصفة إيمانا كاملا بحيث يدّعي أتباع كثير من الأديان أنهم يستطيعون أن يُروا نماذجها بحيث إن كثيرا منهم متوجّهون إلى معالجة المرضى بواسطة الدعاء.

ولكن كل مَن يستخدم العقل والفطنة يستطيع أن يدرك أنه ليس لأمر الشفاء علاقة مع الدعاء أو بقدر الله الخاص لأن هذا النوع من الشفاء ليس خاصا بأتباع دين معين. بل يوجد الذين يتسببون في شفاء كهذا في المسيحيين والهندوس واليهود والزرادشتيين أيضا. فكيف يمكن، والحالة هذه، اعتبار هذا الأمر دليلا على صدق دين ما؟ وكيف يمكن اعتباره علامة صلة صاحبه بالله؟

وثانيا، إذا اعتُبر ذلك علامة العلاقة بالله تعالى فلنا الحق أن نسأل هؤلاء الناس: لماذا تتفاعل صفة الله تعالى "الشافي" بسبب دعائهم وتشفي المريض ولا تهيج أدعيتُهم صفاته ﷻ الأخرى كصفة "الخلق" و"العلم" و"الإحياء" و"الحفظ" وغيرها؟ فالذي يدّعي أن إحدى الصفات ظهرت نتيجة دعائه وتركيزه، عليه أن يجيب جوابا مقنعا على سؤال: لماذا لا يظهر الله تعالى بقية صفاته؟ أما الذين ينكرون ظهور صفات الله تعالى بتاتًا فيمكن أن يحاجُّوا قائلين بأن صفات الله تعالى لا تظهر أصلًا.

الحق أنه علاوة على الدعاء واستجابته فقد أودع اللهُ في الإنسان قوةً طبيعية بأن يترك تركيزه تأثيرا خافيا على غيره. وإن موجة أفكاره تتسرب إلى الشخص الذي يركّز عليه وتسيطر على أعصابه وتجعل أفكار المعمول عليه مثل أفكار العامل. وحين يتم التطابق بين أفكارهما يبدأ في أفكار المعمول عليه تغيُّرٌ حسن أو سيء بحسب أفكار العامل. ولكن هذا التأثير يبقى مقتصرا، إلا فيما شذ وندر، وعلى الأعصاب فقط، بمعنى أنه قد تزول الحمى أو تتلاشى حمرة العين لدى شخص أو يختفي الصداع مثلا، ولكن لا يمكن أن تزول أمراضٌ مثل الزهري أو الجذام أو السل وما شابهها. إن هذه الصفة (صفة التركيز) تتقوى كثيرا بالممارسة، غير أنه ليس ضروريا أن تظهر النتائج المرجوة حتما حسب القواعد بمجرد اللمس باليد أو ما شابه ذلك. الأصل في الموضوع هو التركيز. فلو تم التركيز أو تمركزت الأفكار على أمر معين- ولو على شكل دعاء-

لأثّرت حتما. كل مهتم بالموضوع يستطيع أن يحرز تقدما إثر ممارسة بسيطة. والذين يستهلكون الخمور ولحم الخنزير يمكن أن يتقدموا في هذا العلم بسرعة. ولكن مهما تقدم الإنسان فيه لن نعُدّ هذا التقدم تقدما روحانيا، كما لن نحسبه آية خارقة من الله تعالى. بل يمكن القول بأن فلانا استفاد من قانون الطبيعة الذي وضعه الله تعالى.

مجمل القول إن شعوذات الشفاء من هذا القبيل التي يُريها البعض في هذه الأيام لا تسمى آيات من الله على الإطلاق، وهي ليست خاصة بدين دون آخر. أما المعجزات التي أراها المسيح الموعود عليه السلام تدليلا على صفة الله تعالى "الشافي" فإنها تبرهن بجلاء وبصورة قاطعة أن الله تعالى قادر على الشفاء.

أورد فيما يلي على سبيل المثال لا الحصر إحدى معجزاته عليه السلام في هذا الصدد.

حينما بدأت جماعته عليه السلام تتقدم وتزدهر أسس حضرته في قاديان مدرسة ثانوية تحت إشراف الجماعة لتتصبغ الأجيال القادمة بصبغة معتقدات الجماعة وأفكارها، وتتولد فيهم عواطف حب القوم والملة. فانجذب إليها الطلاب الأحمديون بكثرة من مناطق نائية أيضا ليتلقوا العلوم الدينية إلى جانب العلوم الدنيوية. فمن الطلاب الذين جاؤوا من مناطق بعيدة كان هناك طالب اسمه "عبد الكريم" من قرية في ولاية "حيدر آباد". وأثناء إقامته في قاديان عضّه كلب مسعور، فأُرسِل إلى مدينة "كسولي" لتلقي العلاج حيث يوجد فرع لمعهد "بيتور". عاد الطالب بعد العلاج وظُنّ أنه لا خطر عليه الآن. ولكنه بعد فترة وجيزة جدا أصيب بنوبة جنون وتعرض لمعاناة شديدة كما هو معروف عن مرض الكَلَب، فأصيب بنوبات تشنج في الحلق والذعر المتزايد والأرق والجنون، وكان يُقْدم على ضرب المشرفين على علاجه وعضِّهم. وبعد زوال النوبة كان يندم كثيرا ويقول لهم أن يتركوه وشأنه حتى لا يلحق بهم ضررا.

وساءت حالته كثيرا. عندها أرسل مدير المدرسة برقية إلى الطبيب المسؤول في مستشفى مدينة "كسولي" يسأله فيما إذا كان فعْل شيء للطالب "عبد الكريم" ممكنا؟ فجاء رد مـــدير المستـــشفى: " Sorry nothing can be done for Abdul Karim"، "أي مع الأسف لا يمكن فعل شيء لعبد الكريم".[1]

ولما كان الطالب قد أتى من منطقة بعيدة كان التعليم فيها نادر الوجود، فساد الشعور بأنه لو مات هذا الطالب لترك ذلك تأثيرا سلبيا في تلك المناطق، الأمر الذي خلق حماسا غير عادي في قلب المسيح الموعود ؑ للدعاء مـــن أجله، فدعا له بإلحاح. واستجاب الله ﷻ دعاءه وشُفيَ المريض وقد ظُنَّ عنـــه من قبل أنه سيموت خلال سويعات، وكانت إصابته بالتشنج شديدة إلى درجة أن كان يصعب على المرء رؤيته.

الذين لديهم إلمام بالطب يعرفون جيدا أن الذي عضَّه كلب مسعور لـــو أصيب بالكَلَب تعذّرت معالجته بل يموت حتما، و لم يحدث إلى يومنا هـــذا أن نجا مريض مثله من موت محتوم. وعندما وصل خبر شفاء هذا المريض إلى مدينة "كسولي" بعث أحد من أهلها رسالة جاء فيها:

"كان الخبر مؤسفا جدا أن عبد الكريم قد تضرر من عضة الكلب، ولكن من دواعي السرور الكثير أنه شفي بالدعاء. إن نجاته من الموت بهذه الـــصورة لأمر لم يُسمع له نظير من قبل."[2]

هذا هو النوع من الشفاء الذي يبرهن بجلاء على أن هناك إلـــهًا قـــادرا على الشفاء الذي يمكن أن يسمَّى وحده شفاء حقيقيا. والذين يُظهرون نماذج

[1] تلخيصا عن "تتمة حقيقة الوحي"، الخزائن الروحانية ج٢٢، ص٤٨٠-٤٨٢. و"التذكرة"، مجموعة الرؤى والكشوف للمسيح الموعود ؑ ص٦٨٤ الطبعة الرابعة.

[2] تتمة حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية ج٢٢، ص ٤٨٢

شفاء كهذا يستحقون أن يقال عنهم إنهم قدّموا الله تعالى إلى الدنيا بصورته الحقيقية واليقينية.

لقد أرى المسيحُ الموعود عليه السلام معجزات أخرى أيضا لإثبات صفة الله هذه وتبيانها، ولكن لا يتسع المجال لذكرها هنا. وسيبقى هذا الموضوع غير مكتمل ما لم أذكر ذلك الإعلان الذي تحدى به عليه السلام القساوسةَ قائلا: إنكم أتباع المسيح الأول الذي كان يُري المعجزات، وأنتم تدّعون كونكم نائبين له وممثليه، وأنا أدّعي أني نائب لمحمد رسول الله ﷺ. وأتحداكم أن تبارزوني في الدعاء؛ فلنختر بعض المرضى المصابين بأمراض خطيرة يُعتبر شفاؤهم مستحيلا عادةً، ثم نوزّع هؤلاء المرضى علينا بالقرعة. ثم ليدْعُ كلا الفريقين لمرضاه، ثم نرى مرضى أي فريق يشفيهم الله تعالى؟[1]. ولكن للأسف الشديد لم يخرج القساوسة لهذه المبارزة.

من صفات الله تعالى "القدوس" أيضا، وتتفق عليها جميع الأديان ولكن ما من دين يخبرنا كيف يمكن الاطلاع على كون الله عز وجل قدوسا؟ فأولًا إن صفات الله التي تذكرها مختلف الأديان هي مشتبَه فيها في حد ذاتها، فكيف إذًا يمكننا أن نتأكد من خلالها أنه تعالى قدوس؟ ولو غضضنا الطرف عن هذا الأمر واعتبرنا الصفة التي نحن بصددها دائمة ومستقلة لما وجدنا على ذلك دليلا. والحق أنه ليس هناك دليل على هذه الصفة إلا أن يكون هناك أناس نالوا قرب الله تعالى وتشرفوا بمرتبة لقائه ثم نرى صفة القدوسية متجلية في نفوسهم. وإلا فتبقى صفة الله "القدوس" مشتبَه فيها من ناحية، ومن ناحية ثانية لا بد من إنكار تشرُّف أحدٍ بقرب الله تعالى. فنحن نرى أنه لو ألصقنا وردة بلباس لمدة وجيزة لفاحت منه رائحتها الطيبة، كذلك لو جلس الإنسان عند شخص استخدم العطور لتضوّعت من ثيابه روائح زكيّة، فكيف يمكن إذن أن نقبل أن

[1] تلخيصا عن "التحفة الغزنوية"، الخزائن الروحانية ج١٥، ص٥٥٩

شخصا قد نال قرب الله تعالى ولكنه لم يجد من الله ﷻ شيئا، وبقي محروما من شذى القدوسية التي هي جامعة للصفات الإلهية كلها؟ لما كان هذا الأمر منافيا للعقل والمنطق فلا يمكن أن يُعَدّ أحد مقرَّبا إلى الله ﷻ ولا يمكن التوصل إلى دليل على قدوسية الله إلا من خلال الشخص الذي نال القدوسية من الله تعالى وصار قدوسا بنفسه، وأصبح أسوة للعالم من حيث تقواه وحسناته.

حينما نلقي من هذا المنطلق نظرةً على حياة المسيح الموعود عليه السلام نجد أنه قد أثبت ووضح صفة الله "القدوس" وضوح النهار. لا شك أن هذه الصفة تنعكس في الإنسان بصورة تناسب مقتضيات البشرية، وإلا سيُصبح إلها، الأمر الذي يخالف العقل. ولكن انعكاس القدوسية بما يناسب مقتضيات البشرية لا يقلل من شأنها، بل يؤدي واجبه؛ أي إثبات الصفات الإلهية على أحسن وجه.

لقد خلق المسيح الموعود عليه السلام هذه الصفة أيضا في نفسه كما قلت من قبل، ونرى أن ألد أعدائه أيضا يقرون أنه عليه السلام كان منزّهًا عن كل عيب ونقيصة.

هنا يجب أن نتذكر نقطة مهمة وهي أن الموعودين عندما يأتون إلى الدنيا يرميهم الناس بشتى العيوب والتهم بسبب العداوة الدينية، لأن العداوة تُعمي الإنسان وتُصمه، وتريه الفضيلة مثلبةً. إذًا، فعند دراسة حياة الأنبياء لابد دائما من النظر في حياتهم قبل إعلانهم النبوة لأن الناس إلى ذلك الحين لا يناصبونهم العداوة التي تعميهم نتيجة العناد. فتلك الفترة من حياتهم هي معيار قدوسيتهم.

إن سيدنا المسيح الناصري عليه السلام الذي كان أحد الهداة المرسَلين من الله تعالى، كان فردا من الفئة التي كان ينتمي إليها المسيح الموعود عليه السلام. كانت حياة المسيح الناصري أيضا، كما كان مفروضا، طاهرة وطيبة إلى درجة أنْ

تحدى معارضيه قائلا: "مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ"؟[1]. فهذا التحدي لا يمكن إلا أن يكون عن حياته قبل النبوة لأن الناس بعد إعلان النبوة يشرعون في كيل الاعتراضات لكونهم عموا من العناد. فيقول المسيح الناصري عليه السلام: "جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، فَيَقُولُونَ: هُوَ ذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ، مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ".[2]

بطبيعة الحال لم يكن المسيح عليه السلام كما وصفوه بل غشي عيونَهم التعنّت والعناد. كانت حياة المسيح الموعود عليه السلام أيضا مثَلا ساميًا من القدوسية، وقد شهد ألد أعدائه أنه لا يمكن أن يُنسب إليه أي عيب أو خطية في حياته قبل إعلانه النبوة.

الشيخ محمد حسين البطالوي، الذي صار فيما بعد من أشدِّ خصومه عليه السلام، قال وهو يصف مؤسس الجماعة عليه السلام قبل أنْ يبعثه الله تعالى:

"إن مؤلف هذا الكتاب (البراهين الأحمديَّة، الذي ألّفه عليه السلام قبل ادعائه كونه مسيحا) عديم المثال، إذ قَلَّ نظيره في المسلمين القدامى في الثبات الغريب لخدمة الإسلام، ونصرة الدين الحق بالنفس والنفيس والقلم واللسان والحال والقال..."[3].

إن الكلمات "نصرة الدين الحق بالنفس والنفيس والقلم واللسان والحال" لجديرة بالانتباه الخاص في الشهادة المذكورة، ومعناها أن أسوته عليه السلام في الأخلاق وحسن المعاملة كانت تجذب الناس إلى الإسلام تلقائيا، وأنها لأسوة كاملة إلى درجةٍ قلَّ نظيرها في المسلمين القدامى أيضا.

---

[1] إنجيل يوحنا ٨: ٤٦

[2] إنجيل متى ١١: ١٩

[3] مجلة إشاعة السنّة، ج٧، رقم ٦، ص١٦٩، عدد: حزيران إلى آب ١٨٨٤م.

يمكن أن يُدرك المرء بكل سهولة نظرا إلى ما يميل إليه أتباع جميع المذاهب من إطراء الأوائل واحترامهم ورفع درجاهم، كم كان صعبا على شيخ مثله القولُ بأن فلانا قد سبق المسلمين الأوائل أيضا. وتنال شهادته أهمية أكبر لسبب آخر أيضا وهو أنه كان يسكن قرب قاديان، وكان يعرف المسيح الموعود عليه السلام منذ الصغر، وكان اللقاء يتم بينهما باطِّراد.

هذه شهادة شخص كان من أشد خصومه عليه السلام. ليس ذلك فحسب بل كل مَن عرفه كان معترفا بصلاحه وتقواه. إن الناس من مختلف المذاهب والأديان يسكنون في قاديان بمن فيهم الهندوس والآريا، والسيخ والمسلمون من غير الأحمديين، وفي مدينة بطاله (التي تُعَدّ بوابة قاديان) هناك مركز كبير للمسيحيين، وكل هؤلاء كانوا ألد أعدائه عليه السلام بل العداوة التي يكنّوها قد لا يكنّها غيرهم لأن النبي لا ينال إكراما واحتراما في مدينته ومنطقته، ولكن جميع الناس رغم عداوهم له عليه السلام يعترفون أنه لا يمكن لأحد أن يوجه إصبع الاتهام إلى ورعه وتقواه منذ الصغر إلى آخر لحظة من حياته. وكانوا واثقين من صدق مقاله حتى أن الذين كانوا خائضين في قضايا جنائية في المحاكم مع أفراد عائلته ويعُدّون أنفسهم على حق كانوا يقترحون دائما أهم سيقبلون شهادته عليه السلام في القضية، لأهم كانوا يعرفون جيدا أنه عليه السلام لن يقول إلا الحق مهما تعرض أقاربه للخسارة.

ذات مرة رفع مكتب البريد ضده عليه السلام قضية وكان ممكنا أن يعاقَب حضرته بعقوبة السجن والغرامة المالية معًا. لما كانت قوانين البريد تُنتهك في ذلك الزمن بكثرة فأراد مسؤولو البريد أن يعاقَب شخص أو شخصان بعقوبة قاسية ليكون عبرة للآخرين. ولذلك كان المسؤول الإنجليزي على مكتب البريد يتابع القضية بنفسه ويصرّ على أن يعاقَب حضرته عليه السلام بأية حال. وكان أساس القضية على شهادة شخص واحد وهو الذي فتح الطرد البريدي الذي أرسله

إليه سيدنا أحمد عليه السلام فوجد فيه رسالة، وكان وضعُها في الطرد جريمة بحسب قواعد البريد. فقال المحامون لسيدنا أحمد عليه السلام بأن الوسيلة الوحيدة لتجنب العقوبة هي أن تقول بأنك كنت قد أرسلت الرسالة منفصلة ولم تضعها في الطرد. وحيث أن الشخص الذي أُرسل إليه الطرد البريدي كان قسيسا وسبق أن قام بالمناظرات مع حضرته عليه السلام، وكان يضمر له عداوة نوعا ما. فإن عُذره عليه السلام هذا يكون جديرا بالقبول حتما. ولكنه عليه السلام رفض اقتراح المحامين رفضا باتا وقال: لا يمكنني أن أكذب، وقد وضعتُ الرسالة في الطرد، وإن كنت وضعتُها ظنا مني أن الرسالة تتعلق بمضمون الطرد.

إن صدق مقاله عليه السلام أثر على القاضي تأثيرا كبيرا وبرّأ ساحته رغم إصرار موظفي البريد على معاقبته، وقال بأن الشخص الذي يواجه خطرا محتوما بالسجن ويستطيع أن ينقذ نفسه من ذلك بكلمة واحدة فقط، ولكنه لم يعبأ بالعقوبة، فلا أستطيع أن أعاقبه قط[1] .

تعجبني كثيرا شهادة ذلك العجوز من السيخ الذي كان يعرف سيدنا أحمد عليه السلام منذ الصغر، فكان يذكره ويبكي فيجهش بالبكاء ويقول، كنا نجلس في مجلسه فكان يقول لنا، اذهبوا إلى والدي المحترم واشفعوا لي عنده أن يتركني وشأني لأخدم الدين، ويعفيني من الأمور الدنيوية. كان هذا العجوز يقول هذا ويجهش بالبكاء ويقول: "كان ولي الله منذ ولادته".

إن شهادة هذا الشخص- الذي كان يعتنق دينا غير دين المسيح الموعود عليه السلام، وشهد جميع فترات حياته عليه السلام، وهو عارف بأسراره أيضا- ليست شهادة عادية. ثم لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل الحق أنه كلما زادت معرفة أحدهم به عليه السلام أثنى أكثر على أخلاقه الحسنة وتقواه ومواساته للبشر. والمعلوم أنه ليس هناك معيار للأخلاق الفاضلة أفضل من أن يمدح الإنسانَ

[1] تلخصيا عن "مرآة كمالات الإسلام"، الخزائن الروحانية، ج٥، ص ٢٩٧- ٢٩٩

معارفُه وغيرهم من المطلعين على وقائع حياته كلـــها، ويثنـــوا علـــى أمانتـــه وطهارته.

لقد تحدى المسيح الموعود عليه السلام معارضيه- كما تحدى المسيح الناصـــري عليه السلام معارضيه- ولكن ما كان لأحد أن يبارزه، فقد قال عليه السلام:

"لقد عشت فيكم أربعين سنة، وشاهدتموني طيلة هذه المدة، وعلمـــتم أن الافتراء أو الكذب ليس من عادتي. وقد حفظني الله تعالى من قذارات الحيـــاة. والذي بقي محفوظا مصونا من كل أنواع الافتراء والشر والمكر السيء والخبث إلى مدة أربعين سنة، ولم يفترِ على الخلق قط، فكيف يمكن أن يفتري الآن على الله سبحانه وتعالى على عكس عادته القديمة؟"[1].

ثم يقول عليه السلام:

"من منكم يستطيع أن ينتقد شيئًا في شؤون حياتي؟ وما ذلك إلا فضل منه عز وجل أنَّه ثبّتني على التقوى منذ نعومة أظفاري"[2].

يتبين من هذه الشهادات والدعاوي أن حياته عليه السلام لم تكن خاليـــة مـــن العيوب فحسب، بل كان عليه السلام تقيًّا وورعا إلى درجة أن معارضـــيه شـــهدوا بالإجماع على تقواه وطهارته، وإن كانوا يحسبونه مخطئا في إعلانه المهدويـــة. "والفضل ما شهدت به الأعداء".

فقد ظهرت من خلال شخصه عليه السلام صفة الله تعالى "القـــدوس" أيـــضا، فعلمنا يقينا ورأينا بالاطلاع على حالته وأسوته كم هو ذلك الإلـــه قـــدوس ومقدس الذي كان عبدُه حائزا على درجة من الورع والتقوى بحيث لم يرتكب أي إثم من المهد إلى اللحد، ولم يظهر منه أي عيب أخلاقي أو روحاني، بل ظل

[1] ترياق القلوب، الخزائن الروحانية مجلد١٥، الصفحة: ٢٨٣

[2] تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية ج٢٠ ص٦٤

ثابتا على جميع الأخلاق الفاضلة وضرب مثالا حيا في التقوى، سبحان الله وتعالى عما يصفون.

ومن صفات الله تعالى أيضا صفة "المحيي" أي الذي يحيي الأموات. لقد جاء تركيز كبير في الإنجيل على مثل هذه المعجزات، وقيل إن المسيح عليه السلام قد أحيا الأموات، فهل يسع أحدا اليوم أن يقوم بذلك؟ إن قلوبنا لا تطمئن للقصص القديمة ولا يمكن أن نؤمن بهذه الصفة ما لم نشاهد علامة ظهورها في هذه الدنيا أيضا. وبفضل الله تعالى قد أمدنا المسيح الموعود عليه السلام بالشهادة الفعلية على صفة الله تعالى هذه وأحيا إيماننا.

قبل أن أقدم مثالا على هذا النوع من المعجزات أرى مناسبا أن أبين أن صفات الله عز وجل نوعان. أولاهما تلك التي لو ظهرت في هذه الدنيا ظهورا كاملا لكان ذلك مخالفا لبعض صفاته الأخرى. فلا يظهرها الله تعالى في الدنيا كما ستظهر في حياتنا بعد الممات. وإن صفة إحياء الأموات أيضا تندرج تحت قائمة هذا النوع. فلو بدأ الأموات يعودون إلى الحياة في الحقيقة لما بقي للإيمان أية فائدة، لأن الإيمان إنما ينفع إذا بقي فيه شيء من الإخفاء. ولو ظهر للعيان مثلَ الأشياء المرئية لما كانت له أية فائدة. فهل من أحد في الدنيا يعطي الجوائز لمن يَعُدّ البحر بحرا ويحسب الشمس شمسا؟ الحق أن الذين يكتشفون الأسرار الدقيقة هم الذين يستحقون الإنعامات والجوائز. قصارى القول إن الأموات الحقيقيين لا يعودون إلى الدنيا ثانية. بل تظهر معجزة إحياء الموتى على وجهين، إما بإحياء الموتى الروحانيين أو بإعادة المرضى الموشكين على الموت المحتوم إلى الحياة ثانيةً، أو بإحياء الذين ماتوا ظاهريا و لم يموتوا في الحقيقة، كما ورد ذكر امرأة على لسان المسيح عليه السلام في متى الإصحاح ٩: "قَالَ لَهُمْ: تَنَحَّوْا، فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ تَمُتْ لكِنَّهَا نَائِمَةٌ. فَضَحِكُوا عَلَيْه"[1].

---

[1] إنجيل متى ٩: ٢٤

ولا أرى حاجة إلى أن أقول شيئا بالنسبة إلى إحياء الموتى الروحانيين، لأن كل واحد منا مثال حي على هذا الإحياء. ولسوف أذكر هنا مثالين للنــوع الثاني من الإحياء.

ذات مرة مرض "مبارك أحمد"، الابن الأصغر لسيدنا الإمام المهدي عليه السلام واشتد به المرض فكان يُغشى عليه على فترات متقاربة جدا، فــشارف علــى الموت، حتى ظن المشرفون عليه أنه قد مات. وبينما كان حضرته عليه السلام عاكفا على الدعاء في غرفة مجاورة إذ نادى عليه أحد الناس وقال: يمكن أن تتوقــف عن الدعاء الآن، فالصبي قد لفظ أنفاسه. فجاء حضرته إلى الطفل ووضع يده على جسمه وركّز لدقيقتين أو ثلاث دقائق، فعاد الصبي يتنفس مجددا.

وبمناسبة أخرى مرض السيد ميان عبد الرحيم خان ابن السيد نواب محمد علي خان الذي هو خال لنواب "مالير كوتلة"، وقد هاجر من "مالير كوتلــة" إلى قاديان وسكنها بصورة دائمة. كان المريض مصابا بالتيفوئيد، وكان يشرف على علاجه طبيبان بالإضافة إلى المولوي نور الدين رضي الله عنه الذي كان طبيبا حاذقا في مجال الطب الشعبي وكان فيما سبق طبيبا ملكيا في بلاط مهاراجا جامون. ولكن المرض بلغ به مبلغا حتى صرح الطبيبان ونور الدين رضي الله عنه بأن المــريض لا يمكن أن ينجو من الموت، ولن يعيش إلا لسويعات ولا فائدة من العلاج الآن. حين علم المسيح الموعود عليه السلام ذلك توجّه في الحال إلى الدعاء للمريض، فتلقى إلهاما أن المريض ميّت لا محالة. فتضرع عليه السلام في حضرة الله أكثر وقال: يارب إذا كان وقت الدعاء قد مضى وحان موته فإنني أشفع له. فقــال تعــالى في الجواب: "من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه."[1].

---

[1] "التذكرة"، مجموعة الرؤى والكشوف للمسيح الموعود عليه السلام ص ٤٩٥ الطبعة الرابعة.

يقول الطَّيْلاً بأنه ترك الدعاء بعد هذا الإلهام، وعلى إثر ذلك تلقى إلهامًا ثانيةً: "إنك أنت المجاز"[1]. فشفع الطَّيْلاً للمريض وخرج من الغرفة وقال للجميع بأن المريض سوف يُنقَذ من الموت حتما لأن الله تعالى قد أنقذه من براثن الموت بسبب شفاعتي له. فبدأ الطفل يتماثل للشفاء فورا حتى شفي تماما خلال بضعة أيام. السيد عبد الرحيم خانْ المعني بهذه المعجزة لا يزال على قيد الحياة بفضل الله تعالى ويدرس حاليا المحاماة في بريطانيا، ولا يزال والده وكثير من الشهود على قيد الحياة ويستطيعون أن يشهدوا جميعا أنهم شاهدوا بأم أعينهم ظهور صفة الله "المحيي" بواسطة المسيح الموعود الطَّيْلاً.

ومن صفات الله تعالى المعروفة صفة "المالكية" أيضا. جميع الأديان تتفق على أنه سبحانه وتعالى مالك كل ذرة في هذا الكون. ولكن ما هي كيفية مالكيته سبحانه وتعالى؟ وبدون التوصل إلى حجة قوية على ذلك لا يمكننا قطعا أن نتيقّن بكونه مالكا لأننا نشاهد في الظاهر علامات ظاهرة لملكية المالكين الآخرين، ولا نرى علامة لملكية الله تعالى في هذه الدنيا. لا شك أنه يمكن القول، كما هو واقع الأمر أيضا، بأن الله تعالى قد سنّ قانونا، ونظامُ العالم جارٍ بحسبه ولكن مع ذلك لا بد أن يكون في الدنيا شخص مقرب إلى الله لتظهر على يده صفة مالكية الله سبحانه وتعالى وتكون دليلا على قرب هذا الشخص من الله تعالى، حتى يتأكد الناس أن الله عزّ وجلّ مالك العالم في الواقع. وإلا فلو انبرى شخص عادي وقال إنه هو مالك الدنيا كلها، وإذا قيل له لماذا إذًا تحكم فيك قوانين الطبيعة؟ فقال: أنا وضعت هذا القانون منذ الأزل ليعمل على هذا النحو، لما كان لدى المؤمنين بالله أي رد على قوله. بل نجد أن كثيرا من الناس يقومون بمثل هذه الدعاوى، ويؤلِّهون أنفسهم. والحق أنهم لما تجرؤوا على ذلك لو علموا أنه يوجد دليل حي في الدنيا على كون الله مالكا، لما اجترؤوا على قولهم إنه لا يسع أحدا أن يفنّد إدعاءهم،

[1] المرجع السابق، الصفحة: ٤٩٦

ولما قال أحدهم إن ما يعترض المؤمنون بالله تعالى به على ألوهيتي، هو ذات ما اعترض به على إلههم. إذاً عندما يكون هناك دليل حيّ على مالكية الله تعالى في الدنيا، فلن يتجاسر مثل هؤلاء الناس على أن يستهزئوا بالله ﷻ ويخدعوا العالم هكذا، لأنه بالإمكان في هذه الحالة أن يقدَّم مقابلهم عبادُ الله المقربون الذين يأتون لابسين رداء فضل الله تعالى، ويمكن أن يقال لهم: انظروا! إن مالكية الله تعالى تظهر بواسطتهم، فإذا كنتم أنتم آلهة فقدِّموا دليلا أقوى على مالكيتكم، لأن عباد الله المقربين يدّعون أنهم نائبون لله، بينما أنتم تدَّعون أنكم أنفسكم آلهة. فهذا هو الطريق الأمثل لدحض جميع الوساوس، لأن هؤلاء المتألّهون لا يملكون أي رد على ذلك.

إننا ندعي أن المسيح الموعود عليه السلام حظي بقرب الله تعالى وأظهر بشخصه صفة مالكية الله أيضا كما أظهر صفات الله الأخرى. و لم يشهد فقط على أن الإسلام يقدر على أن يوصل الإنسان بالله بل فتح أيضا بابا على مصراعيه للآخرين أن يؤمنوا بالله تعالى إيمانا كاملا.

وأحد الأمثلة على معجزاته من هذا القبيل هو أنه حين تفشى الطاعون في قاديان وأصبح شديد الوطأة، وكان عليه السلام قد أنبأ قبل الأوان أن طاعونا جارفا سوف يتفشى في البلاد، ونشر كشفا له أيضا رأى فيه أن الطاعون يجول ويصول- ككائن مهيب وجهه كوجه الفيل- في جميع أطراف البلاد، وحينما انتهى من صوله مرة جلس أمامه كخادم مؤدَّبٍ وأقرّ بخضوعه خضوعا كاملا.[1]

ثم تلقى عليه السلام إلهاما جاء فيه: "النار خادمة لنا، بل خادمة خدامنا"[2]؛ أي أن الطاعون ليس خادمنا فحسب بل هو خادم خدامنا الذين قد أصبحوا لنا

[1] تلخيصا عن "نزول المسيح"، الخزائن الروحانية، ج١٨، ص٤١٥

[2] "التذكرة"، مجموعة الرؤى والكشوف للمسيح الموعود عليه السلام ص ٣٩٧ الطبعة الرابعة.

تماما وجعلوا مرضاهم تابعة لمرضاتنا، أولئك لن يُلحق بهم الطاعون أي ضـــرر وسيُحمَون منه. ثم تلقى إلهاما آخر نصه: "إني أحافظ كل من في الدار"[1].

فنشر حضرته هذه الإلهامات في الكتب والجرائد على الفـــور، وتحـــدى معارضيه أنهم إذا كانوا يعُدّونه كاذبا ويحسبون أنفسهم على الحق فلينشروا مثل هذا الخبر، ثم لينظروا هل يُحفَظون أو تُحفظ بيوتهم من الطاعون؟ فمـــا بـــرز أحد.

كل الناس الذين يحاولون أن يطلعوا على الأحـــداث الجاريـــة في العـــالم يعرفون جيدا أن الطاعون متفش في الهند منذ ٢٨ عاما. وكان على أشـــده في عام ١٩٠١م حين تلقى المسيح الموعود عليه السلام الإلهامات المذكورة، وقـــد راح ضحيته إلى يومنا هذا قرابة سبعة أو ثمانية ملايين شخص. وفي كل عام يمـــوت بالطاعون نحو ثلاث مئة ألف أو أربع مئة ألف شخص. وكانت وطأة الطاعون على إقليم البنجاب أشد من غيره، إذ قد مات في هذا الإقليم وحده أكثر مـــن ثلاثة أرباع العدد الإجمالي من الذين ماتوا بالطاعون. فما أكبر حساسية هـــذا الإعلان من قِبل شخص يسكن في منطقة هي عرضة للوباء الشديد! وما يزيد الأمر غرابة هو أن الإعلان لا يشمل شخصا واحدا فقط بل يشمل بيتا يسكنه سبعون أو مئة شخص. ثم لا يمتد نطاقه إلى عام واحد فقط بل إلى فترة طويلة جدا. من يستطيع أن يتحمل مسؤولية كهذه؟ أية قوة تقدر على تحقيق هـــذه النبوءة؟

ويجدر بالانتباه أيضا أن قاديان قرية صغيرة فلا تهـــتم الحكومـــة مطلقـــا بالنظافة فيها. الساكنون في أميركا وأوروبا لا يستطيعون أن يتصوروا حالـــة أزقتها السيئة. إن حالتها لا تقِلُّ سوءًا عن قرى الشام التي خيّم فيها الطـــاعون منذ أمد بعيد. وإن بيته عليه السلام لم يكن خارج القرية بل في وسطها، وأحاطت به

[1] "المرجع السابق، ص ٤٣٤ الطبعة الرابعة.

بيوت أخرى، لذا لا يمكن القول بأن النظافة أو الجو المكشوف كان سببا في حماية بيته من الطاعون. وأضف إلى ذلك أن بيته يقع في المنطقة المنخفضة من القرية وقنوات المياة الوسخة لنصف القرية على الأقل كانت تمر من حول بيته. وكانت هناك بِركة ماء أيضا على بُعد خمسين قدما تقريبا، وكانت تبقى مليئة بالماء الآسن بعد الأمطار إلى فترات طويلة (غير أن الجزء الأكبر من البركة قد رُدِم بالتراب فيما بعد، وبذلك بعُدت البِركة قليلا). فإن إعلانا كهذا ومن قبل شخص يقيم في المنطقة والبيئة المذكورة آنفا ليس أمرا عاديا. ولو تحقق ما جاء في الإعلان بصورة عادية فقط لكان دليلا عظيما على كون الله تعالى مالكا. ولكن الله سبحانه وتعالى قد هيأ لتعظيم هذه الآية أسبابا أخرى أيضا أدت إلى عظمة شأنها أكثر.

لم يسبق تفشي الطاعون في قاديان نشرَ هذا الإعلان، ولو مضت أيام الطاعون بسرعة لقال الناس: لعل هذه المنطقة تحظى بخصوصية فلا تنمو جرثومة الطاعون فيها مما دفع سيدنا أحمد عليه السلام ليعلن هذا الإعلان مستغلا الظروف. ولكن ما إن نُشر هذا الإعلان حتى أرسل الله تعالى الطاعون إلى تلك المنطقة. ثم كان للطاعون جولة وصولة قاسيتان في قاديان، وليس لعام أو عامين أو ثلاثة أعوام فحسب بل لأربعة أو خمسة أعوام متتالية. وفي هذه الحالة أيضا لو بقي الوباء مقتصرا على حارات أخرى و لم يدخل حارته عليه السلام لبقي الأمر مشتبها فيه، ولقيل إن ذلك قد يكون راجعا إلى إجراءات معينة للنظافة. ولكن الطاعون دخل أيضا الحارة التي فيها بيته عليه السلام، ثم اقترب أكثر من بيته ودخل بيوتا تقع ذات اليمين وذات الشمال، وداهم أيضا بيوتا جدرانُها ملاصقة لجدران بيته عليه السلام، وهاجم يمنة ويسرة وإقبالا وإدبارا دون أن يدخل بيته عليه السلام. و لم يمت في بيته ولا فأرة دونك الناس. فكان مَثل بيته كبيت أحاطت به بيوت أخرى من كل الجوانب فأتاها الحريق فتحولت إلى رماد وبقي ذلك البيت في وسطها

محفوظا مصونا تخمد ألسنة اللهب تلقائيا كلما اقتربت منه. وبذلك يتبين بجلاء أن هناك قوة عليا ترش المياه على النار من حيث لا يراها أحد وتجعلها بـــردا وسلاما على هذا البيت دون غيره. صال الطاعون وجال ليس لسنة أو ســـنتين بل لخمس سنوات متتالية، وحصد في الهند من ثلاثين إلى أربعين ألف شخص كل أسبوع. ظل الطاعون يحوم ويدور حول بيت الإمام المهـــدي والمـــسيح الموعود عليه السلام ولكنه كان يختفي دون أن يُلحق بساكنيه أدنى ضرر. مع العلم أن كثيرا من أفراد الجماعة انتقلوا إلى بيته عليه السلام أيام تفشي الوباء لينالوا نصيبا من الحماية المذكورة في النبوءة، فازداد عدد الساكنين في بيته كثيرا علمًا أنّ عددا هائلا كمثله هو نذير خطر في الأيام العادية فما بالك في أيام تفشي الأوبئة.

فقدّم الإمام المهدي عليه السلام أمام العالم هذه المعجزة أو الدليل على مالكية الله تعالى، ومن خلاله أقنع كل من يفكر بعيدا عن العناد أن هناك إلـــها ذا صفات كاملة وأن العبد يستطيع أن ينال قربه سبحانه وتعالى.

ومثال آخر على مالكيته سبحانه وتعالى ظهر في البلاد الغربية نفسها أيضا. وبيـــان ذلك أن شخصا من سكان أميركا كان اسمه "دوئي" قد ادّعى أنه "إيلياء" للبعثة الثانية للمسيح الناصري عليه السلام. لقد نال إعلانه هذا قبولا واسع النطاق حـــتى اتبعته ألوف مؤلفة من الناس، فعمّر مدينة قرب مدينة شيكاغو الأميركية وسماها "صهيون". وكان واثقا من أن مدينته هذه سوف تكون نقطة انطـــلاق ديـــن جديد ينتشر على أوسع نطاق. وقد ادّعى أن دعاءه بل إن لمسه باليد فقط يبرئ المرضى من أمراضهم، فكان يمنع الناس من استخدام الأدوية. وعندما انتشرت دعوته إلى حد ما أعلن أن الله بعثه ليبيد المسلمين قبل مجيء المسيح عليه السلام. عندما سمع الإمام المهدي عليه السلام محاضرته تحداه وقال له بأنك تدّعي أنك عازم علـــى إبادة الإسلام وأنا أدّعي بأنني بُعثتُ لحمايته وإظهاره على الدين كله، فعليك أن

تبارزني في الدعاء ليتميز الصادق من الكاذب، ويبطش عذابُ الله بالكاذب فيكون بطشه حجة على الآخرين[1].

الآن، من الواضح تماما أنه إذا كان الله مالك الدنيا كلها حقيقة، ويبعث شخصا من عنده ليحمي بستانه، ومن جانب آخر ينبري شخص آخر من تلقاء نفسه ويجادل خادمَ الله تعالى هذا ويقول له إن الأمر ليس كما تقول أنت بل الله تعالى قد أرسلني أنا لحماية بستانه، فمن مقتضى مالكيته ﷻ أن ينصر خادمه الذي أرسله من عنده ويُري العالَمَ أيهما ينوب عن المالك؟ وأرسِل لإظهار صفته "المالك"؟

بالإضافة إلى إرسال هذا التحدي إلى د. أليكسندر دوئي، أرسله المسيح الموعود ؑ إلى معظم الجرائد الأميركية والبريطانية أيضا. فجاء ضمن هذا التحدي:

"إني بالغ من العمر ٧٠ سنة تقريبا، أما "دوئي" فهو شاب يافع يبلغ خمسين عاما كما يقول، ولكني لم أبال بكِبر سني لأن الفصل في هذه المباهلة لن يكون بحكم الأعمار، بل يحكم فيها الله الذي هو أحكم الحاكمين وسيحكم لصالح المدعي الصادق... ومهما فرّ دوئي من الموت الذي يرتقبه، وإن كان فراره هذا أيضا ليس أقل من الموت، فاعلموا يقينا أن البلاء لا محالة نازل بمدينته صهيون لأنه إما سيتحمل نتائج المبارزة أو نتائج رفض المبارزة."[2].

لقد نشرت الجرائد الأميركية هذا التحدي على نطاق واسع، وبحوزتنا ثلاثون جريدة منها، وقد تكون هناك جرائد أخرى أيضا نشرت هذا الخبر. وكتبت بعض الجرائد معلقة على الموضوع بأن هذا الطريق للفصل معقول

---

[1] تلخيصا عن مجلة "مقارنة الأديان" (أردو) أيلول ١٩٠٢م ج١ رقم ٩ ص ٣٤٣، ٣٤٤

[2] تلخيصا عن "تتمة حقيقة الوحي"، الخزائن الروحانية ج٢٢ ص٥٠٦ الهامش.

ومبني على العدل تماما. ومن تلك الجرائد جريدة "غونات" الصادرة في سان فرانسيسكو أيضا.

لقد نشر الإمام المهدي عليه السلام هذا التحدي في عام ١٩٠٢م، ولكن دوئي لم يهتم به. فأعيد التحدي نفسه في عام ١٩٠٣م حتى رفعت الأصوات ضده في أميركا نفسها متعجبة على أنه لماذا لا يستجيب؟!. وقد أقرّ دوئي بهذا الأمر في جريدته عدد ديسمبر ١٩٠٣م كما يلي:

"هناك مسيح محمدي في الهند، كتب عدة مرات أن يسوع المسيح مدفون في كشمير؛ ويسألني بعضُ الناس: لماذا لا ترد عليه بما يلزم؟ فهل تتصورون أن أرد على البراغيث والذباب؟ لو وضعتُ قدمي عليها لسحقتُها وأهلكتها جميعا. (الواقع أني أعطيها الفرصةَ لتطير بعيدًا وتظلّ حيّةً)."[١].

ولكن كما كان قد قيل من قبل بأنه لو خرج للمبارزة لهلك سريعا، ولو حاول الفرار أيضا لما نجا من المصيبة بل ستحل المصيبة عاجلا بمدينته "صهيون" حتما. وهذا ما حدث تماما، إذ بطش به الله تعالى وقامت ثورة ضده في مدينته صهيون، وانبرت زوجته وابنه ضده وأثبتا أنه يلقي المحاضرات على الملأ حول تحريم الخمر ويشربها في خلوته. كذلك وجّه إليه كثير من الناس شتى الاعتراضات حتى طُرد من صهيون. كان دوئي يعيش عيش الأمراء، ولكنه صار بعد ذلك مفتقرا إلى الطعام والشراب، وحدِّد له راتب بسيط يساوي راتب أجير عادي. ثم فُلج من الرأس إلى القدم، وشُلَّت قدماه اللتان كان يريد أن يسحق بهما المسيح الرباني. وفي نهاية المطاف أصيب بالجنون بسبب عدم قدرته على تحمل المعاناة ومات خلال أيام قليلة.

[1] "تتمة حقيقة الوحي"، الخزائن الروحانية ج٢٢، ص٥٠٩

لقد علّقت الجرائد الأميركية عند موته على هذه الشاكلة وذكرت أيضا النبوءة التي أنبأ بها سيدنا المسيح الموعود عليه السلام عنه. فقالت إحدى هذه الجرائد وهي "دنول غازيت" في عددها ١٩٠٧/٦/٧م:

"يحق لأحمد وأتباعه أن يتباهوا بسبب الدِّقة التي تحققت بها النبوءة منذ عدة شهور."

وأخيرًا أتناولُ صفةَ الله تعالى "الباعث". ومعنى هذه الصفة أن الله تعالى يربِّي صفات مخلوقاته الداخلية وينمِّيها فتنمو وتتقوى إلى حد كبير جدا، حتى تتغير ملامحها كليا بسبب قوتها ونموها غير العادي، فيحدث فيها فَرق كبير كالفرق بين الميت والحي. والإسلام هو الدين الوحيد الذي قدم هذه الصفة على هذا النحو، وإن كانت فكرة مبهمة عنها توجد في الأمم الأخرى أيضا. لا يمكن إثبات هذه الصفة أيضا ما لم يشاهَد مثالها الحي بواسطة إنسان. كما لا نستطيع أن نستيقن من قرب شخص من الله تعالى ما لم تتجلّ هذه الصفة فيه. ولما كان الأنبياء يُبعثون لهداية الآخرين فلا بد أن تظهر هذه الصفة بواسطتهم بصورة أقوى وأشد من غيرهم. وما لم يخلقوا جماعة تنال حياة جديدة متخلية عن حالتها السابقة الشبيهة بالموت، وما لم نر في الدنيا نموذج القيامة الصغرى بواسطتهم، لا تطمئن قلوبنا ولا يتحقق الهدف من بعثة الأنبياء.

وللتركيز على هذه النقطة فقد ذكر القرآن الكريم مرة بعد أخرى انتصار الأنبياء بكلمة "القيامة" أو "الساعة". ولكن يستنتج منها بعض الناس خطأ وكأن القرآن الكريم لا يقول بالبعث بعد الموت. ويرتكب مثل هذا الخطأ أناس يظنون أنه كلما وردت في القرآن الكريم كلمة "الساعة" يكون المراد منها القيامة حتما. مع أنه يتبين من القرائن بكل سهولة أن المراد من "الساعة" يكون البعث بعد الموت تارة، وتارة أخرى نجاح نبي في مرامه وفلاحه في خلق جماعة حية.

لقد أرى المسيح الموعود عليه السلام نموذج هذه الصفة بكل جلاء وجدارة، وحقق بكل نجاح وقوة المعيار العظيم الذي ذكره المسيح الناصري عليه السلام حين قال: "احْتَرِزُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمْلاَنِ، وَلكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِل ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ! * مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ * هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، * لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. * كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ * فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ."[1].

معنى المعيار المذكور في كلام عيسى عليه السلام هو أن الشجرة تُعرف بأثمارها، كذلك النبي الحقيقي هو ذلك الذي يُضفي على أتباعه صبغة النبوة على قدر مراتبهم. والواصل إلى الله تعالى هو ذلك الذي يوصل الآخرين أيضا إليه سبحانه وتعالى بحسب مؤهلاتهم الفطرية.

ليس معنى هذا المعيار أن وجود الإخلاص وروح التضحية في جماعة ما يجعل مؤسسَها صادقا ومقربا إلى الله، لأن روح التضحية لا تعني فقط أن المتبعين لم يعثروا في حياة مرشدهم على شيء يدل على كذبه. إن اعتبار الناس أحدا متحليا بأخلاق عالية وصادقا يُثبت أمرين اثنين فقط؛ إما أنهم ليسوا مطلعين على أحواله إطلاعا شاملا، أو إن كانوا مطلعين على جميع شعب حياته فلا يتبين من ذلك إلا أن هذا المقتدى ليس مفتريا، بل يعُدّ نفسه صادقا. ولكن ليس كل من يحسب نفسه صادقا يمكن أن يُعَدّ صادقا لأنه من الممكن أن يكون في دماغه بعض الخلل، ومن الممكن أيضا أن تكون فكرته هذه مبنية على عقيدة وجدت طريقها إلى جماعة ينتمي إليها، وقد اعتقد بناء على ذلك أن كل ما يقوله هو من عند الله. وهذا الخطأ، يمكن أن يسري بكل سهولة إلى

[1] إنجيل متى ٧: ١٥-٢٠

أقوام لا تعتقد بالإلهام اللفظي، لأنه إذا تأمل أحد أفراد هذا القوم في بعثة موعود منتظَر ووجد صدفة في نفسه أيضا بعض أوجُه الشبه التي يمكن وجودها في مئات من الناس، فمن المحتمل جدا أن تساوره فكرة أنه هو ذلك الموعود. ثم إذا نال قبولا ولو إلى حد ما، لسبب أو لآخر كان من الممكن جدا بل من الأغلب أن يعتقد بصدق النية أن الفكرة التي خطرت بباله كانت إلهاما، ثم يعتبر نفسه أنه هو الموعود المنتظَر. فلولا الإلهام اللفظي لفُتح هذا الباب على مصراعيه، ولَعَدّ هذا الشخص كل فكرة تطرأ على ذهنه إلهاما من الله وكلامه سبحانه وتعالى.

فتحلي جماعةٍ ما فقط بروح التضحية والإيثار- الدال على حسن النية فقط دون أن يدلّ على كونها من الله- لا يكفي بل لا بد من وجود الصفات الإلهية فيها أيضا. أي كما أن الإنسان الكامل المبعوث من قبل الله تعالى يكون مظهرا لصفات الله، مثل صفة العلم والخلق والإحياء والشفاء والرزق والملك وغيرها، كذلك يجب أن يتولد في جماعته أيضا أناس يتحلون- بفضل صحبته- بتلك الصفات على قدر مؤهلاتهم، كأن تُحشر أرواح ميتة بواسطة هذا المبعوث، وتقوم القيامة في هذه الدنيا وتكون حجة على منكري القيامة.

لقد أثبتت جماعة المسيح الموعود عليه السلام هذه الصفة من خلال وجودها بفضل الله تعالى. لا نقول إن جلال الله تعالى أيضا غادر الدنيا مع مغادرة المسيح الموعود عليه السلام بل نقول إنه عليه السلام قد خلق في الدنيا روحا جديدة، ويوجد في جماعته ألوف ممن نالوا حياة جديدة بواسطة حياته هو عليه السلام، ونالوا معرفة الله تعالى ووصلوا إليه وصولا لطيفا فنالوا مرتبة اليقين والمعرفة الحقيقية، فنشأت فيهم صفاته سبحانه وتعالى، فصاروا مُظهرين لصفاته. بل يمكنني القول بأن غالبية الأحمديين قد شاهدوا هذه المعجزات في نفوسهم كل بحسب مرتبته. ونقول إن

فيوضه عليه السلام لم تنته معه بل هي جارية، وستبقى جارية إلى ما شاء الله ما دام الناس يحاولون العمل بحسب تعليمه؛ إن شاء الله وهو البر الرحيم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أقدم لكم حادثين يتعلقان بي أنا. يعود أولهما إلى أربع سنوات مضت حين أُخبِرتُ بمقتل طبيب أحمدي في العراق، كان أبواه شيخين كبيرين، وزارني قبل بضعة أيام فقط. لقد كتب بعض زملائه في رسائلهم إلي أن العرب هاجموا مكانا كذا وكذا وقُتل الطبيب المذكور أثناء ذلك، وكان لهذا الخبر تأثير جدّ عميق في قلبي وتصاعدت من قلبي أمنية ودعاء متكرر وبصورة عفوية يقول: ليته لم يُقتل، وظللت أُهدِّئ نفسي وأقول: وهل يُحيا الأمواتُ، أنّى له أن يحيا؟ ظلت هذه الحالة مستولية علي طوال النهار، فرأيت في المنام ليلا أن الطبيب المذكور حي يُرزق بفضل الله تعالى، فتعجبت من الرؤيا كثيرا ولكن علمتُ من طبيعة الرؤيا أنها من الله تعالى. لما كنت أظن أنه قد قُتل ولحق بالأموات فقلت إنه لا بد أن يكون للرؤيا تفسير آخر. ثم حدث أن أخي الأصغر حكى هذه الرؤيا لأحد أقارب الطبيب المذكور الذي يسكن في قاديان. وهذا القريب كتب إلى أهله أني قد رأيت كذا وكذا في الرؤيا. وبعد بضعة أيام وصلت رسالة من قبل أحد أقارب الطبيب أنهم تلقّوا برقية من الطبيب جاء فيها أنه حيٌّ فلا داعي للقلق. ثم تبين فيما بعد أن العرب المهاجمين كانوا قد ألقوا القبض عليه وساقوه معهم، وبما أنهم كانوا قد قتلوا جميع من ألقوا القبض عليهم تقريبا أثناء هذا الهجوم لذا فقد عُدَّ هذا الطبيب أيضا في عداد المقتولين. ثم أخبرني الله تعالى أخيرا بالرؤيا أنه حيّ، ومن ناحية أخرى هيأ أسبابا حتى وصلت كتيبة من جيش الإنجليز إلى القرية التي كان العرب قد اعتقلوه فيها، ففر أهل القرية مذعورين بمجيء الجيش ووجد الطبيبُ فرصة للفرار بحياته من هناك، وهكذا وهبه الله تعالى الحياة من جديد.

الحادث الثاني لا يزال حديث العهد. فكما هو معلوم أن الطاعون الذي انتشر في هذه البلاد منذ ١٢ أو ١٣ عاما مضت بحسب نبوءة المسيح الموعود عليه السلام إثباتا لصدقه، بدأ يتراجع شيئا فشيئا في الفترة الأخيرة. وفي السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة تراجع بشكل كبير حتى أبدت الحكومة أملها في اختفائه من البلاد كليا إلى السنة المقبلة. ولكنني في ذلك الوقت أُرِيتُ مريضا مصابا بالطاعون وكذلك بعض الجواميس تعدو في الأزقة. والمراد من رؤية الجواميس في المنام هو الوباء. أعلنتُ هذه الرؤيا فورا وقلت: يبدو أن وباء الطاعون الجارف موشك على الانتشار في البلاد مرة أخرى. ونُشر إعلاني هذا في "جريدة الفضل" بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني. ثم لم يمض على نشره إلا شهر واحد حتى بدأ الطاعون صولته وجولته في البلاد، واشتدت وطأته منذ شهر شباط، ثم اشتد أكثر في شهر آذار ونيسان وحزيران إلى درجة أنْ أصبح يحصد من ٨٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ شخص كل أسبوع. وقد حصد إلى الآن أكثر من ١٥٠٠٠٠ شخص. وهذا العدد أكبر من عدد الهالكين الإجمالي في خمسة أعوام مضت.

لقد ضربت هذه الأمثلة كنموذج فقط، وإلا فقد أظهر الله تعالى غيبه عليّ مئات المرات، كذلك هناك ألوف من الأحمديين الذين يعاملهم الله سبحانه وتعالى المعاملة نفسها. وهذه المعاملة تكون في ظل صفاته عز وجل المختلفة. ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المعاملة ليست مما يكسبه الإنسان بنفسه. إن الله حكيم، ولا يخلو فعله من الحكمة، لذا لا يترك الأمور على رغبة الإنسان ليفتح متى ما شاء وكيفما شاء كنوز صفات الله تعالى المتعلقة بعلمه سبحانه وتعالى وقدرته وشفائه أو صفاته المتعلقة بالإحياء والخلق والرزق والملك وغيرها. بل هذه المعاملة غير العادية تتجلى بحسب حكمته الخاصة ونتيجة فضله سبحانه وتعالى البحت. نعم! إنه تعالى يعامل عباده بمثل هذه المعاملة فضلا منه ليزيدهم علما وإيمانا ويقينا بما يميزهم عن الآخرين.

من الفئات والأقوام الأخرى. ونحن نؤمن أنه لو مالت فئة من الفئات مَيلا كاملا إلى الهداية بصدق لأظهر الله تعالى بحكمته الكاملة صفة من صفاته تطمينا لهم لأنه تعالى يحب هداية عباده ولا يحب ضلالهم وبُعدهم عنه.

وبعد إثبات أن الإسلام يعطي تعليما كاملا عن الله ﷻ، وفوق ذلك كله يوصل الإنسان بالله تعالى في هذه الدنيا ويفتح له أبواب اليقين والإيمان بحيث لا يبقى مجال للشك والريبة، فينتظر الإنسانُ الموتَ بكل شوق لأنه يعلم بأنه وجد الحق وقد شاهد في هذا العالم صفات الله كلها واحدة بعد أخرى، وأنه ليس في نصيبه بعد الموت إلا الخير والتقدم الذي لا نهاية له.

أتوجه الآن إلى بيان تعليم الإسلام وأهدافه الأخرى.

الهدف الثاني، الأخلاق

لو أمعنا النظر لوجدنا أن هذا الهدف تابع للهدف الأول لأن الذي ينال معرفة الله تعالى الكاملة لا يقرب السيئة أبدا. وكلما تورط أحدٌ في السيئات حُجِبَ عن الله. يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[1] أي الباعث على السيئات هو قلة المعرفة الإلهية. العقل الإنساني أيضا يؤيد هذا الإعلان القرآني؛ فالعاقل لا يُدخل يده في النار قصدا، والذي يعرف أن طعاما ما قد دُسّ فيه السم لن يأكله أبدًا، ولو علم أحد أن سقف البيت سيسقط حتما بعد دخوله إليه لما دخله على الإطلاق، والذي يعلم أن في هذا الجحر أفعى لن يدخل فيه يده، ولو علم أحد أن أسدا يقبع في مغارة ما لما دخلها بلا أسلحة وعُدة وعتاد. فالذين يخافون النار والأفاعي والأسود والسموم إلى هذه الدرجة أنّى لهم أن يجترئوا- بعد الحصول على المعرفة الإلهية- على اقتراف السيئات وإساءة الخُلق إذا كانوا قد عرفوا حق المعرفة أنها كالسموم

[1] سورة النساء: ١٨

والأسود والأفاعي بل أكثر منها ضررا؟ وأنّى لهم أن يحسبوها طعامًا لذيذًا تعتمد الحياة على أكله؟

فيتبين بجلاء أن سبب ارتكاب السيئة يعود إلى الجهل وقلة المعرفة. والدين الذي يخلق المعرفة فكأنه يفتح على أتباعه بابا للحصول على مكارم الأخلاق. ولكن لـمّا كان لهذا الموضوع أهمية بالغة ويهتم به أناس كثيرون، وكثير منهم لا تكفيهم فكرة إجمالية عنه بل هم بحاجة إلى بعض الشرح، فسوف أبين باختصار تعليم الإسلام المتعلق بهذا الهدف.

لقد قلتُ في معرض بيان التعليم الإسلامي عن ذات الله تبارك وتعالى بأن إجماع الأديان المختلفة على البيان الإجمالي حول صفات الله تعالى لا يفيدنا فائدة علمية. والحق أن ما يحتاج إليه العالَم هو تفاصيل الأسماء الإلهية، أي صفات الله الحسنى. إذًا، فالإجماع في التفاصيل هو الإجماع الحقيقي. وما لم يطابق التعليم التفصيلي لدينٍ تعليمَه المجمل لا يمكن القول بأن هذا الدين يعطي تعليما صحيحا عن الله تعالى؛ لأن الدين مضطر في التعليم الإجمالي إلى الثبات على مسلك صائب لأن الفطرة الإنسانية لا تقبل أن يُنسب إلى الله ﷻ أي عيب أو نقيصة، إلا أنْ تُقدَّم مُقنَّعةً ومغطّاة في رداء شروح فلسفية معقدة. فما لم تكن تفاصيل دين ما بحسب الصفات التي ينسبها إلى الله تعالى، لا يحق لهذا الدين أن يدّعي أنه يعترف في الواقع بالصفات التي يقدمها إجمالا، ولا يمكن لأحد أن يستنتج من هذا الإجمال أن جميع الأديان متفقة على هذا الأمر. فلو سمى أحدٌ الماءَ حليبا لما تحول الماء إلى حليب ما لم تتوفر فيه مقومات الحليب وخواصه، وكذلك الحال بالضبط بالنسبة إلى الأخلاق. فعند المقارنة بين تعليم الأخلاق في مختلف الأديان يجب ألا يُنظَر إلى ما تقوله عن الأخلاق إجمالا، لأني لا أظن أن في العالم دينا يقول لأتباعه إنكم إذا ابتغيتم رضى الله فلتكذبوا، أو يجب أن تسرقوا أو تظلموا أو انهبوا أموال الآخرين، وإذا ائتمنكم أحد فلا

تردوا إليه أمانته، وتعوّدوا على الفحش والكلام البذيء والشجار والنزاع والفساد والفُرقة. ولا أظن أيضا أن في العالم دينا يمكن أن يأمر أتباعه بألا تقولوا الحق ولا تَلطَّفوا بالناس ولا تحبوهم، واكْرهوا الصلاحَ، ولا تحفظوا الأمانة وانبذوا الأدب واللياقة وفرّوا من الوقار والسكينة فرارا ولا تدَعوا عواطف الشكر والإحسان تنشأ في قلوبكم.

كل دين ينوي نيل القبول في العالَم ويريد أن ينال الاحترام بين أقرانه لا بد له أن يعطي عن الأخلاق تعليما يشكّل قاسما مشتركا بين كل الأديان. وإلا ستتصدى له الفطرة الإنسانية، وستُطوى صفحته من العالم في أيام معدودة. إذًا، لو قدّم دين من الأديان هذا النوع من التعليم فلا فائدة منه لأنه تعليم مشترك بين جميع الأديان ولا يحق لدين معين أن يفتخر بأنه متفق في ذلك مع الأديان الأخرى. كما لا نستفيد من هذا الاتفاق فائدة علمية، لأن هذا الاتفاق ناتج عن اضطرار وليس عن سعي صادق أو جهد مخلص. إنني لأتعجب من أتباع بعض الأديان حين يجمعون تعاليم دينهم في موضع واحد وينشرونها بين الناس ثم يفخرون بها ويعُدّونها دليلا على صدق دينهم؛ بينما واقع الأمر هو أن تعاليمهم هذه لا تتميز بشيء، لأن جميع الأديان، مهما كانت قديمة ونمت في مناطق وأزمنة بعيدة عن العلم والثقافة تتفق معها في هذه المسائل. والحق أن الأمم التي لا تفهم الدين مطلقا وهي بعيدة عن العلم والثقافة كل البُعد وتُعتبَر كالوحوش، لو تركنا عملهم جانبا وسألناهم عن الأخلاق في هدوء وسكينة حتى لا يرتعبوا، لبيَّنوا عن الأخلاقِ الأمورَ نفسها التي تبينها الأديان المتحضرة. فتأسيس صدق الدين على أمر مشترك حتى مع الأقوام الوحشية، ناهيك عن الأديان العلمية، تصرُّف غير معقول على الإطلاق. إن أهم ما يجدر الانتباه إليه لدى المقارنة بين تعليم الأخلاق إنما هي تفاصيل الأخلاق وأسبابها ووسائل التخلّق بالأخلاق الفاضلة، ووسائل اجتناب السيئات وما شابهها من الأمور.

والآن أريد أن أوجّه الأنظار إلى أن الناس قد أخطأوا كثيرا في فهم تعريف الأخلاق، مما جعلهم غير قادرين على المقارنة الدقيقة بين تعاليم الأخلاق. يظن الناس عادة أن الحب والعفو والشجاعة وما شابهها يندرج تحت الأخلاق الفاضلة، أما الغضب والكراهية والقسوة والخوف وما شابهها فأخلاق رذيلة. ولكن الحقيقة ليست كذلك لأن كل هذه الأمور هي أمور طبعية ولا يجوز اعتبارها أخلاقا حسنة أو سيئة. إذ لا يندرج مجرد الحب أو العفو أو الشجاعة أو القسوة أو الخوف أو الكراهية في قائمة الأخلاق، بل كلها نزعات طبعية عند الإنسان بل عند البهائم أيضا؛ إذ تبدي البهائم أيضا الحب والعفو والشجاعة والقسوة والخوف والكراهية. ومع ذلك لا يقول أحد إن هذه البقرة ذات أخلاق فاضلة أو تلك الشاة تتحلى بمكارم الأخلاق أو ذلك الحصان ذو أخلاق حسنة. فلا نعُدّ هذه الأمور التي توجد في الإنسان أخلاقا حسنة حين نجدها في البهائم بل نعُدّها نزعات طبعية عندها بينما لو وُجدت الصفات نفسها في الإنسان لاعتبرناها أخلاقا فاضلة، فلماذا هذا الفرق؟ الأمور التي تُعَدّ أخلاقا فاضلة عند الإنسان لماذا لا تُعَدّ كذلك عند البهائم؟ السبب واضح بيّن، وهو أننا نعرف بطبيعتنا أن هذه الأمور الطبعية ليست أخلاقا، بل الأخلاق شيء آخر تماما، لذلك نعُدّ الناس ذوي الأخلاق ولا نعُدّ البهائم كذلك.

السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا إن وجدتْ صفةٌ أو غريزةٌ معينةٌ عند الإنسان تُعَدّ خُلُقًا وإن وجدت ذاتها في البهائم لا تُعَدُّ كذلك بل تُعَدّ نزعة طبْعيةً؟

اعلموا أن النزعات الطبعية إن عملت تحت العقل والحكمة لعُدَّت أخلاقا وإلا فلا، إذ يُتوقع من الإنسان أن تكون جميع أعماله مبنية على الحكمة، فهي الصفة التي تميزه عن البهائم، لذا عندما يستخدم المرء نزعاته الطبعية

نسميها أخلاقا محسنين به الظنَّ، وإلا فمن الممكن جـدا أن تكـون أعمـال الإنسان أيضا ناتجة عن نزعة طبيعية، وبالتالي لا تكون أخلاقا.

أما القول بأن الأخلاق المعروفة بين الناس هي نزعات طبعية، فيثبت مـن خلال مشاهدتنا أيضا؛ فنرى أن بعض الناس يتحلون بطبيعة لينة جدا ومهمـا استفزَّهم المرء لا ينفعلون مطلقا، والبعض الآخر ذوو طبائع حادة، إذا عزمـوا على أمر لا يتأخرون فيه مهما كان الأمر. وعليه، لا يمكن القول عن أي منهم إنه ذو خلق عظيم، لأن هذه الأفعال لم تصدر منهم عن قـصد، بـل هـم مضطرون إلى فعل ذلك. كذلك الذي لا يملك لسانا مثلا فهو لا يسب أحدا، أو الذي ليس له يدان فهو لا يضرب أحدا، فلا يمكن اعتباره ذا أخلاق عالية.

فمجمل القول إن الأخلاق ليست مجرد استخدام أو إظهار الغرائز الطبعية فحسب، بل المراد من الأخلاق هو إظهار هذه الغرائز في محلها المناسب.

فلما عرفنا تعريف الأخلاق فهمنا بسهولة أن الدين الذي يعلِّمنا التحلـي بالمرونة والليونة والشجاعة والعفو والمحبة فهو لا يعلمنا الأخلاق بل يعلّمنا أمورًا أُودعت في طبيعتنا منذ الولادة. ألا تُظهر البهائم المرونة؟ أوَلا تبـدي البـهائم الشجاعة والعفو والحب والمواساة أيضا؟ بل قد شاهدنا مرارا أنه لو جُرحـت بهيمةٌ جاءتها أخرى وجلست بقربها ونظرت إلى صاحبتها بنظرة يتـبين منـها بجلاء أنها تبدي لها الحب والمواساة، وفي بعض الأحيان تلعقها أيضا حبا وتوددا. فمَثل هذا النوع من التعليم كمثل دين يقول لأتباعه: أيها الناس! كلوا الطعام، واشربوا، وإذا شعرتم بالنعاس فلتناموا. الحق أن الإنسان ليس بحاجة إلى أي دين للعمل بهذه الغرائز الطبعية ومقتضيات الفطرة، لأن الإنسان يؤدي هذا الواجب بفطرته. والدين الذي يتدخل فيها يُظهر ضعفه بنفسه لأن ذلك يشير إلى أنه لا يعرف حقيقة الأخلاق.

فهل لأحد أن يُطلعنا على بلد لا توجد في أهله عواطف الحُبّ أو المواساة، أو لا يوجد فيهم العفو؟ أو لا ينفقون على الفقراء والمساكين؟ وهل في الدنيا شخص لا يظهر هذه الصفات ويكون خاليا منها؟ فإذا كان الجواب بالنفي فما حاجة الدين إلى التدخل في ذلك؟

وإذا كان قصدُ الدين من المرونة والعفو والشجاعةِ هو عدمُ القسوة وعدم المعاقبة أو عدم إظهار الخوف في كل الأحوال كان ذلك تعليما جديدا ولكنه أيضا يخالف الفطرة الإنسانية، لأن الفطرة قد أودَعت هذه الأمور في طبيعة الإنسان، ولا يمكن التخلي عنها بشكل من الأشكال، كما أن التخلي عنها لا يفيد الإنسانَ قط؛ فالأمور المودَعَة في الفطرة مفيدة للإنسان حتما، والتخلي عنها يؤدي إلى انحطاط الحالة الأخلاقية ولا يكون سببا في تحسينها. فعلى سبيل المثال إذا طُلب من الإنسان أن يكون لين الجانب دائما ولا يظهر القسوة والشدة أبدا، سيكون معنى ذلك أنه لا يجوز للمعلم أن يزجر تلاميذه أبدا، ولا للآباء أن يحذِّروا أولادهم، ولا للحكومات أن تتصدى للمتمردين. وفي هذه الحالة يكون المراد من عدم الخوف ألا يتراجع الإنسان عن موقفه وإن كان مخطئا، وألا يخاف العواقب، ولا يبالي بأية خسارة وإن كانت دينية. والحق أنه ليس في الدنيا عاقل يمكن أن يعُدّ هذا التصرف أخلاقا فاضلة.

إذًا، فالمراد من الأخلاق هو أن يستخدم الإنسان الغرائز الطبعية في محلها. والتركيز على الغرائز الطبعية وحدها عبث، كما أن الامتناع عن بعض الغرائز الطبعية أمر يخالف الفطرة ويؤدي إلى الفساد؛ فالدين الذي يجعل أوامره خاضعة لهذه الحقيقة هو الذي يفهم حقيقة الأخلاق ويعلِّمُها، وليس الذي يركز على الغرائز الطبعية فقط. وبحسب معلوماتي إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقة وقدّم الأخلاق بصورتها الصحيحة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ﴾[1]؛ أي أن عقوبة الجريمة يجب أن تكون بقدر الجريمة فقط، والذي اعتُدِيَ عليه أو أُلحِق به الضرر لو عفا عن المعتدي، وكان عفوه سببا للإصلاح لا للفساد أو التمرد، فالله تعالى يجزي أمثال هؤلاء العافين، وهو لا يحب الظالمين، أي إن صاحب الحق الذي يعاقب المذنب أكثر من ذنبه، وكان معلوما عقلا أن عقابه سوف يفسد أخلاقه أكثر من ذي قبل ويحرمه من الحسنات وكانت عقوبته بغية إيذائه فقط، أو إذا تبين أن العفو عن المذنب يؤدي إلى تشجيعه على الذنوب أكثر ويلحق بالآخرين ضررا أكبر من ذي قبل فإن صاحب الحق الذي يعفو في هذه الحالة سيكون من الظالمين، ولن يحب الله تعالى عفوه هذا.

انظروا الآن كيف شرح الإسلامُ حقيقة الأخلاق؛ فقال أولا إن المبدأ الأساسي هو ألا يعاقَب المجرم إلا بقدر الجريمة. مع أن مقتضى الطبيعة أن الذي اعتُدي عليه يجب أن يعتدي على المجرم بقدر ما اعتُدي عليه، فيقول الله تعالى بأن الذي يريد أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة يجب أن يتأمل جيدا أيُّهما مدعاة لإصلاح المجرم، العقوبةُ أم العفو؟ فإذا كان الإصلاح في العفو فليعفُ ولا ينتقم. أما إذا كانت العقوبة تؤدي إلى الإصلاح فيجب ألا يعفو بناء على ضعفه القلبي، وإلا حُرِمَ المجرم من الإصلاح، وفعله هذا لن يُعدَّ رحمًا بل يعتبر ظلمًا. والذي يعلم أن العفو أدعى إلى الإصلاح، أو أن العقوبة مدعاة للإصلاح في حالة معينة ثم يعمل على عكس ذلك، يُعَدّ ظالما عند الله، وإن كان قد عفا عن المذنب؛ لأن هذا ليس عفوا بل هو تدمير لأخلاق أخيه قصدا.

لقد وضّح النبي ﷺ هذا الأمر بكلمات أخرى حيث قال: "إنما الأعمال بالنيات"[2]؛ أي إن الأعمال الحقيقية هي تلك التي تتم بقصد وإرادة. والعمل

---

[1] سورة الشورى: ٤١

[2] صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

الذي ينتج عن حماس طبعي فقط لا يُعدّ عملًا إنسانيا بل يُعتبر عاطفة بهيمية، لأنه لو تعرض الحصان أو الحمار أيضا لمثل هذه المواقف لَتَصَرَّفا بهذا التصرف تماما. فما لم يؤخذ القرار و لم يُنفَّذ بعد التأمل والتدبر والبحث في جميع النواحي لما اعتُبر خُلقا أو عملًا إنسانيا.

يتبين مما بيّنا آنفا أن الإسلام قد أدرك حقيقة الأخلاق جيدا وأعطى تعليما بحسبها، ولا يضاهيه دين في مجال التعليم الأخلاقي إلا الذي يُثبت أولا أنه أدرك حقيقة الأخلاق وأعطى تعليما بحسبها، وإلا فإن عَدّ الغرائز الطبعية تعليمَ الأخلاق ليس إلا ظلما وعدوانا.

بعد التوضيح أن معنى الأخلاق الحسنة عند الإسلام هو أن يستعمل الإنسان الغرائز الطبعية حسب مقتضيات العقل والحكمة، ومعنى الأخلاق السيئة هو استخدامها في غير محلها وبدون تفكير وتأمل رصين، أقدم الآن من تعليم الإسلام بعض الأوامر فقط كمثال، وسيتبين من ذلك كيف وضع الإسلام الغرائز الطبعية تحت حدود وقيود، وكيف أدى ذلك إلى نتائج طيبة.

يجدر بالتذكّر أن الإسلام قسم الأخلاق إلى قسمين، أي أخلاق القلب وأخلاق الجوارح، وبذلك رفع مستوى الأخلاق كثيرا. فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1]، أي لا تقربوا السيئات التي يعرفها الناس أو يمكن أن يعرفوها، كذلك لا تقربوا السيئات الخافية التي لا تصلها أعين الناس بشكل من الأشكال، وهي السيئات التي يرتكبها القلب وليس لدى الناس سبيل للاطلاع عليها إلا أن يخبر عنها مرتكبها.

ثم يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾[2]؛ أي إن أظهرتم ما في قلوبكم وعملتم بحسبه، أو أكننتموه؛

[1] سورة الأنعام: ١٥٢

[2] سورة البقرة: ٢٨٥

فذلك يقتصر على نياتكم فحسب، وإن لم تعمل جوارحكم بحسب نيـــاتكم، فستُسألون عند الله، أي يسألكم الله: لماذا سمحتم للسيئة أن تجـــد ســـبيلها إلى قلوبكم ثم تظهر من خلال أعمالكم؟

بعد تقسيم أعمال الإنسان الظاهرية والباطنيـــة إلى قـــسمين، قـــسمهما الإسلام إلى قسمين آخرين، أي عدّ بعضها حسنةً وأخرى سيئةً. فقـــد ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[1]، أي الأخلاق نوعان: الحسنة والسيئة، غير أن الأخلاق الحسنة تتغلب على الأخلاق السيئة. أي أن الـــذي يعتصم بالأخلاق الحسنة يتغلب على الأخلاق السيئة رويدا رويـــدا. ثم قـــسم الإسلامُ الأخلاق الحسنة والسيئة أيضا إلى قسمين آخرين. أي الأخلاق الـــتي تؤثر في نفس صاحبها فقط، والأخرى التي يراد بها التأثير في الآخرين أو تـــؤثر في الآخرين فعلا.

تكونون قد أدركتم من جزئيات التقسيم المذكور آنفا أن الإسلام قد وسَّع نطاق الأخلاق كثيرا بالمقارنة مع الأديان الأخرى. أي لم يجعلها مقتصرة على الآخرين بل جعلها تشمل الجميع بمن فيهم الشخص الذي يجب أن تصدر منه هذه الأخلاق والأعمال. فيشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة ويقـــول بكـــل وضوح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُـــسَكُمْ لا يَـــضُرُّكُمْ مَـــنْ ضَـــلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2]؛ أي انتبهوا جيدا إلى نفوسكم أيضا، وأدوا حقوقها الروحانية. وإذا كان في ارتكابكم ذنبًا نجاة لأحد فلا ترتكبوه أبدًا لأنه لو ضل أحـــد نتيجـــة تمسككم بالهداية واختياركم الحسنات فهذا لن يجلب عليكم سخط الله، ولـــن يسألكم الله تعالى لماذا لم تختاروا السيئة بغية إنقاذ فلان من الذنوب؟ يقول النبي

[1] سورة هود: ١١٥

[2] سورة المائدة: ١٠٦

ﷺ: "وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا"[1]؛ أي ليس الاهتمام بالآخرين فقط ضروريا، بل إن إسداء الحسنة الظاهرية والباطنية والاهتمام بتربية نفوسكم تربية روحانيـــة ومادية أيضا واجب عليكم.

إذًا، ليس المتكبر ظاهريا هو الوحيد الذي يُعَدّ سيّئ الأخلاق فقط بحسب هذا التعليم، بل الذي يظهر تواضعا وانكسارا في الظاهر ولكنه يكنّ التكبر في زوايا خافية من قلبه يُعدُّ أيضا ذا أخلاق سيئة عند الإسلام، لأنه، وإن لم يـــؤذ غيره، فقد أساء إلى نفسه وأفسدها ودنّسها. لقد بيّن الله تعالى هذا الفـــرق في الآية: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[2]؛ أي أنهم اســـتكبروا في قرارة قلوبهم، وأظهروا كِبْرهم على الناس أيضا. كذلك إذا كان أحد يكنُّ في قلبه أفكارا سيئة عن غيره، فالإسلام يعُدّ هذا الأمر أيضا خُلقا ســـيئا، ســـواء أأبدى ذلك الشخص أفكاره هذه أم لا. فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْـــضَ الظَّـــنِّ إِثْمٌ﴾[3]؛ أي أن الظن إذا كان مبنيا على سوء الظن كان إثما. كذلك الأفكـــار المبنية على الظلم والفساد والخيانة وما شابهها تندرج كلها تحت سوء الخلـــق. وإن صاحبها- وإن لم يعمل بها ظاهريا بسبب افتقاره إلى الشجاعة أو بـــسبب عدم إتاحة أسباب أخرى- يعَدّ سيئ الخلق عند الإسلام ولن يُعدّ ذا أخـــلاق حسنة أبدا بناء على أعماله الظاهرية. كذلك الذي يكنّ في نفسه أفكارا طيبة عن الآخرين ويريد لهم خيرا، وينوي إفادتهم سوف يُعدّ ذا أخلاق حسنة وإن لم يقدر على تنفيذ إرادته لعدم إتاحة الأسباب وذلك لعدم إيجاد الفرصة.

ولكن هناك استثناء في هذه القاعدة وهو أن الذي تنشأ في ذهنه أفكـــار فاسدة، بما فيها سوء الظن ببني جلدته، أو يتطرق الكِبْر أو الحسد أو الكراهية

---

[1] مسند أحمد بن حنبل، باقي مسند الأنصار، رقم الحديث ٢٥١٠٤

[2] سورة الفرقان: ٢٢

[3] سورة الحجرات: ١٣

إلى قلبه ولكنه يكبتها، لن يعَدّ سيء الأخلاق؛ لأنه في الحقيقة يقاوم سوء الخلق، فيستحق الثناء والمديح. وكذلك إذا خطرت ببال أحد فكرة حسنة مؤقتا أو مالت طبيعته مؤقتا إلى حسن المعاملة ولكنه لا يسمح لهذه الأفكار لتتطور أكثر بل يكبتها في حينها، لن يُعَدّ مثل هذا الشخص ذا أخلاق حسنة لأن الأخلاق الحسنة هي التي تصدر عن قصد وإرادة كما أثبتنا قبل قليل. بينما الأفكار في كلتا الحالتين المذكورتين آنفا لم تصدر عن إرادة بل صدرت بغير قصد تحت تأثيرات خارجية. ويوضح الله تعالى هذه النقطة بالكلمات التالية: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1]؛ أي إن الله تعالى يؤاخذكم على أفكار تنشأ في القلوب عن قصد وإرادة، ولا يؤاخذ على أفكار تنشأ عرضا ثم ينزعونها من قلوبكم. يقول النبي ﷺ في شرح ذلك بأن الذي يبعد من قلبه الأفكار السيئة التي تتولد فيه عرضا ولا يعمل بها فهو يعمل عملا حسنا، ويستحق الأجر. يقول رسول الله ﷺ: "وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً"[2]؛ أي إنه سينال جزاءً حسنًا نتيجةً كبته الأفكار السيئة.

كذلك يراعي الله تعالى هذا الفرق في الأعمال الظاهرية أيضا، فقد قال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ﴾[3]؛ أي الذين يعملون الحسنات سوف يجزيهم الله جزاء حسنا، أما الذين يجتنبون الكبائر والصغائر من الآثام والذنوب، وإن مالوا إليها بناء على ثَورة مؤقتة في النفس لكنهم يتنبهون ويعودون عنها فورا. والمقصود هو أنه قد يصدر من أحد خطأ ما من جراء ثورة عارضة أو بسبب الغفلة، ولكن حالما تنتبه نفسه إلى هذه الزلة ويدرك أنه مُقْدِم على فعل سيّئ يتوقف

[1] سورة البقرة: ٢٢٦

[2] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو بسيئة.

[3] سورة النجم: ٣٢- ٣٣

فورا ويجر نفسَه إلى شاطئ الأمان، فهذا الشخص لن يُعَدّ سيئ الخلق بل يُستحسَن عمله هذا ويكون مَثَله كجندي يحارب من أجل بلاده وإن لم ينتصر بعد.

بعد بيان الجانب العملي لتعليم الإسلام عن الأخلاق أتناول بعض الأخلاق كمثال فقط لأن هذا الموضوع واسع جدا وإن الاستطراد فيه يحتاج إلى وقت طويل. وسوف أغض الطرف عن جوانب أخرى منه وسأتناول ما بيّنتُ آنفًا في تعريف الأخلاق أي استخدام الغرائز الطبعية في محلها المناسب؛ لأني أرى أن ذلك يكون أكثر فائدة وتأثيرا.

أتناول أولا، من بين النزعات الطبعية للإنسان، "الرأفة" و"النقمة". هذا الخُلق موجود في الإنسان وفي البهائم التي تتجنب بوجه عام إيذاء غيرها، ولمعاناة الآخرين تأثير غريب في نفس الإنسان فيشعر بها وكأنها مسّته؛ فإذا شوهد مريضا يسقط في السوق ثار في قلوب الجميع تقريبا نوع من الألم والتعاطف تجاهه، اللّهم إلا الذي شغله عنه شاغل أو أصابه منه أذى، فيفرح الأخير أحيانا بمصيبة المصاب وتتولد عنده عاطفة "النقمة" التي هي خُلق يظهر ممن آذاه المصاب من قبل فيودُّ الذي أُسيء إليه أن ينتقم من المسيء. وبغلبة عاطفة الانتقام تزول الرأفة، فلا يعود المنتقم يشعر أن خصمه يتعرض للمعاناة التي من المفترض أن تولد في قلبه رأفة أو ألما عليه بل يتلذذ أحيانا بألم أصاب خصمه.

هذه الحالة من النقمة، ما لم تُخضَع لقانون، تظل تظهر للعيان في أشكال مختلفة. فتارة يكون المعتدَى عليه قادرا أو يظن أنه قادر على معاقبة من آذاه فيؤذيه أو يحاول أن يؤذيه بمثل ما أُوذِي به، ويكون الهدف من وراء ذلك أن يتضرر المعتدي أو المسيء كما تضرر المعتدَى عليه أو الذي أُسيء إليه، وتارة أخرى يكون المسيء أقوى ممن أُسيء إليه، أو يكون أقاربه أقوياء أو يرى

المعتدَى عليه أن إلحاقه الضرر الحقيقي بالمعتدي لن يترك تأثيرا جيدا بين الناس بل سوف يستاؤون من فعله، أو يظهر للعيان سبب آخر فلا يقدر على إلحاق الضرر الحقيقي بالمعتدي. عندئذ يستخدم ضده حربةَ بذاءةِ اللسان ويتجسس على عيوبه. وأحيانا أخرى يكون خصمه أقوى منه فلا يستطيع أن يحرك حتى لسانه ضده فيتحاشى الكلام عنه واللقاء به، وأحيانًا لا يقدر حتى على ذلك فيكِنّ في قلبه ضغينة ضده ويفرح على مصائبه ويستاء لنجاحاته.

إذًا، فالنقمة التي هي عاطفة طبعية تدفع صاحبها إلى أن يقوم بأعمال مختلفة. ولكن وضع تلك الأفعال تحت رقابة العقل، ومنعُ هذه العاطفة من أن تعمل بحرية دون وازع ورادع يسمى خلقا حسنا. وإن إطلاق العنان لهذه العاطفة واستخدامها في غير محلها هو الخُلُق السيّئ بعينه. ولتحويل هذه النزعة الطبعية إلى خلق حسن فرض الإسلام بعض القيود التالية:

القيد الأول الذي يفرضه هو: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1] هذا حكم عام وموجّه إلى الذين ليسوا على مستوى من العقل والفهم بحيث يستطيعون أن يفهموا دقائق الأمور. والذين هم أذكياء أكثر قد فرض القرآن الكريم عليهم قيودا أخرى حيث يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ... أما الذي يعفو حين يمكن أن يؤدي العفو إلى تفاقم الإثم، أو الذي يعاقب حين يمكن أن تؤدي العقوبة إلى شيوع الإثم فكلاهما ظالم، والله لا يحب الظلم. فالرأفة التي مؤداها العفو في الظاهر، وكذلك النقمة التي نتيجتها العقوبة في الظاهر، قد وضع الله تعالى لها قيودا وقال إنْ كان العفو هو الأنسب في حق المعتدي فليُعْفَ عنه، ولتُعْطَ الرأفة فرصة لتعمل عملها. أما إذا كانت العقوبة تؤدي إلى إصلاح المعتدي فليُعاقبْ ولتُعطَ النقمةُ فرصة لتعمل عملها.

[1] سورة البقرة: ١٩٥

والحالة الثانية في الانتقام أن يكون الظالم قويا ويكون المظلوم غير قادر على الانتقام منه، أو لا يريد الانتقام لمصلحة ما فيلجأ إلى تهدئة عواطفه عن طريق الكلام النابي عنه والبحث عن عيوبه، وقد قال الله تعالى عن مثل هذا الشخص: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾[1]؛ أي أن اللمز والتنابز بالألقاب ممنوع بتاتا حتى في حالة الغضب والانتقام. ولكن السؤال هو لماذا مُنع من ذلك؟ الذي لا يستطيع أن ينتقم ممن ظلمه لِمَ لا يُسمح له بالانتقام عن طريق اللمز، ولِمَ لا يسمح له بتهدئة عواطفه باللجوء إلى السباب والشتائم؟ الجواب على هذا السؤال هو: لقد مُنع من السباب والشتائم لأنها كذب وفحش، والإسلام لا يجيز الكذب والفحش. وقد مُنع من اللمز لأنه يؤدي إلى الفساد بدلا من الإصلاح لأن الذي تُذكر عيوبه علنا تبدأ عاطفة الحياء عنده بالاختفاء شيئا فشيئا فيشرع في ارتكاب الفحشاء والمنكر.

والحالة الثالثة في الانتقام أن يقاطع المظلومُ المعتديَ ولا يكلمه، ولكن الإسلام لا يحبِّذ هذا النوع من الانتقام أيضا فيقول النبي ﷺ: "لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ."[2]؛ أي على المسلم أن يبدأ بالكلام مع أخيه المسلم قبل أن تنقضي ثلاثة أيام.

والحالة الرابعة للانتقام هي أن يكِنّ الإنسان البُغض والضغينة في قلبه. ويقول الله تعالى في هذا الصدد: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[3]؛ أي لا يجوز للمؤمن أن يكِنّ في قلبه ضغينة تجاه الآخرين. يقول النبي ﷺ في هذا الصدد: "المؤمن ليس بحقود"[4].

---

1 سورة الحجرات: ١٢

2 سنن الترمذي، أبواب البر والصلة.

3 سورة الحجر: ٤٨

4 الجامع الصغير، الجزء الثاني، ص ١٨٠، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢١ هـ.

فبوضع هذه القيود لم يجز الإسلام ظهور النقمة إلا في حالة واحدة وهي أن ينتقم المظلوم بمثل ما ظُلم. ولكن في هذه الحالة أيضا وضع شرطا؛ فإن وُجدت الحكومة فلينتقم عن طريقها ولا يأخذ القانون بيده، وإن لم توجد فلينتقم بقدر ما ظُلم فقط. وإن كان الإصلاح ممكنا بالعفو لكانت الأولوية للعفو. أما بقية طرق الانتقام بما فيها السب والشتم واللمز والمقاطعة والبُغض فلم يُجزِها الإسلام لأنها تؤدي إلى التمادي في الإثم والفساد، وتتلاشى إمكانية الإصلاح الذي هو الهدف الحقيقي من وراء الانتقام.

والنـزعة الطبعية الثانية التي توجد في الإنسان هي الحب، وتلاحظ هذه العاطفة في البهائم أيضا، ومقابلها نجد عاطفة أخرى وهي الكراهية. فهاتان النـزعتان الطبعيتان لو استُخدِمتا في محلهما لعُدَّتا أخلاقا، إذ لا يمكننا القول إنه يجب أن تحبوا كل شيء أو تكرهوا كل شيء جزافًا، بل هناك حاجة إلى قواعد تحددهما ضمن حدود وقيود.

نرى أن الحب الطبعي ينشأ تجاه شيء يفيدنا أو يريح ويُمتِّع حاسة من حواسنا؛ فلا بد أن نحب بطبيعتنا أشياء تحقق هذا الغرض. ولكن هذا النوع من الحب لن يُعدَّ خُلقا لأنه يلاحظ في البهائم أيضا. الحب لا يُعدُّ خُلُقًا إلا في الحالات التالية، أولا: أن تُراعى المراتبُ فيه، أي أن تكون هذه العاطفة أقوى مع من يكون أقوى علاقة بالمحب وأن تكون أضعف مع من يكون أضعف علاقة به. وثانيا: أن يُراعى الإحسانُ السابق للمحبوب أكثر من إحسانه المأمول في المستقبل؛ فمراعاةُ الإحسان السابق مسؤولية أما الإحسان المأمول فطمع وحرص. ثالثا: ألا يكون النفع أو المتعة القريبة هو المقصود بالذات، بل يجب الاهتمام بالنفع أو الخسارة المستقبلية أيضا.

ولن يُعدَّ الحب خُلقًا إلا إذا كان بحسب الشروط الثلاثة المذكورة. ولقد ذكر الإسلام هذه الشروط الثلاثة فيقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ

وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ما أروعه من بيان حقيقة الحب الذي هو الخُلق! فقد قال تعالى: فليكن الحب على قدر المراتب والمدارج. أي يجب أن تحبوا الله تعالى بقدر عظمته، وتحبوا الرسول بحسب مرتبته، وتحبوا الدين نظرا إلى منـزلته وأهميته، وتحبوا الوالدين بقدر درجتهما وتحبوا الأولاد حسب علاقتكم بهم. أي يجب أن تكون معاملتكم كل واحد بحسب درجته، وإلا فلن يُعدّ الحب خلقا حسنا بل يُعَدّ ثورة طبعية وبهيمية. فمثلا إذا خذل أحدٌ والديه من أجل امرأة أحبها، أو لم يلبِّ نداء وطنه بسبب حب المال فلن نعُدّه صالحا قط بناء على حبه فقط؛ فهو أظهر الحب دون شك وفعل ذلك خارجا عن نطاق العقل والتفكير الرصين، لذا لم يكن عمله خلقا حسنا.

والشرط الثاني للحب هو أن ينتبه الإنسانُ أكثر إلى الإحسان السابق لمن أحسن إليه، مقارنة مع النظر إلى المتعة والفائدة الحالية أو الأمل في المنفعة المستقبلية. والحب الذي يندرج تحت هذا المبدأ ويُعدّ خلقا حسنا يكون حب الوالدين وليس حب الأولاد، لأن حب المرء أولاده ليس خلقا حسنا وإنما هو نزعة طبعية. قولوا للأم مثلا ألا تتحمل المشقة من أجل ولدها ثم انظروا هل تفرح بقولكم أم تسخط؟ وذلك لأن ما تقوم به الأم إنما تقوم به بحسب مقتضى فطرتها للمحافظة على النسل، وإن حبها هذا ليس إلا غريزة طبيعية. ولكن حب الأولاد آباءَهم خُلقٌ حسنٌ، فالآباء قد أدَّوا واجبهم بحسب طبائعهم وقد استفادت منهم الطبيعة، وتعدُّهم الطبيعة بعد ذلك خالين من أية فائدة. فالأولاد الذين يحبون آباءهم إنما يتحلون بالأخلاق الفاضلة لأن مننهم

---
[1] سورة التوبة: ٢٤

السابقه عليهم تمثُل أمام أعينهم ويعرفون أهم أحسنوا إليهم حين كانوا ضعفاء بلا حيلة، وحان الوقت ليريحوهم مهما تحمّلوا المشاق في هذا السبيل؛ وقد قال الإسلام في ذلك: "الْجَنَّة تَحْت أَقْدَام الْأُمَّهَات"، و لم يقل إنها تحت أقدام الأولاد لأن كل شخص بطبعه يحب أولاده إلا من كان في ذهنه خلل. ولكن لا يحب كل الأولاد آباءهم حبًّا يستحقونه، بل هناك كثير منهم لا يبالون بهم ولو رأوهم في المشاكل، وهؤلاء أنفسهم يبقون منصرفين إلى تحقيق رغبات أولادهم مهما كانت بسيطة. فهل لأحد أن يَعُدّ فعلهم الأخير هذا خُلقا حسنا؟

الشرط الثالث للحب هو ألا يطمع الإنسان في منفعة قريبة، بل ينظر إلى المنفعة أو الخسارة البعيدة أيضا. فمثلا إذا كان أحد يحب شيئا، وكان حب هذا الشيء يلحق ضررا بدينه أو بالناس فإن حبه هذا يعَدّ نزعة طبعية فقط ولا يُعدّ خلقا حسنا لأن مآله ليس حسنا بل سيئا. أو إذا كانت الأم تطّلع على عادات سيئة لولدها ولا تمنعه لأن حبها له يجبرها على عدم معاقبته، فإن هذا الحب أيضا يُعدّ نزعة طبعية فقط، ولا يندرج تحت قائمة الأخلاق الحسنة إلا إذا وبّخته أمُّه وحثته على الحسنة، لأن مصلحة الولد الحقيقية في هذه الحالة تكمن في العقوبة. فيقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1]، أي أن الحب الحقيقي هو أن تنقذوا أنفسكم وأهليكم من الهلاك.

ومقابل عاطفة الحب هناك عاطفة الكراهية، وهي أيضا نزعة طبعية. ومحلها الطبيعي هو ابتعاد الإنسان عمَّا تنفر منه حواسه أو ما يضر ولا ينفع. بعض الأديان تعُدّ هذه العاطفة سيئة، وتفتخر بأنها علَّمت أخلاقا فاضلةً، ولكن هذا ليس صحيحا. الحق أنها نزعة طبعية وإن ظهورها في محلها ليس مكروها بل هو مستحسن. ولكن إذا تجاوزت هذه العاطفة الحدود أو كانت دون المستوى المطلوب، صارت مكروهة، وسميت عداوةً، أي استعداد الإنسان للظلم بسبب

[1] سورة التحريم: ٧

الكراهية أو ضيق الصدر. وإذا كانت العاطفة نفسها دون المستوى المطلوب سميت وقاحةً، أي عدم شعور الإنسان بالكراهية وضيق الصدر تجاه أمر يتنافى مع الحياء والكرامة.

فالكراهية ليست خُلقا سيئا في حد ذاتها بل هي نزعة طبعية وظهورها في غير محلها هو المكروه. لقد ورد في القرآن الكريم بيان شناعة العداوة مرارا، وقد وردت العداوة كصفة للكفار والمعتدين، ولم يقل القرآن ولو مرة واحدة أن المؤمن يعادي الآخرين، وقد استُخدمت هذه الكلمة بحق الله تعالى وبحق المؤمنين في القرآن الكريم مرتين أو ثلاث مرات فقط، وفي كل مرة بمعنى الانتقام- بحسب التعبير العربي المتداول- من العدو بسبب عداوته، وليس بمعنى أن الله تعالى أو المؤمنين يكِنّون عداوة للآخرين. فكما يكره الإسلام العداوة، كذلك يكره أن يُقضى على عاطفة الكراهية والنفور قضاء نهائيا، وذلك لأن الغيرة أيضا من أخلاق المؤمن، فكيف يمكن أن نكره شيئا ولا يضيق صدرنا به؟ السيئة معناها النجاسة الروحانية. حين نرى شخصا متّسخا ظاهريًا فإننا نكره هيئته وفعلته هذه ونضيق ذرعا برؤيته. وإذا رأينا وجه شخص متسخًا بوسخ أو لم ينظف أنفه مثلا أو كانت ثيابه ملطخة بالقذارة، أفلا نشمئز من هيئته وإن كان ذلك الشخص ابننا؟ وهل يستاء الآخرون من فعلنا هذا، أم يعُدونه علامة على طهارتنا القلبية؟ فهل هناك سبب معقول للاستياء لو كرهنا أو ضقنا ذرعًا بالأوصاف المذكورة آنفا؟ بل هذا عمل مستحسن وجدير بالإشادة، وتسمَّى عاطفة الكراهية هذه التي ظهرت في محلها المناسب غيرةً.

الحق أن الذين يعتبرون الكراهية فعلا سيئا لم يفهموا حقيقة أن هناك فرقا بين السيئ والسيئة، فقالوا لا بد أن نحسن إلى المسيء، ولكن لم يفكروا أنه لا بد من الإحسان إلى المسيء مع كراهية السيئة. ولو لم نكره سيئة المسيء لما نشأ في قلبنا حماس لإصلاحه. لقد بيّن الإسلام هذا الفرق، فيقول الله تعالى في

القرآن الكريم: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، وبتعبير آخر؛ يجب ألا تناصبوا العداوة حتى لعدوكم.

وكذلك يقول الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ[2]، أي ينبغي أن تحسنوا أيضا إلى الذين يعادونكم عداوة دينية. ولكنه قال في موضع آخر: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[3].

أي لا تميلوا إلى الذين لم يسْلموا بعد. فمن ناحية يقول الله تعالى أن تحسنوا إلى الكفار، ومن ناحية يقول، يجب ألا تميلوا إليهم، والمراد من ذلك أن تحسنوا إليهم في الأمور الدنيوية، ولكن فيما يتعلق بأعمالهم المنافية للتقوى والطهارة فلا بد من أن تكرهوها.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿لَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ[4]، وإلى جانب ذلك قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[5]، أي إنك تحزن يا رسول الله، نظرا إلى كفرهم وضلالهم حتى تكاد تهلك نفسك بسبب حبك لهم.

يتبين من هذه الآيات كلها أن الإسلام يقول: يجب أن تحسنوا إلى الشخص المسيء، ولكن لا بد من أن تكرهوا سيئته وبذلك تكتمل الأخلاق.

والآن أتناول نزعة طبعية أخرى، وهي الرغبة في التقدم. يرغب الإنسان دائما في أن يتقدم على زملائه، بل توجد هذه النزعة في البهائم أيضا. فإذا

---

[1] سورة المائدة: ٩

[2] سورة الممتحنة: ٩

[3] سورة هود: ١١٤

[4] سورة الحجرات: ٨

[5] سورة الشعراء: ٤

كان هناك فرسان يجريان واحد أمام الآخر فيعدو كلٌّ منهما دونما سبب ليسبق خصمه. هذه نزعة طبعية، ولكن لو تفاقمت أو انحطت دون المستوى المطلوب لأدت إلى نشوء أخلاق سيئة عديدة، أما إظهارها واستخدامها في محلها فيخلق حسن الخلق؛ فإن أظهرها الإنسان تسابقًا في الخيرات لنفعته كثيرًا، والطلاب يحرزون التقدم بسببها. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]، معنى ذلك أن الإسلام قد خلق خُلقا جديدا حين اشترط استخدام هذه النزعة الطبعية في الخيرات، أي أن التسابق في الخيرات والحسنات والأخلاق الفاضلة هو خُلق حسن في حد ذاته.

ولكن لو استخدمت العاطفة نفسها بسوء لأدت إلى نشوء الحسد، أي بتجاوز هذه الرغبة الحدود يفكر الإنسان دائما أن يتقدم هو وحده دون غيره، والإسلام لا يحب ذلك. فقد علّمنا القرآن الكريم دعاءً: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[2].

هناك عيب آخر أيضا يتولد بسبب هذه الرغبة وهو أن يرى الإنسان مآثر غيره مثالب؛ فيرغب أحيانًا تحقيقًا لذلك في أن يحتكر لنفسه ما في أيدي الآخرين من الخيرات والأشياء الجيدة لكي يتفوَّقَ عليهم، وأحيانا يرى كمالات غيره عيوبا تحقيقا لرغبته في التفوق، وهذا يسمَّى "الاحتقار" بالعربية، وهو أيضا مكروه بشدة في الإسلام. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾[3]. فهذه الرغبة لو تفاقمت أكثر لبدأ الإنسان بسبّ الآخرين والطعن في نسبهم، والإسلام ينهى عن جميع هذه التصرفات، فقد قال النبي ﷺ: "لَا يَرْمِي

[1] البقرة: ١٤٩

[2] سورة الفلق: ٦

[3] الحجرات: ١٢

رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفِسْقِ وَلَا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ."[1]

أي لو عاب أحد غيره عيبا خُلقيا أو دينيا- دون أن يوجد فيه هذا العيب- بغية إهانته فقط لنشأ العيب نفسه في المُعيب.

العيب الآخر الذي ينشأ من جراء عدم وضعه هذه النزعة الطبعية ضمن حدود هو نشوء الاستكبار فيه. أي أن استفحال هذه الرغبة يؤثر في ذهنه فينسى أو يتناسى عيوبه وتقصيراته رويدا رويدا، ثم يحسب نفسه أعلى من الآخرين ويستكبر. فقد قال القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا﴾[2].

كذلك هناك نزعة طبعية أخرى وهي الرغبة في بقاء النسل. فقد وضع الإسلام حدودا لهذه العاطفة أيضا وأمر بإظهارها ضمن الحدود كما يلي:

أولًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾[3]، أي يجوز لكم الزواج عن طريق النكاح.

ثانيًا: ﴿لا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾[4]، أي يجب ألا تشبعوا شهوتكم إلا مع زوجاتكم وإلا سيضيع الهدف من هذه النزعة الطبعية.

هنا ينشأ سؤال وهو: ماذا يفعل من كان غير قادر على النكاح والزواج؟ فيرد القرآن الكريم على هذا السؤال قائلا: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ

---

[1] مسند أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث أبي ذر غفاري ﵁، رقم الحديث: ٢٠٥٩٠.

[2] سورة النساء: ٣٧

[3] سورة الأحزاب: ٥١

[4] سورة الإسراء: ٣٣

نِكَاحًا﴾[1]، أي عليهم أن يضعوا حدا لثوائرهم النفسانية بالطرق التي تؤدي إلى كبت جماح الشهوة ولا يلجأوا إلى الزنا ولا يضيعوا طاقاهم الضرورية لبقاء النسل، لأهم لو فعلوا ذلك لمسخوا فطرهم بأيديهم، وليعلموا أن الله تعالى لا يحب أن يقضي الإنسان على متطلباته الفطرية.

وقال ﷻ أيضا: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[2]. بما أن فعلهم هذا كان غير طبيعي ومنافٍ لمقتضى الفطرة فكانت النتيجة أهم لم يتمكنوا من رعايتها فلم تكن رهبانيتهم إلا بالاسم فقط.

فما أروعه من أسلوب لوضع حدود لهذه النزعة! فمن ناحية سمح باستعمالها عن طريق الزواج، ومن ناحية أخرى منع استخدامها في غير إطار الزواج، واستنكر الرهبانية أيضا لأنها تكبت هذه النزعة الطبعية للأبد وتضيع الهدف الذي من أجله أودِعت فطرة الإنسان هذه العاطفة أي الرغبة في بقاء النسل. فلو عمل الناس جميعا على الرهبانية لطُويت صفحة الدنيا في أيام قلائل. وقال تعالى أيضا إن القضاء على المتطلبات الطبعية مستحيل، لأن الحقيقة لا تُمحى بالإرادة والخيال فقط.

هنا يمكن أن ينشأ سؤال: ما الذي يجب أن يفعله أولئك الذين لا يقدرون على النكاح؟ فيقول الإسلام: عليهم أن يكبتوا أهواءهم مؤقتا ولكن لا يجوز أن يقضوا على هذه الرغبة قضاء نهائيا لأن ذلك يبطل غاية الخلق.

تأملوا الآن، هل من دين سوى الإسلام أوصل هذه الرغبة الموجودة في أدنى أنواع الحيوانات والحشرات أيضا والتي هي نزعة طبعية، إلى أعلى مراتب الأخلاق المبنية على مسائل فلسفية دقيقة؟

---

[1] سورة النور: ٣٤

[2] سورة الحديد: ٢٨

وهناك نزعة طبعية أخرى في الإنسان وهي رغبته في التملك والتصرف، وبناء عليها يبذل أمواله أو يمسكها. ولكن الإسلام وضع حدودا لهذه النزعة الطبعية أيضا. فالحد الأول هو: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[1]، أي يجب أن تنفقوا من أموال طاهرة كسبتموها بأيديكم ولا تتصرفوا في أموال الآخرين لتسرفوها كما تشاؤون. والحد الثاني هو: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[2]، أي أولا: يجب أن تؤدوا من أموالكم حقوق الذين كُلِّفتم برعايتهم من الأقارب، وفي ذلك إيعاز إلى أن كفالة الأقارب واجبة على الكبار منهم. ثانيا: يجب أن تنفقوا أموالكم من أجل الفقراء والمساكين أيضا أي تعطوهم نصيبا من أموالكم.

ثالثا: قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ والتبذير في اللغة: نثر البذور أو نشرها، والامتحان. فمعنى ذلك أنكم يجب ألا تتطلعوا عند الإنفاق إلى أن يعاملكم الآخرون بالمثل، فمثلا يتوقع الفلاح عند نثره البذور في الحقل أنها ستنمو وتزدهر ثم يحصدها. ولا تبذِّروا أموالكم أي لا تهلكوها كلها فتجلسوا صفر اليدين، ولا تنفقوا كل شيء على أنفسكم دون أن تنفقوها على الفقراء والمساكين والأقارب. ثم إذا أنفقتموها عليهم فلا توقعوهم في الامتحان والابتلاء، أي يجب ألا يتعرضوا للمشاكل بدلا من الاستفادة من هذه الأموال كأن يصبحوا كسالى أو يتعودوا على السؤال أو يصيروا من المبذرين. ثم أعطى تعليما آخر بالنسبة إلى الإنفاق فقال: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[3]، أي في أموال الأثرياء نصيب لمن لا يقدر على الكلام ولا يستطيع أن يبوح بمشاكله مثل الدواب التي لا تستطيع أن تسد حاجتها بنفسها. لذا يجب أن

---

[1] سورة البقرة: ٢٦٨

[2] سورة الإسراء: ٢٧

[3] سورة الذاريات: ٢٠

تقطعوا نصيبا من أموالكم للدواب أيضا من أجل رعايتها إذا مرضت مـــثلا، وكذلك يجب رعاية الدواب الأهلية وإراحتها بشكل خاص.

كذلك قد أعطى الإسلام تعليما صادقا- منـــزَّهًا عن الإفراط والتفـــريط ومدعاة لخلق الطهارة الحقيقية- عن الصبر والشكر والإحسان والصدق والثقة والاعتدال في الأمور والوفاء وحفظ السر وقضاء حاجات الناس والإصـــلاح بينهم، والخوف والرجاء والقناعة والإيثار والمواساة والحِلم والإفـــادة والحيـــاء والوفاء بالوعد ولقاء الناس بوجه بشوش والوقار وإكرام الضيف وعيادة المرضى والأمانة والحزن والغيبة والوشاية والكذب وإيذاء الآخرين والتجسس واستراق السمع وقراءة رسائل الآخرين وإفشاء عيوبهم والخديعة والإيذاء بالمنِّ والتمـــرد وإلحاق الإيذاء الجسدي بهم والرياء والسمعة والهذيان واللغو بالأيمان والمداهنة والسرقة والقتل والظلم والخديعة في التجارة والتدخل في ما لا يعني المرء ورعاية اليتامى والأرامل والجبن وغيرها من الأمور المتعلقة بالأخلاق الـــتي لا يمكـــن الخوض في تفاصيلها هنا لضيق المجال.

باختصار، فقد حوّل الإسلام الغرائز الطبعية إلى أخلاق فاضـــلة بوضـــع حدود لها، وهذه النقطة لم يدركها ولم يقدمها- سوى الإســـلام- أي مـــن الأديان القديمة أو حتى الحديثة التي، وإن أُسِّست مع وجود القرآن الكريم، إلا أنها ظلت محرومة من المزايا الموجودة في القرآن الكريم. إني متأسف جدا لأني لا أستطيع أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع وإلا فالحقيقة أن الإسلام قد وضع كل غريزة طبعية تحت إرادة الإنسان وعقله وهكذا أنشأ تعليم الأخـــلاق، ولم يسمِّ الغرائز الطبعية أو جانبا من جوانبها أخلاقا ثم ركَّز عليها فقط مثل بقيـــة الأديان.

الحق أن الإسلام حلّ سؤالا معقّدا يساور الأذهان عن الأخلاق الفاضلة، ولا يزال يساورها وهو: ما هو تعريف الأخلاق؟ لأن الإسلام يقـــول بـــأن

الأخلاق تعني التوفيق بين جميع الغرائز الطبعية، كما أن الحضارة اسم آخر للتصالح بين بني البشر. التعليم الذي يعطي الحرية لجميع الغرائز الطبعية أن تعمل في حدود يضعها لها حتى لا تطغى واحدة على أخرى، هو الذي يستحق أن يُدعَى تعليما أخلاقيًا. أي يجب ألا تدخل النقمة في حدود الرأفة ولا الحب في حدود الكراهية أو العكس.

باختصار، يجب أن تعمل كل هذه الغرائز الطبعية في دائرتها كدوران النجوم في أفلاكها، وألا يعترض واحد منها طريق الآخر بل حيثما بدأ مجال الآخر يتوقف الأول فورا. فلو عُدّ ذهن الإنسان حكومةً لكانت الغرائز الطبعية أناسا قاطنين فيها، والأخلاق هي تلك القوانين التي تضمن إقامة الأمن فيها. فما أدقّه وما أروعه من تعريف! وما أوضحه من بيان!!

مدارج الأخلاق

والآن أتناول السؤال الثاني من الهدف الثاني، وأبين ما هي المدارج المختلفة للأخلاق التي بيّنها الإسلام.

هذه المسألة، كما هو معروف لدى الجميع، ضرورية للالتزام بالأخلاق ضرورة التدرُّج في الصفوف المدرسية من أجل التعليم، ولولا تدرُّج التعليم في المدارس والكليات لحُرم كثير من الناس من التعليم أصلا لعدم قدرتهم الحصول على ما يجب تحصيله في دراستهم، ولثبطت همم كثير منهم أيضا وظنوا أن الدراسة إلى درجة معينة مستحيلة عليهم. فالتدريج في التعليم ليس مفيدا للمعلمين والمشرفين على التعليم فقط بل فيه فوائد جمة للطلاب أيضا. وينطبق المبدأ نفسه على الأخلاق بل إن كل تعليم يخاطب بني الإنسان لا بد أن يُقسَّم إلى مدارج مختلفة حتى يتمكن أصحاب القدرات المختلفة وذوو الطبائع المختلفة من الاستفادة منه. وإذا كان التعليم من نوع لا يقدر على الاستفادة منه إلا

الشريحة العليا من الناس لحرمت منه الشريحة الدنيا والوسطى، ولو روعيتْ فيه الشريحة الوسطى لحرمت الشريحة الدنيا من الاستفادة منه، ومن ناحية ثانية لن ترغب فيه الشريحة العليا أيضا. ولو تمت فيه مراعاة الشريحة الدنيا لما كانت نافعة للشريحة الوسطى والعليا. إن لم يراعَ الترتيب والتدريج فيه لأمكن أن تستفيد منه الشريحة العليا إلى حد ما ولكن سوف يحرم منه بقية الناس حتما وتثبط هممهم. وإذا كان التعليم فكريا وللرياء فقط لما أمكن استخلاص أية فائدة منه أيضا، فيكون هذا التعليم جميلا ومفيدا لإلقاء الخطابات من على المنصات ولكنه لن يفيد بني البشر على صعيد الواقع.

وبعد الإثبات أن الدنيا ليست بحاجة إلى التعليم الأخلاقي فقط بل إلى التعليم العملي والتدريجي الذي من شأنه أن يوصل الإنسان إلى الكمال. أذكر الآن مدارج الأخلاق التي بينها الإسلام سواء كانت سيئة أو حسنة.

اعلموا أن الإسلام أعطى نوعين من التعليم عن الأخلاق؛ المجمل والمفصَّل. ففي التعليم المجمل قسَّم الأخلاق السيئة والحسنة إلى مدارج تحوي جميع أنواع الأخلاق. وبهذا التقسيم يستطيع كل إنسان أن يجد له طريقا، ويستطيع أن يتجنب السيئات ويتمسك بالحسنات. وعلاوة على هذا التعليم المجمل هناك تعليم مفصل أيضا فُصِّل فيه كل أمر على حدة وبيّن ترتيب الأخلاق كلها.

لقد ورد التعليم المبدئي في القرآن الكريم عن مدارج الأخلاق في آية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، أي يأمركم الله تعالى بالعدل بين الناس والإحسان إليهم ومعاملتهم الحسنة كما تعاملون الأقارب، وينهاكم عن السيئات التي تتعلق بنفس الإنسان وتكون ظاهرة فيستاء منها الآخرون،

[1] سورة النحل: ٩١

وينهاكم أيضا عن السيئات التي تؤذي الآخرين عمليا، وينصحكم لتقوموا بالأعمال الحسنة حتى تتركوا سمعةً طيبةً في هذا العالم.

ففي هذه الآية ذُكِرت ثلاثة مدارج للحسنات والسيئات. والحق أن جميع الحسنات والسيئات تقع تحت هذه المدارج الثلاثة. الدرجة الأولى للحسنات هي العدل أي المعاملة المتساوية، بمعنى أنْ يعامِل الإنسانُ الآخرين بمثل ما يعاملونه من معاملة حسنة أو غيرها. وكذلك يجب أن يكون عادلا في ظنه بهم أيضا كما يتوقع منهم أن يظنوا به. باختصار يجب أن يتمسك بالمساواة في كل الأمور فلا يعامل الآخرين بالسيئة في حين يعاملونه بالحسنى. كذلك لا يجوز أن يتوقع منهم المعاملة بالحسنى وهو ينوي بهم السوء.

وليكن معلوما أيضا أن المعاملات المتبادلة بين الناس المتعلقة بالمنكرات مثل بذاءة الكلام والفحش والكذب وغيرها لا تندرج تحت مفهوم العدل بل هي خارجة عن مفاهيمه؛ فبحسب مضمون العدل يحق للمرء أن يعامل غيره ويعاقبه بمثل ما عومل ولكن إذا قام غيره بعمل أو تصرف يندرج تحت قائمة الفواحش فلا يجوز له أن يرُدَّ عليه بالفحشاء لأن ارتكاب الفحشاء لا يجوز بأي حال إذ إن الفحش في حد ذاته سم زعاف. والمعلوم أن تجرع الإنسان السم مقابل السم يؤذيه إيذاء مضاعفا. وإن تصرفا كهذا ليس انتقاما، بل هو جهل بعينه عمليا.

الدرجة الثانية للحسنات عند الإسلام هي الإحسان. أي أن يحاول المرء أن يعامل غيره بأحسن مما عومل به سواء كان ذلك في الأمور المالية أو الجسدية أو العلمية. وإذا عامله أحد بسوء فليعفُ عنه قدر الإمكان إلا إذا كان العفو يؤدي إلى الفتنة والفساد. وهذه الدرجة أعلى من سابقتها. ولا يستطيع أحد أن يترقى إلى هذه الدرجة من الحسنة إلا إذا كان قد اجتاز درجة العدل، وعوّد نفسه

على ذلك وإلا فلن يحدث في طبيعته إلا تغير سطحي فحسب، ويسقط إلى درجة سفلى مرة أخرى نتيجة غفلة بسيطة.

الدرجة الثالثة للحسنات هي "إيتاء ذي القربى"، أي أن يعامل المرء الناس بالحسنى مع أنه لا يتوقع أن يعاملوه بها. ومثال ذلك معاملة الأم لطفلها أو معاملة الأب لابنه أو معاملة الأخ لأخيه؛ إذ يعتبرون هذه المعاملة واجبا طبيعيا عليهم، فلا يتوقع الأخ من أخيه أن يجزيه عليها، كذلك لو كان الأب أو الأم بالغَين من العمر ستين أو سبعين سنة وكان الولد ذا سنتين أو ثلاث سنوات فقط، فمع ذلك يخدم الأبوان الولدَ مثل ما كان متوقعا منهما في سن شبابهما بل يخدمانه أكثر من ذلك أيضا، مع أنهما يعرفان جيدا أن الولد لن يستطيع أن يخدمهما لأنهما يكونان قد ماتا قبل أن يبلغ أشده وقبل أن يقدر على فعل شيء لهما. فمعاملتهما هذه تكون ناتجة عن حبهما الطبعي لولدهما وما يقومان به من معاملته الحسنة لا يعتبرانه منَّة عليه بل واجبا عليهما. ولو قيل لهما لماذا تحسنان إليه إلى هذا الحد وتمنُّون عليه؟ لعلهما يتساءلان مستغرِبَين: أية منة هذه؟ إننا فقط نربي ولدنا. لذلك إن حالة معاملة الآباء والأقارب القريبين تكون أعلى من الإحسان بكثير. فالإنسان عندما يُحسن إلى الآخرين يكون لديه شعور بأنه عمل عملا حسنا، ولكن عند إحسانه إلى الأقارب لا يخطر بباله قط أنه عمل عملا حسنا، بل يبدو له أنه بعمله هذا يريح نفسه ويشعر بالمتعة والسرور. الدرجة الثالثة من الحسنة أرفع وأسمى من غيرها. ويتقدم الإنسان فيها إلى درجة شعوره بلذة ومتعة لدى تخلُّقه بالأخلاق الحسنة، فكأنه يحسن إلى نفسه من خلال إحسانه إلى الآخرين. فمثله كمثل الذين يُرزَقون بالأولاد فلا يشعرون أن عبئا ما قد وقع عليهم بسببهم بل يفرحون ويحسبون ذلك فضل الله عليهم. فهؤلاء الناس ينذرون أنفسهم من أجل الآخرين ويتأذون بمعاناتهم ويسعدون بسعادتهم، ومع ذلك لا يشعرون أنهم قد أحسنوا إليهم بل يكونون ممتنِّين

ويشعرون أن الله تعالى قد أنعم عليهم إذ وجدوا فرصة لفعل ذلك، ويتمنون لو أنهم نالوا فرصة أكبر للقيام بالأعمال الحسنة في هذا المجال كما يتمنى الآباء، وأنهم لو كان بإمكانهم أن يخدموا أولادهم أكثر لفعلوا.

ومقابل هذه المدارج الثلاثة للحسنات هناك ثلاثة مدارج للسيئات. فهناك الفحش مقابل العدل. ومعنى الفحش هو السيئة. وإذا جاءت كلمة "الفحش" مقرونة مع كلمة "المنكر" كان معناها: السيئة الخفية التي لا يبدو تأثيرها في الظاهر، مثل خبث الطوية والنوايا. فهذه هي الدرجة الأولى من السيئة كما أن العدل يحتل الدرجة الأولى في قائمة الحسنات. عندما يتطرق الفساد إلى الإنسان بسبب الصحبة السيئة أو تأثره بالتعليمات السيئة أو غلبة الصفات البهيمية عليه فإن التأثير الأول لهذا الفساد يقع على القلب؛ فتبدأ الأفكار السيئة بالنشوء فيه، وتنشأ الرغبة في السيئة ولكن الفطرة تتغلب عليها. أما إذا تعاظمت الأفكار السيئة فإنها تغلبُ في نهاية المطاف فتتخذ السيئة من القلب معقلًا.

ثم تبدأ الدرجة الثانية من السيئة، ويشرع الإنسان في الأعمال السيئة التي يراها الناس ويكرهونها وتشق على طبائعهم. ومعظم هذه الأعمال تكون دالة على خبثه الشخصي، مثل الكذب، والهراء وما شابههما من الأعمال. غير أنه في هذه الحالة يرتكب بعض السيئات فقط، ويحذر القيام بسيئات كثيرة أخرى ولا يتجاسر عليها، ومع أنه يرتكب بعض السيئات على مرأى من الناس ولكنه يخجل في قلبه، وإذا ذُكِّر بها اعترف بشناعتها.

وحين يطمئن صاحبها لهذه الحالة ولا ينتبه إلى إصلاحها يبلغ الدرجة الثالثة من السيئات التي تسمى "البغي"، أي إلحاق الضرر بالناس والخروج السافر على القيم الأخلاقية.

من معاني "البغي"، التمرد والعدوان. والمراد من هذه الدرجة أن الواصل إليها يتمرد على القيم الأخلاقية، ويرمي نير الالتزام بها بعيدا عن عنقه ويفتخر بحالته ويتلذذ بها ولا تؤثر في قلبه لومة لائم.

كم سهّل الإسلامُ ببيان هذه المدارج أمر الإصلاح للراغبين فيه بحيث يستطيع كل إنسان أن يقدِّر بكل سهولة حالته الأخلاقية، سيئة كانت أم حسنة، ثم يستطيع أن يفكر في إصلاحها كما يستطيع أن يخطو نحو التقدم والرقي. ولا يشق على أحد- أيّا كانت حالته- السعي لنيلها ولا ييأس منها. فمثلا، إذا كان شخص ما قد تقدم في الذنوب لدرجة لم يبق في قلبه أدنى إحساس بالقيم الأخلاقية، وقيل له مثلا: كُن صالحا لتكون الحسنات جزءا لا يتجزأ منك، وانهمكْ في خير الناس ليل نهارَ؛ فلا بد أن يستغرب من هذا الأمر كثيرًا وييأس منه أيضا، فيضطرب بمجرد سماع هذا الكلام ويقنط من تحقيق المراد. ولكن لو قلنا له: كل من يخطو خطوة باتجاه الحسنات يُعدُّ من الصالحين، فإن كنتَ لا تستطيع أن تترك السيئات فلتشعر على الأقل أنك ترتكب سيئة ولا تفتخر بتصرفاتك؛ فيكون هذا الهدف سهل المنال له، فيعملُ على ذلك بقوة وشدة أكثر. وإذا شعر في قلبه بالندم والخجل من الذنوب لأمكننا القول إنه نال درجة في الحسنات لأن ترْكَ الكبائر أيضا حسنة. والقوة الخارقة التي ينالها بسبب حدوث هذا التغير في نفسه يمكننا أن نستعين بها لدفعه إلى الأمام، فنقول له: إذا كنت لا تستطيع أن تكسب الحسنات حاليا فعليك أن تنزه أعمالك من السيئات على الأقل، فقد تنشأ في قلبك أفكار سيئة في هذه المرحلة، ولكن لا تعملْ بها وحاوِل ألا تصدر منك أعمال سيئة على مرأى من الناس حتى لا يتأذوا من مشاهدة أعمالك الشائنة. وهذا سيكون أسهل عليه مما سبق أيضا. مع أن قلبه هو منشأ الأفكار السيئة إلى هذا الحين ولكن مما لا شك فيه أننا نعتبره ثابتا على درجة من الحسنات لأنه متقدم إلى الحسنات متخليًا عن

قسم كبير من السيئات. ثم ننصحه باتخاذ الخطوة التالية ونقول له: عليك أن تحاول تطهير قلبك أيضا من الأدران والقذارة. ومما لا شك فيه أن اتخاذ هذه الخطوة يكون أسهل عليه من الخطوات السابقة وسينجح في إنجاز هذه المهمة. فيصبح قلبه نظيفًا مثل طفل صغير، أو مثل مرآة لم يُرسَم عليها نقش بعد. عندها نوجهه إلى الحصول على مقام العدل، وهكذا يصل رويدا رويدا إلى مقام يناسب مؤهلاته وقدراته. فلو أهملتم هذا الأسلوب لذهبت خطتكم للإصلاح سدى. والنصيحة التي تُسدى دون مراعاة الترتيب والانتباه إلى التدريج لن تسفر عن نتيجة أبدا، ومثلها كطالب نحاول تدريسه منهاج الماجستير مع أنه لم يتعلم الحروف الأبجدية بعد، أو نطلب منه أن يحفظ قاموسا كبيرا ثم نتوقع منه أن يكون قد تعلّم كل شيء بدراسة القاموس. والحق أنه لن يتعلم شيئا بهذه الطريقة، فيمكنه أن يحفظ بعض المصطلحات مثل الببغاء ولكنها لن تؤثر في قلبه شيئا، ولن تكون أخلاقه ناتجة عن ثقافته، بل تكون نتيجة تأثير البيئة المحيطة به التي يعيش فيها.

القرآن الكريم يركّز على الترتيب والتدريج كثيرا ويقول بأنه لم يكن هناك نبي إلا وقد علّم: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[1]، والرباني هو مَن يعلِّم العلوم البسيطة أولا ويراعي الترتيب والتدريج في تعليمه. إذًا، فمن الضروري للنبي أن يعلِّم أمته أن ينتبهوا إلى أحوال الناس وطبائعهم عند تقديمهم العلاج الروحاني لهم. ويحاولوا بالحكمة والموعظة الحسنة تخليصهم من عاداتهم وتقاليدهم الراسخة، ويراعوا الترتيب والتدريج في تعليمهم الناس علوما يجهلونها.

اعلموا أن تعلّم المسائل المختلفة بهذه الطريقة سهل على كل شخص. ولكن ليس المراد من التعليم أن يخفي المعلمُ بعض العلوم عن بعض الناس، بل المراد هو ترغيب التلميذ في العمل بما تعلّم ليبقى هدفه أمام عينيه دائما، ولكي

---
[1] سورة آل عمران: ٨٠

تبقى العزيمة قوية دائما ويكون النجاح الأول مدعاة لدفعه إلى الدرجة التالية للإصلاح والنجاح. فمثلا كل طالب يعرف طول مدة الدراسة ولكن بسبب التدريج في المناهج والترتيب في الصفوف وبسبب ظهور نتائج مساعيه بفواصل متقاربة تبقى عزيمتهم قوية ولا يثقلهم عبء العمل ويشعرون أنهم في طور التقدم على الدوام.

لقد قلت من قبل إن الإسلام يعطي تعليما مفصلا عن الأخلاق بالإضافة إلى التعليم المجمل، ويبين الأخلاق السيئة والحسنة ويفصّل أقسامها أيضا لكي يسهل على الناس ممارستها أو التخلي عنها. ولكنني سوف أكتفي بهذا القدر من الترتيب الإجمالي لضيق المجال لأن في ذلك كفاية لعاقل يبتغي الاطلاع على مزايا الإسلام.

سبب تسمية الأخلاق حسنة أو سيئة

يعطي الإسلام في هذا المجال أيضا تعليما مجملا ومفصلا. التعليم المجمل هو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، أي خلقت كبراء الناس وعامتهم ليتخلَّقوا بصفاتي. فالهدف الأول لنيل الأخلاق الفاضلة هو أنه لا يمكن للإنسان بدونها إنشاء العلاقة مع الله، مصدر القدوسية، وبدون هذه العلاقة لا يمكن اعتبار حياة الإنسان حياةً أصلا. والله تعالى لا يحب إنسانا شريرا وسيّئ الخلق، بل يريد أن يخلق الناسُ صفاته الطاهرة في نفوسهم ويصيروا مثله حتى ينالوا قربه. فيقول ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[2]، أي لقد خلقنا في الأرض كل شيءٍ حسنٍ؛ وخلقنا فيها الناس لنرى أيهم يكسب أعمالا حسنة، أي أيهم ينصبغ- وإلى أي مدى

[1] سورة الذاريات: ٥٧

[2] سورة الكهف: ٨

ينصبغ- بصبغة صفات الله تعالى. فالسبب الحقيقي في تسمية بعض الأخلاق أخلاقا حسنة هو أنها تكون منصبغة بصبغة الله تعالى وصفاته. كذلك السبب في تسمية بعض الأخلاق سيئةً هو أنها تتنافى مع صفات الله ﷻ. ومما لا شك فيه أن الذي لا ينال نصيبا من النور يكون مظلما، وبقدر ما يكون بعيدا عن النور يغشاه الظلام بالقدر نفسه. وبالإضافة إلى هذا التعليم المجمل فقد بيّن الإسلام أوجهًا مفصلة أيضا عن الأخلاق المختلفة وبها كشف حالة الناس الحسنة أو السيئة لكي يرغبوا في الأخلاق الحسنة وينفروا من الأخلاق السيئة. أذكر فيما يلي بعضا من تلك الأوامر:

قلتُ في بيان الأخلاق الحسنة بأن منها خُلق "الرأفة"، واستخدامه في محله يسمّى العفو. وبالإضافة إلى الأسباب المذكورة سابقا لهذا الخُلق هناك أسباب أخرى يتناولها القرآن الكريم ويقول: ﴿اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

ما أروعه من سبب وما أشده دفعا على الحماس!! الإنسان يعاقب المعتدي ظنا منه أنه لو لم يعاقبه لألحق به ضررا أكثر؛ أي إنه يعاقب المعتدي ليُنقذ نفسه أو غيره من ضرره. فيقول الله تعالى: إليكم تعليم العفو، فلو كان الإصلاح ممكنا بالعفو فاعفوا عن المعتدين، وإن عملتم به لكان نفعه أكثر مما تتوقعونه لو عاقبتم. وإذا كانت النتيجة المرجوة من العقاب هو تجنب الضرر فمن المتوقع أن ينفع العفو صاحبه- إذا كان في محله- لأنه من الممكن جدا أن يصبح المعفو عنه صديقا ونصيرا له متأثرا بمعاملته الحسنة.

كذلك يقول الله تعالى عن الإحسان وحسن معاملة الآخرين وإعانتهم: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[2]، أي عامل الناس بالحسنى وشاركهم في

---

[1] سورة فصّلت: ٣٥

[2] سورة القصص: ٧٨

أموالك وعلمك ونفوذك لأن الله تعالى قد أحسن إليك؛ أي أنَّ القوى والقدرات التي كسبتَ بها هذه الأشياء، كذلك ما نلتَ به من النعم المذكورة، هي خَلق الله تعالى، وقد أُعطِيتَها إحسانا من الله، لذا يجب أن تحسن إلى الآخرين كما أُحسِن إليك. والمراد من ذلك أن الأرض والمعادن والأشياء الأخرى التي تساعد الإنسان للحصول على العلم أو المال كانت موجودة قبل مجيئه إلى الوجود، ولجميع بني البشر فيها حق؛ فإن وفّق الله تعالى أحدا للاستفادة منها بشكل خاص فمن واجبه إزاء ذلك أن يشارك في هذه النعم بني جلدته أيضا.

كذلك يوضح الله تعالى الحكمة من وراء منع الظلم، ويبين أن الظلم يُنتج ظلما ويؤدي إلى دمار الجميع في نهاية المطاف، فيقول: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[1]، أي أن الله يمنعكم من الظلم لأنه يتسبب في نشر الفساد في الأرض بعد استقرار الأمن والسلام فيها. أي من المحال أن ينتج الظلم أمنًا واستقرارا. وإذا كنتم تظلمون بغية توسيع نطاق سلطتكم فلن يتحقق مرادكم أبدا لأن الظلم يخلق ثورة في الطبائع فيهبّ الناس للمقاومة، وإن لم يستطيعوا ذلك في الظاهر لخططوا ودبّروا ضد الظالم سرا، فيتلاشى الأمن الذي هو مصدر القوة كلها.

يقول النبي ﷺ عن الحسد: "إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ"[2]؛ أي لا تتحاسدوا لأن الحسد يأكل طمأنينة قلب الإنسان كما تأكل النار العشب اليابس. أي تظنون شخصا آخر يتمتع بطمأنينة أكثر منكم فتحسدونه عليها. ولكنكم بهذه الطريقة تفسدون أمنكم

[1] سورة الأعراف: ٥٦-٥٧

[2] سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الحسد.

وطمأنينتكم وتلقون أنفسكم في المعاناة. فما الفائدة من العمل الذي يلقيكم في الأذى أكثر.

ثم قال ﷻ عن تحقير الناس: ﴿لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾[1]، أي لا يحتقر قوم قوما آخرين لأن الدهر قُلَّب وبرقُه خُلَّب، فإذا كان قوم ما قويا اليوم يمكن أن يسبقه قوم آخر غدا، وإذا كانت عائلة ما حائزة على رُقيّ اليوم يمكن أن يحوزه غيرها في المستقبل أكثر منها. فلو احتقر قوم قوما آخرين ثم حاز الأخير قوة وسلطة لحاول إذلال الأول بسبب الضغائن السابقة. وهكذا ستبقى سلسلة الفساد جارية بشكل غريب إلى ما لا نهاية مع أن الفعل الذي يسفر عن هذه النتيجة يكون لغوا وعبثا بكل المعايير. ولما كانت أيام الرقي والتقدم دُولٌ بين الأقوام والأمم، فلا يحق لقوم أن يحتقر أقواما آخرين.

وقال عن الزنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾[2]. أولا: إن هذا العمل فحش وينجِّس القلب لأن الشعور بالجريمة والغضب ينشأ في القلب. وثانيا: إنه طريق خاطئ وغير شرعي لنيل الهدف الذي من أجله تقام العلاقات بين الرجل والمرأة، لأن الهدف الحقيقي من الشهوة هو بقاء النسل. وبما أن بقاء النسل وحمايته أمر لا بد منه لذا فقد خُلقت في الإنسان هذه الرغبة التي تُوجهه إلى الهدف الحقيقي. والعلاقات غير الشرعية تقضي على هذا الهدف قضاء نهائيا، لأنها إما أنْ تقضي على النسل أو تجعله مشبوهًا. فباختصار، لا يمكن نيل هذا الهدف النبيل عن طريق الزنا على الإطلاق، ثم لو افترضنا جدلا أنه ممكن بهذه الطريقة أيضا في حين من الأحيان، فلماذا يختار الإنسان طريقا معوجا أصلا ضاربا بالصراط المستقيم عرض الحائط؟

---

[1] سورة الحجرات: ١٢

[2] سورة الإسراء: ٣٣

ثم قال تعالى عن البخل: ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾[1]، أي الإنسان يلحق الضرر بنفسه نتيجة البخل، فالبخيل لا يأكل طعاما جيدا ولا يلبس لباسا جيدا ولا يسكن بيتا جيدا بل يصب جل اهتمامه على اكتناز المال فقط. ولا يجني من كنـــز المال إلا القلق الدائم لحماية ما جمعه من الأموال والثروة الهائلة. ولو تأملنا جيدا لوجدنا أن البخلاء إنما يوقعون أنفسهم في الإيذاء دائما وتصير أموالهم وبالا عليهم.

وقد بيّن الإسلام الحِكَمَ أيضا من وراء كل أوامره وفتح للناس أبواب العمل بها على مصراعيها. ولكن لا يمكنني أن أبين تفاصيل جميع الأوامر هنا بل أكتفي بهذه الأمثلة فقط وأنتقل الآن إلى السؤال الرابع.

طرق التحلي بالأخلاق الحسنة وتجنب الأخلاق السيئة

من البديهي تماما أن مهمة الدين لا تقتصر على أن يبين الأخلاق التي يتحتم على الإنسان اجتنابها أو التي يجب عليه أن يتحلى بها، بل من واجبه أيضا أن يهيِّئ أو يخبر عن أسباب تساعد الإنسان على ترك الأخلاق السيئة والتحلي بالأخلاق الفاضلة، لأن جهودنا تذهب أدراج الرياح بدون نيل هذا الهدف ويبقى بحثنا ناقصا. أيًّا كان جواب أصحاب الديانات الأخرى على هذا السؤال، غير أنني أعلن بكل سرور نيابة عن الأحمدية، أي الإسلام الحقيقي، أن الإسلام قد حقق هذا الهدف بأسلوب رائع جدا.

الطريق الأول الذي يقدّمه الإسلام لإصلاح الأخلاق هو ظهور صفات الله، وبدونه لا يمكن للإنسان أن يتحلى بالأخلاق الكاملة، لأنه بحاجة إلى الأسوة لإصلاح أموره؛ فبواسطة الأسوة أو المثال يستطيع الإنسان أن يتعلم جيدا، لأن العلم المكتوب في الكتب وحده لا ينفع شيئا. ولولا الأمثال لفُقدت

[1] سورة محمد: ٣٩

من الدنيا العلومُ كلها. لا يستطيع أحد أن يتعلم الطب أو الهندسة أو الفيزياء وغيرها بواسطة الكتب فحسب، إذ لا بد من تعلّمها من النماذج والناس الشارحين حتى يرى الطالب نموذجهم ويسألهم ليدرك دقائق تلك العلوم وخفاياها. والمبدأ نفسه ينطبق على الأخلاق، إذ لا يستطيع الإنسان أن يتعلم الأخلاق ما لم تكن أمامه أسوة كاملة، وما لم تتحقق هذه النماذج بصورة دائمة. ثم يجب أن تظهر هذه النماذج من البشر لأن الذي ليس بشرا لا يمكن أن يكون أسوة لنا، فالإنسان لا يطمئن قلبه بعمل يقوم به غير بني جنسه. من الواضح أن الشجرة لا يمكن أن تعمل عمل الحجر؛ فالإنسان لا يتشجع على التأسي بأسوة غير بني جنسه.

باختصار، إن أسوتنا يجب أن تكون من بني الإنسان ويجب أن تظهر هذه الأسوة بالتكرار حتى يتسنى لجميع الأجيال التأسي بها في أعمالهم. الإسلام يدّعي بظهورها بالتكرار فيقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .

هناك أسوة أخرى أيضا مع أنها أقل درجة من سابقتها ولكنها مع ذلك أسوة حسنة، يخبرنا النبي ﷺ أنها ستظهر في الإسلام في كل قرن فيقول: "إِنَّ اللَّه يَبْعَث لِهَذِهِ الْأَمَة عَلَى رَأْس كُلّ مِائَة سَنَة مَنْ يُجَدِّد لَهَا دِينهَا"[2]؛ أي التعاليم الباطلة التي سيدُسُّها الناس في الإسلام على مر العصور سوف يزيلها هؤلاء المجددون وينـــزهون الإسلام عنها. فقد ظهر هؤلاء المجددون في الإسلام دائما، وفي العصر الراهن حين تفاقم الظلام بُعث لحماية الإسلام وأسوة النبي ﷺ نبيٌّ أحيا ألوفا بل مئات الألوف من الناس بأسوته.

---

[1] سورة الأعراف: ٣٦

[2] سنن أبي داود كتاب الملاحم، باب ما يُذكر في قرن المائة.

وإذا تأملنا في الموضوع أكثر لوجدنا أن هذا هو الطريق الأفضل والأكمل، أما الطرق الأخرى فقد تكون مساعدة له ولكن لا يمكن أن تقوم مقامه لأن تأثيره قطعي ويقيني. أما فيما يتعلق بتأثيرات بقية الطرق فهناك إمكانية لتتطرق الأخطاء إليها لأن أصحابها لا يكونون كاملين في حد ذاتهم. وبما أن إيجاد هذه الطريقة ليس في وسع الإنسان لذا فقد بيّن الإسلام طرقا أخرى أيضا وبواسطتها يمكن إنشاء الأخلاق الفاضلة وتجنب الرذيلة، وفيما يلي أذكر بعضها:

الطريقة الثانية التي بينها الإسلام بغية تثبيت الإنسان على الأخلاق الفاضلة هي تعليمه الأخلاق بما يناسبُ وضعه الطبيعي، فيتمكن الناس من كل طبقة ومستوى أن يعملوا به. وبما أنني قد بيّنتُ هذا الأمر سلفا بشيء من التفصيل فلا أرى حاجة إلى الخوض في شرحه هنا.

والطريقة الثالثة التي اختارها الإسلام هي أنه بيّن الأوجه العلمية والعقلية للتحلي بالأخلاق الفاضلة وترك الرذيلة حتى يكتمل العلم وينشأ في القلوب حماس صادق للتمسك بالأخلاق الفاضلة، وقد ذُكر هذا الأمر أيضا.

الطريقة الرابعة التي اقترحها الإسلام لإصلاح الأخلاق هي إحداث التغيير في وِجهة نظر أصحابها واستبدال يأسهم بالأمل. نرى أن كثيرا من السيئات تصدر من الإنسان لأنه قد ترسخ في ذهنه أنه لا يستطيع أن يتجنب الذنوب بحال من الأحوال. والذين يقدمون هذه الفكرة لأجيالهم هم أعداء لهم إذ يوقعونهم في التهلكة بأيديهم. ما لم يوقن الإنسان أنه قادر على نيل هدف معين لا يجتهد من أجله حق الاجتهاد. والأقوام التي تظن أن آباءهم قد اكتشفوا كل شيء فإنهم لا يقدرون على إيجاد أو اكتشاف شيء جديد، والأقوام التي تزعم أنها لا تقدر على أي تقدم فإنها لا تقدر على أن تخطو خطوة باتجاهه. كذلك الذين يترسخ في أذهانهم أنهم ضعفاء ولا يقدرون على التحلي بالأخلاق

الفاضلة، ويزعمون أنهم مجبولون على السيئة ولا يستطيعون التغلب عليها يهلكون أنفسهم بأيديهم. لقد ركّز رسول الله ﷺ على هذا الموضوع كثيرا وأمر ألا يُدفَع أحدٌ إلى اليأس بأية طريقة، فيقول ﷺ: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ"[1]؛ أي ليس هناك مصيبة أو آفة مادية أكبر من أن تترسخ في ذهن الإنسان فكرة أن باب التقدم مسدود عليه، ولا بد له الآن من الاستناد إلى الآخرين والاعتماد عليهم. فما أعظمها من حقيقة! وما أوسعها تأثيرا!!

فملخص القول إن اليأس يمنع الإنسان من المقاومة والمكافحة إذ يصبح عرضة للخيبة والخسران. ولقد استأصل الإسلام هذه الفكرة من جذورها، وبذلك فتح للإنسان بابا للتقدم في الأخلاق الفاضلة على مصراعيه. فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، أي قد خلقنا الإنسان بأعلى القوى وأفضل القدرات فيأتي إلى الدنيا متحليا بقدرات عليا وقابلة للتطور. فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3]، أي نقدم النفس الإنسانية وخلْقها الأمثل وبلا عيب شهادة. وفي خلق الإنسان مزية فريدة بأن الله تعالى أودع فيه خصائص يستطيع بواسطتها أن يميز بين الحسنة والسيئة.

لاحظوا الآن، ما أسمى هذا التعليم! وكم هو منسجم مع الفطرة! مما لا شك فيه أن الإنسان يأتي إلى الدنيا بفطرة طيبة وطاهرة، وتبقى طاهرة ونقية من حيث المبدأ والأصل مهما خالطتها الشوائب والأدران. وهذا يعني أنه لو توجه الإنسان إلى الحسنة لنجح حتما في ردّ العيوب والتمسك بالحسنات. إن هذا التعليم قد غيّر وجهة نظر الإنسان وشد عضده وقوّى عزيمته. أما الأديان

[1] مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من قول: هلك الناس.

[2] سورة التين: ٥

[3] سورة الشمس: ٨-٩

الأخرى سوى الإسلام فإما هي ساكتة صامتة حول هذه القضية أو تُوقِع الإنسان تحت نير الأعباء الثقيلة بحيث يبقى راضخا تحتها بدون أن يكسب الأعمال. وإذا كان هناك تعليم يمكن أن ينجح في إصلاح الأخلاق فإنما هو التعليم الذي يقدمه الإسلام وحده. هذا التعليم وحده يزيل اليأس من قلب الإنسان، وهذا التعليم وحده يُعلي عزيمته ويقويها، لأن الإنسان يعرف من خلال هذا التعليم أنه جاء إلى هذه الدنيا بفطرة سليمة وبريئة من كل عيب ونقيصة لذا عليه أن يحافظ على طهارتها ونزاهتها، ولم يأت إلى الدنيا بفطرة متّسِخة بالقذارة حتى يظن أنه لا بأس لو تراكمت عليها بعض الأوساخ الأخرى.

ولكن هذا التعليم أيضا ليس كافيا. الحق أن قضية الخلق وحدها ليست المعضلة الوحيدة في طريق الإنسان بل يمر بمراحل مختلفة من التخليق بدءًا من ولادته إلى سن الرشد والإدراك، فيلوث في كثير من الأحيان فطرتَه الطيبة بالأطماع والأهواء والرذيلة التي تعترض طريقه. ولو لم يكن لمثل هذا الشخص علاج معين لحرم من الحسنة عددٌ لا بأس به من الناس في الدنيا لأنهم سيظنون أنه إذا ما التصقت بنا الأدران فلا حاجة بنا إلى التطَّهُر. فما لم يُزَلْ هذا العائق لن ينجح الدين في ترسيخ الأخلاق الحسنة ومحو الرذيلة، والإسلام يدعي أنه قادر على إزالة هذا العائق. ولا شك أنه يزيله على أحسن وجه إذ يفتح باب التوبة لرَحْضِ الذنوب السابقة التي صدرت من الإنسان وينقذه من براثن اليأس والقنوط كليا، في حين تغلق الأديان الأخرى هذا الباب. فلو علم الإنسان أن باب الرقي مفتوح أمامه، وأنه لو قام بإصلاح نفسه لأمكنه نيل درجة من الطهارة التي فُرض عليه نيلها؛ ففي هذه الحالة لن يفتّ في عضده بل سيفكر في إصلاح نفسه دائما فينال في نهاية المطاف مرامه بحسب المثل القائل: من جدَّ وجد.

يزعم بعض الناس أن فتح باب التوبة يؤدي إلى فتح باب السيئة أيضا، وأن الإنسان يتشجع بذلك على ارتكاب الرذائل بدلا من التقدم في الأخلاق الفاضلة، لأنه يعرف أنه يستطيع أن يتوب ويتصالح مع الله وقتما يشاء. ولكن هذه الفكرة خاطئة تماما. فلا يمكن أن يخطر ببال أي عاقل أنه يستطيع أن يفعل أي شيء وقتما يشاء لأنه لا يعرف متى يأتي أجله. وإذا وافته المنية بغتة فأنى له أن يجد فرصة للتوبة؟ والحق أن القائلين بذلك لا يدركون حقيقة التوبة. التوبة ليست أمرا هينا وسهلا كما يزعمون، كما ليس من اختيار الإنسان أن يتوب وقتما يشاء. بل التوبة اسم آخر للتغير العظيم الذي يحدث في قلب الإنسان ويجعله رقيقا ويغير ماهيته تماما.

التوبة هي أن يُظهر الإنسان ندامة شديدة على ذنوبه السابقة ويتصالح مع الله صلحا كاملا ويعقد عزما قويا على إصلاح نفسه في المستقبل. فكروا الآن! هل يمكن أن تتولد هذه الحالة في لمح البصر؟ بل إن هذه الحالة تنشأ نتيجة جهود متواصلة ومساعٍ دؤوبة. نعم! يمكن أن يحدث مثل هذا التغيير بغتة أيضا في حالات نادرة فقط، ولكن كلما حدث ذلك كان نتيجة تغيّر عظيم، كما في البراكين، فيغير هوية ذلك الشخص تماما، ولكن مثل هذه التغيّرات ليست في يد الإنسان. لا يمكن أن يتشجع أحد على الذنوب نتيجة التوبة بل التوبة وسيلة يقينية للإصلاح وتدفع اليأس وتحث على السعي الدؤوب وتقوي العزيمةَ. والظن الباطل القائل بأن التوبة تحرض على الذنوب ناتج عن الجهل بالعربية والإعراض عن التعاليم الإسلامية، كما أنه ناتج عن الفكرة الخاطئة القائلة إن المراد من التوبة أن يقول الإنسان بلسانه: يا ربِّ اغفر لي ذنوبي. في حين أن التوبة لا تعني طلب المغفرة من الذنوب بل طلب المغفرة هو الاستغفار. إذاً، التوبة ليست طلب مغفرة الذنوب بل المغفرة هي نتيجةُ التوبة النصوح.

الطريقة الخامسة التي بيّنها الإسلام لإصلاح الأخلاق تبدو في الظاهر مخالفة للطريقة الأولى ولكنها في الحقيقة مؤيدة لها ومنسجمة معها، وهي أن الإسلام يحاول القضاء على التأثير السيّئ الذي قد يأخذه المولود من الأبوين بصورة تلقائية. ولكن يجب ألا يُعَدّ هذا التعليم معارضًا للتعليم الأول. لا شك أن المولود يولد على فطرة سليمة ونزيهة تماما، ومما لا شك فيه أيضا أنه يكون عرضة للميل إلى بعض السيئات أيضا تحت تأثير والديه.

الحق أن هناك فرقا بين الفطرة والميل. الفطرة هي الضمير وتكون نقية وطاهرة دائما لا تُنجَّسُ أبدا. ولو وُلد مولودٌ في بيت سارقٍ أو قاتلٍ لكانت فطرته سليمة، وإن كان فيها شيء من الضعف. فلو كانت أفكار والديه سيئة ووقع تأثيرها على المولود لتشرَّب هذا التأثير فورا. ومثله مثل المصابين بالأمراض المزمنة التي تصبح جزءا لا يتجزأ من جسمهم فإن تأثيرها ينتقل إلى أولادهم بحيث لو وُجدت الظروف الملائمة لنشوء تلك الأمراض لأصابت الأولاد بسرعة أكبر نسبيا. التأثير الذي ينتقل من الآباء إلى الأولاد إنما هو نتيجة الأفكار الهائجة في أذهان الوالدين عند الجماع، مع أن هذا التأثير يكون خفيفا جدا وقد تمحوه التأثيرات الخارجية أيضا ولكن الإسلام انتبه إلى القضاء على هذا التأثير الخفي أيضا، إذ نصح الوالدين أن يدعوا عند الجماع: "اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا"[1]؛ أي أنقذنا يا ربنا من الوساوس والأفكار السيئة وأصحابها، وأنقذ منها أيضا أولادنا الذين ترزقنا.

إن هذا الدعاء- بالإضافة إلى تأثيره العام والعادي- يحمل في طياته تأثيرا كبيرا آخر وهو أنه يُجري في أذهان الوالدين موجةً جديدة وطيبة من الأفكار الحسنة، فتميل أفكارهم إلى الطهارة في هذا الوقت بالذات وإن لم تكن طاهرة تماما من قبل؛ فالدعاء وخاصة المحتوي على هذا المضمون يوجه الأفكار إلى

[1] صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها.

الحسنة تلقائيا. وثانيا: لقد لوحظ أن الآباء يهتمون بأولادهم بشكل خاص ويودون أن يكون أولادهم صالحين وإن كانوا سيئين بأنفسهم. لا شك أننا نجد أن بعض الآباء يتصرفون على عكس ذلك ولكن المبدأ العام هو أنهم يحبون أن يروا أولادهم صالحين. فلو دعا الوالدان لأولادهما نتيجة هذه الرغبة شبه الطبيعية لحدث في قلبهم تغيُّر طيب جدا. وبما أن الأفكار لا تؤثر في الجنين بصورة طبيعية إلا حين تنفصل أجزاء الوليد من الأب وتلتصق بالأم لذا فإن هذا الدعاء الذي عُلِّم الوالدان أن يدعواه عندما يلتقيان سيقي الوليد من التأثير السيّئ للوالدين إذا وُجدتْ فيهما سيئة ما.

فإلى هذا الأمر يشير النبي ﷺ بصراحة كاملة حين يقول: "فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"[1]، والمراد من ذلك أن الله تعالى ينقذ الجنين من تأثير ضار قد ينتقل من الوالدين إلى ولدهما، وليس من التأثيرات الضارة الأخرى بشكل عام لأن هذا الدعاء لن ينقذه من تأثير الصحبة السيئة أو التأثيرات السيئة الأخرى. أما تأثير هذا الدعاء- كدعاء عادي- فسيظهر حين ينال القبول في حضرة الله ﷻ، وإلا فلا يظهر تأثيره بمجرد ترديد الكلمات.

الطريق السادس الذي بيّنه الإسلام لإصلاح الأخلاق هو أنه فتح أمام الإنسان سبُلا تنشأ من خلالها في القلب رغبات تنشِّط قوة القيام بالحسنة. ولقد سبق ذكر بعضها من قبل بما فيها الدعاء والعبادة والصوم وذِكرُ الله تعالى مثلا، فلا حاجة إلى إعادتها هنا، ولكني أذكر الآن ثلاث طرق أخرى على سبيل المثال:

أذكر أولًا أمرَ الله تعالى المتعلق بصحبة الصالحين، إذ يقول: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[2]، من المعروف أن الإنسان يتأثر بما حوله حتما، لذا فالذي يختار

[1] المرجع السابق.

[2] سورة التوبة: ١١٩

الصالحين وأصحاب الأخلاق الفاضلة للعشرة والصحبة، سيرى في نفسه تغيّرا صالحا سريعا يجره إلى الحسنات ويساعده على ترك الأفكار السيئة. لقد ركّز الإسلام على هذا الأمر كثيرا حتى ظل المسلمون على الدوام يهجرون أوطانهم وأموالهم ليعيشوا في صحبة الصالحين القادرين على أن يتركوا في طبائعهم تأثيرا طيبا، فشدوا إليهم الرحال مسرعين لما لهم من تأثير وجذب مغناطيسي، وليبلغوا مرادهم.

الطريق الثاني الذي فتحه الإسلام لنيل الحسنات مبني على أوامر تتعلق بالحلال والحرام. والغريب في الأمر أن العالم لم يكتشف حقيقة عظيمة إلى الآن، وهي أن للأغذية تأثيرا عميقا على أخلاق الإنسان. ولا يقتصر على جهلهم هذه الحقيقة فقط، بل يعترضون بصددها على الإسلام مع أنها من البديهيات، وفي كل يوم جديد نجد أدلة قاطعة على مصداقيتها. على أية حال مهما قال العالم، إن القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[1]، أي يا أيها الرسل؛ كلوا أطعمة طيبة وستوفَّقون للأعمال الصالحة.

ينبغي ألا ينخدع أحد من أن الخطاب في هذه الآية وُجِّه إلى الأنبياء فقط وذلك لأنه من مبادئ القرآن أنه إذا كان الخطاب للأنبياء يراد به أتباعهم جميعا. فبحسب هذا المبدأ قد أعطى الإسلام أوامر مختلفة عن الأكل والشرب ولكن الناس يحسبونها تقاليد بحتة، غير أن القرآن الكريم يدّعي أنها تحتوي كلها على حِكَم دقيقة.

من الغريب حقا أن الناس يعترفون بتأثير الجمادات والنبات على الإنسان ولكن لا يعترفون أن لحوم الدواب التي يأكلها تؤثر فيه. والحق أنه كما تؤثر الأشياء الأخرى في طبيعة الإنسان فلا بد من تأثير الأغذية فيها أيضا، ولا بد أن

[1] سورة المؤمنون: ٥٢

تنعكس عادات الدابة الخاصة فيمن يأكل لحمها. غير أنني آمل أن يعترف الناس بهذه الحقيقة قريبا لأن الأمر قد بلغ مرتبة الثبوت وتحققت مصداقيته تماما أن الإنسان عند أكله لحوم بعض الدواب يشعر برغبة في التعري واستخدام بعض قواه بصورة غير شرعية. وسيثبت ادعاء الإسلام بقوة أكبر عندما يتقدم هذا العلم أكثر.

زُبدة الكلام أن الإسلام يعترف بالمبدأ المذكور ويؤسس الأوامر المتعلقة بالأغذية على قانون معين؛ وهو أنه لما كان الإنسان بحاجة إلى تنمية جميع نزعاته الطبعية فعليه أن يأكل جميع أنواع الأغذية إلا التي تلحق بجسمه أو بأخلاقه أو روحانيته ضررا كبيرا. لذا فقد أمر الإسلام باستهلاك الخضروات واللحوم أيضا لأن بعض الأخلاق تتطور باستهلاك النباتات وبعضها الآخر يزدهر باستهلاك لحوم الحيوانات؛ فيتطور الحِلم والليونة والذكاء والصمود بأكل النبات، أما الشجاعة والبسالة والوقار والعزيمة والغيرة فتتقوى باستهلاك لحوم الحيوانات.

لذا أمر الإسلام باستهلاك جميع أنواع الأغذية حتى تتطور في الإنسان كافة أنواع العواطف. فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1]، أي أيها المؤمنون إنكم بحاجة إلى ثلاثة أمور من أجل التمسك بالأعمال الصالحة. أولا: يجب أن تصلحوا ظاهركم وباطنكم من أجل عبادة الله ﷻ. ثانيا: يجب أن تستهلكوا كافة أنواع الأطعمة والأشربة- دون التركيز على نوع واحد منها- حتى تتطور فيكم جميع النـــزعات الطبعية. وقل للذين لا يرون حاجة إلى الطهارة الظاهرية أو يزعمون أنه لا حاجة بالإنسان إلى طهارة باطنية، أو يرون أن على الإنسان

[1] سورة الأعراف: ٣٢-٣٣

أن يأكل نوعًا واحدًا من الأغذية دائما، فقل لهم: مَن أنتم حتى تمنعوا عباد الله مما خلق لهم من أسباب الزينة وما خلق لهم من الأطعمة الطيبة والمتنوعة؟

نعم، يجب على الإنسان أن يأكل كل الأغذية التي تنمِّي فيه الغرائز أو العواطف الطبعية المختلفة، ولكن إلى جانب ذلك قد وضع الله تعالى حدا أيضا وهو ألا تُستهلك الأغذية التي تثير العواطف إلى درجة أنْ يتعذر السيطرة عليها أو تترك تأثيرا ضارا على الصحة أو العقل أو الأخلاق أو على الدين لأنها تقضي قضاء نهائيا على الغرض الأساسي الذي خُلق الإنسان من أجله. ومن هذه الأغذية ذكر القرآن الكريم أربعةً قبل غيرها، وبُيِّنَ منعها على أربعة مبادئ. فيقول الله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، لقد جاء النهي عن أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنـــزير لأن كل هذه الأشياء تضر الإنسان، أو حرِّمت لكونها تدفع الإنسان خارج دائرة الدين أو تقضي على عاطفة الغيرة فيه، وجاء النهي عن أكل ذبيحة تُلي عليها اسم غير الله سواء إرضاء لمعبود غيره ﷻ أو لسبب آخر. ثم يقول الله تعالى لو اضطر أحد إلى أكل الأشياء المنهي عنها آنفا و لم يجد شيئا آخر لسد رمقه، وأكل الطعام المنهي عنه بشرط ألا يأكل أكثر مما هو ضروري للبقاء على قيد الحياة لأنقذه الله تعالى من التأثيرات السيئة لتلك الأشياء.

لقد حرِّمت في هذه الآية ثلاثة أشياء وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنـــزير لضررها على جسم الإنسان، والرابعُ لضرره على دينه. والمعلوم أنه توجد في لحم الميتة والدم عديدٌ من السموم، ويغلب أن تكون المَيْتَة من الدواب قد ماتت بسبب المرض أو سم أو لدغ حيوان ضار أو أنها هرمة، وكل هذه

[1] سورة الأنعام: ١٤٦

الحالات تجعل اللحم غير قابل للاستهلاك. وإذا ماتت الدابة إثر صدمة شديدة ففي هذه الحالة أيضا ينشأ السم في لحمها. فالحقيقة أن لحم الدابة المذبوحة هو الأفضل للاستهلاك. من المعلوم أن الدم يحتوي على السموم فهو يضر بالصحة، أما لحم الخنـــزير ففيه عدة عيوب، أولها وجود بعض العوامل الممرضة. ثانيا: الخنـــزير حيوان يحب القذارة بطبعه. ثالثا: يوجد فيه عيب خُلقي لا يوجد في غيره. لذا فإن استهلاك لحمه مضر بالجسم والأخلاق معًا. ولكن لـــمّا كانت أضرار الأغذية خافية عن أعين الناس عادة فلم يدركوا هذه العيوب للأسف الشديد. ولكننا على يقين أن الأيام ليست ببعيدة حين يُشطب لحم الخنـــزير من قائمة لحوم الحيوانات القابلة للاستهلاك وستُعطى الفطرة الإنسانية فرصة للنمو بحرية.

الأمر الرابع المنهي عنه هو استهلاك لحم الحيوان المذبوح لغير الله، وكان القصد من ذبحه إرضاء غير الله. ولما كان ذلك إهانة لله الواحد الذي لا شريك له إذ تُنسب صفاته إلى غيره، فإن استهلاك مثل هذه اللحوم يقضي على الغيرة في الإنسان. بل إن استهلاك هذا النوع من اللحم علامة على عدم طهارة القلب وفقدان الغيرة، لذا فقد حرّمه الإسلام.

بالإضافة إلى الأشياء التي ذُكرت حرمتُها آنفا بصراحة كاملة، فقد حرِّمت بعض الأشياء الأخرى. والحكمة وراء حرمتها أيضا هي الحكمة نفسها التي سبق ذكرها، أي الإنقاذ من الضرر الجسدي والأخلاقي. فقد منع الإسلام استهلاك لحوم الكواسر والجوارح. كذلك منع من أكل لحوم الحيوانات التي تعيش في القذارة والظلام، والتي تقتات القذارة وإن كانت تلك الدواب حلالا بحد ذاتها. ومن الأشربة فقد حرَّم الإسلام الخمرَ لأنه يحجب العقل ويضر بالخلايا العصبية التي تنمّي العقل والفطنة. لا شك أن الإسلام يعترف ببعض الفوائد للخمر ولكنه يقول إن ضررها أكبر من نفعها فلا بد من تجنّبها كليا.

إذًا، فقد اعترف الإسلام بتأثير الأغذية على الأخلاق، وقد فرض على استهلاكها حدودا وقيودا ووضع لها شروطا وفتح بابا جديدا للتحلي بالأخلاق الفاضلة. وقد سمح باستهلاك الأغذية بالكمية والنسبة التي تترك في الأخلاق تأثيرا طيبا.

والطريقة الثالثة للحصول على الأخلاق الفاضلة التي بيّنها الإسلام هي محاولة إدخال التأثير الطيب بالكلمات الطيبة إلى قلب الوليد منذ صغره. والحق أن هذا ما ينفرد به الإسلام من بين جميع الأديان الأخرى، إذ يعتقد الناس عادة أن تأثير الشريعة يبدأ على الإنسان بعد بلوغه سن الرشد. ولكن الإسلام يعلِّمنا أن الشريعة تكون حجة على الإنسان بعد بلوغه سن الرشد، هذا مما لا شك فيه، ولكن الأمور التي لها علاقة بعادات الإنسان ومزاولاته اليومية لن يسهل عليه التقيد والاهتمام بها بل ستبدو شاقة عليه ما لم يُنبَّه إليها منذ صغره. إضافة إلى ذلك لا يعلّمنا الإسلام أن فترة تربية الطفل تبدأ حين يصير الطفل مدركا بعض الشيء، بل يأخذنا إلى قبل ذلك بكثير أي إلى وقت الولادة، فيأمر أن تُقرا في أُذنَي الوليد أوامر الإسلام الواردة في الأذان فور ولادته. والحكمة في ذلك- بالإضافة إلى حِكم أخرى- أن الوليد في بعض الأحيان لا يسمع بإحدى أذنيه، فإن أُلقِيت الكلمات في أذنيه سيسمعها على أية حال إلا إذا كان أصم كليا.

هذا الأمر يبدو تقليدا محضا في بادئ الرأي ولكنه في الحقيقة يحتوي على حكمتين كبيرتين. الأولى: قد وُجِّه الوالدان إلى البدء بإلقاء الكلمات الحسنة في أذنَي الوليد منذ ولادته. ولا شك أن الوالدين لو فهِما الحكمة وراء هذا الأمر لبدآ بتربية الطفل تربية حسنة منذ ولادته. وليس من المعقول تماما أن يلقي الوالدان أحكام الإسلام على مسامعه عند الولادة ثم يتركا أمر تربيته على عواهنه ليعودا إليها بعد سنة مثلا. الحق أن الوليد يتقدم عقلا وفطنة كل يوم.

والطفل الذي أُمِرنا بتلقينه أمورا حسنة منذ ولادته لا بد أن يزداد تلقينه بها بقوة أكبر وأشد من ذي قبل فيما بعد. الحق أن في ذلك نصيحة للوالدين.

والحكمة الثانية والمهمة جدا في ذلك هي توجيه أنظار الوالدين إلى أن الوليد يحرز قدرة التعقل تدريجيا وهو أمر يبدأ منذ ولادته. الحق أن المرحلة التي يسميها الناس مرحلة الرشد والإدراك لا تنشأ بغتة بل تتولد مما اكتسبه الطفل من علم منذ ولادته، ولا يُمحى تأثيره من ذهنه بل يظل منقوشًا فيه، ويترك أثره في ذهن الإنسان بصورة العقل والفهم ولو حاول نسيانه. لقد أثبتت تجارب كثيرة أن بعض الذين تعرضوا لأمراض عصبية حتى فقدوا العقل تدريجيًا، أصبحوا يتكلمون بلغات لم يعرفوها. فاستغرب الناس كثيرا من ندرة الموقف، ثم تبين في نهاية المطاف أن اللغة التي تكلموا بها كانوا قد سمعوها فيما سبق من أصحابها، وذلك في صغرهم حين كانوا في المهد. ولكن عندما حدث خلل في الجزء المؤثِّر من دماغهم بدأ الجزء المتأثَّر بالعمل، وبرزت للعيان النقوش التي نُقشت فيه سابقا. باختصار، التعليم الإسلامي في هذا المجال مبني على حكمة بالغة، والعمل به يضمن إصلاح أخلاق العالم أجمعين على أحسن وجه.

الباب السابع الذي فتحه الإسلام لإصلاح الأخلاق هو إغلاق الثغرات التي تؤدي إلى نشوء الذنب. لقد قلت من قبل إن السيئة بحسب مبادئ الإسلام تأتي من الخارج، وإلا فإن قلب الإنسان ليس سيئا بحد ذاته. أي قد أعطِي الإنسانُ ضميرا يحب كسب الخير والفضيلة ويتجنب السيئة. يولَد الناس بهذه الفطرة أيًّا كان دينهم وملتهم. ولكن هذه الفطرة وحدها لا تكفي لأن الضمير يأمر الإنسان بأن يكسب الحسنات ويجتنب المنكرات، ثم يبقى سؤال ما إذا كان أمرٌ ما خيرا أو شرا؟ وهذا ما يحكم به العقل. إن أحكام العقل تكون مبنية على العلوم التي يكتسبها الإنسان بحواسه. فلو أخطأ في التمييز في قبول التأثيرات الخارجية لأخطأ حتما في تعريف الخير والشر أيضا، وستكون النتيجة

النهائية أن الضمير أيضا سيقع في الخطأ. ولأن الضمير في هذه الحالة سيرى الأعمال الحسنة سيئة فسيلوم عليها صاحبها، وسيرى السيئة حسنة فلن يلومه عليها، فلا بد من التقليل أو وضع حدٍّ للتأثيرات السيئة التي يتأثر بها الإنسان. كذلك إن ثورة ارتكاب السيئة التي تَحدث في الإنسان بغتة تكون أيضا ناتجة عن دوافع خارجية، ولا بد من وضع حدٍّ لها أيضا، وبإخماد هذه الثورة يتمكَّن الإنسان من السيطرة على نفسه. فمثلا إذا كان أحد يشرب الخمر في الماضي، فإنه يفقد السيطرة على نفسه حين يرى الآخرين يشربونها، أو يرى الأدوات المستعملة في صنعها، أو حين يتذكر الأوقات التي كان يشربها فيها. فلو أُبعد هذا الشخص عن تلك الأماكن والأشياء التي تذكِّره بالخمر لاختفت عادته هذه بعد فترة تلقائيا، ولتمكَّن من السيطرة على نفسه.

لقد اهتم الإسلام جيدا بهذه الحقيقة في أحكامه وأعطى أوامر تؤدي إلى إغلاق أبواب تتسرب منها السيئة أو الأفكارِ الفاسدة. لكن الغريب في الأمر أن هذه القضية المهمة المتعلقة بعلم النفس التي بتقديمها زاد الإسلام إحساناته إلى العالم زادت معارضة الناس أكثر من غيرها. ولم يدرك هذه الحقيقة إلى الآن حتى أولئك الذين يحبون العلم ويبحثون عن الحق والحقيقة.

إن بيان كافة التعاليم التي سد الإسلام بواسطتها أبواب الذنوب أمر في غاية الصعوبة ولكني سأقدم بين أيديكم بعض الأمثلة فقط.

القسم الأول من تلك الأوامر التي أمر بها الإسلام إنما هو للمحافظة على العفة، ولم يكتفِ الإسلام مثل بقية الأديان بالقول: لا تزنوا، لأن اجتناب الزنا ليس بالأمر الذي يجب أن نؤمَر به. بل الأهم في الموضوع هو: كيف يمكن للإنسان تجنُّبه؟ يرد الإسلام على هذا السؤال ويقول: يمكنكم أن تجتنبوه بإغلاق الأبواب المؤدية إليه، وتلك الأبواب هي العين والأذن والجلد، لأن هذه الأشياء هي التي تحرض الإنسان على الزنا. فعندما يرى الإنسان جمالا أو يسمع الثناء

عليه، أو يسمع صوتا جميلا، أو يلمس جسما ناعمًا أملس، ثم لو كان ذلك الجمال وذكره، أو الصوت أو الجسم موافقًا لرغبته لَمال إليه، وتكون النتيجة أقصى درجات التقرب، وهو أمر تعُدّه عقول العالم كلها سما زعافا للأخلاق والمجتمع. لذا فقد أمر الإسلام بسد هذا الباب، فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

لقد أمر الله تعالى في هذه الآيات النساءَ والرجالَ على السواء أن يسدوا جميع الطرق التي ترغِّب الإنسان في الذنب. الطريق الأول هو العين؛ فقد أمر بغضّ البصر. والطريق الثاني هو الأذن؛ وقد أمر ألا يسمع الرجال صوت أغاني النساء وقصص حسنهن وجمالهن دون مبرر، والعكس صحيح. الطريق الثالث هو الجلد؛ فأمر الإسلام في هذا الصدد ألا يلمس بعضكم بعضا دون مبرر وضرورة طبيعية. ولما كان غضّ البصر في الأماكن العامة التي يجتمع فيها الرجال والنساء بالضرورة مثل الشوارع صعبا، فقد أمر الإسلام النساءَ عند الخروج إلى هذه الأماكن أن يغطين رؤوسَهن وصدورهن وأجزاء من وجوههن لا يحتجن إليها لرؤية الطريق أو التنفس.

---

[1] سورة النور: ٣١-٣٢

هذه الأوامر من الحكمة بحيث لو فكر فيها الإنسان بحيادية ودون تعصب لما وسعه إلا أن يعترف بعظمتها لأنه بها يُقضى على الذنوب قضاء نهائيا. مما لا شك فيه أن هذه الأفكار تشق على أهل أوروبا بسبب تقاليدهم القديمة وعاداتهم الراسخة، ولكن قلقهم واضطرابهم ناتج عن التقاليد والعادات فقط وإلا فالعمل على الأوامر المذكورة آنفا لا يصعب مطلقا، لا على الرجال ولا على النساء.

الإسلام لا يأمر قط أن تجلس النساء في البيوت ويحبسن أنفسهن فيها. لم تتصرف النساء على هذا النحو في صدر الإسلام قط، بل كنّ يشتركن في الغزوات ويعالجن الجرحى في ميدان القتال، ويتلقَّين العلوم على يد الرجال ويعلِّمنهم أيضا، ويمارسن الفروسية. باختصار كنّ يتمتّعن بكامل الحرية. غير أنهن قد أُمِرنَ أن يغطين رؤوسهن ورقابهن وأجزاء الوجه حتى تنسد الطرق التي يمكن أن يصدر عنها الذنب. وإذا استطعن أن يأخذن الحذر أكثر فليلبسن الحجاب. ولكن ليس من تعليم الإسلام في شيء أن يحبسن أنفسهن في البيوت أو يتنحين عن النشاطات في الحياة العملية. لم يُطبَّق هذا النوع من التعليم في الإسلام في وقت من الأوقات. الحجاب الذي نراه عند المسلمين في معظم البلاد في الأيام الراهنة إنما هو حجاب سياسي؛ أي قد اعتُبر عِرض المرأة مثل النقود والمال في كثير من البلادِ، الأمرُ الذي يشكل إهانة كبيرة لها لذا فقد وضع المسلمون في تلك البلاد على أنفسهم بعض القيود سياسةً لتصون شرفهم وعصمته، بينما لا يأمرهم دينهم بذلك.

لقد سمعت أن بعض الناس يرون في هذا الأمر إهانة للمرأة، ولكنني أستغرب من قولهم هذا أيما استغراب لأن الحجاب وسيلة ظاهرية لغض البصر، الأمر الذي هو مطلوب من الرجال والنساء على حدٍّ سواء. فإذا كان في ذلك إهانة فإنها تشمل كلا الجنسينِ ولا تنحصر على المرأة وحدها لأن أمر غض

البصر موجَّه للرجال والنساء معا. أما السؤال: لماذا أُمِرت المرأة بالحجاب دون الرجل؟ فالجواب هو أن الإسلام يقسم واجبات الرجال والنساء إلى قسمين. واجب المرأة هو تربية الأولاد، ومن واجب الرجل توفير أسباب المعاش لهم. فبحكم طبيعة عمله يضطر الرجل إلى البقاء خارج البيت عادة. إذًا، فمجال عمل الرجل هو الأسواق والشوارع والأماكن العامة، بينما تنحصر نشاطات المرأة على البيت بوجه عام. وقد جعلت الشريعة كل واحد منهما حرا في مجال عمله، وفرضت بعض القيود على الآخر. فمثلا أمر الرجل عندما يريد دخول بيتٍ غير بيته أن يستأذن أهله قبل الدخول لأن البيت مكان تتمتع فيه المرأة بحريتها، ولم يأمر المرأةَ أن تستأذن الرجال عند الخروج من البيت، بل إنها مطالَبة بالقيام بما سبق ذكره من وسائل الحذر. والسبب في ذلك أن الشرع الإسلامي يعترف أن المرأة لا يمكن أن تبقى منقطعة عن الأسواق والشوارع كانقطاع الرجل عن المنـــزل، لذا فقد فرض عليه شرطا أقسى وهو الاستئذان. أما المرأة فطلب منها أن تغطي أجزاء من جسمها فقط. فلا مجال لنشوء مسألة الإهانة في الحجاب بتاتا، بل هو وسيلة مثلى للرقي الأخلاقي. وإن معارضته ليست إلا بسبب العادات والتقاليد فحسب. ولقد رأيت في أوروبا نساء قد بدأن بارتداء الحجاب ولا يشعرن منه بأي ضيق أو انزعاج، اللهم إلا بعض الاستحياء أو الضيق في الأيام الأولى وهو أمر طبيعي.

المثال الثاني لسد أبواب السيئة هو أمر الشريعة الإسلامية بالاعتدال. من الواضح أنه لو أُخمِدت النـــزعات الطبعية كليا لثارت وكسرت العوائقَ كلها في النهاية. إن مَثَلَ النـــزعات الطبعية كالنهر الذي يزداد فيه الماء أحيانا فيفيض ويخرج من ضفافه، فلو وضعنا عليه سدا وحجزنا المياه واستخدمناها لصالحنا لنفعتنا، وإن لم نفعل لانهار السد أخيرا. يأمر الإسلام المسلم أن يتعود على الاعتدال في جميع أموره، وألا يميل إلى اتجاه واحد فقط. ولو فعل ذلك لثارت

عواطفه وهاجت وخرجت من ضفافها. فمثلا لو اختار الرهبانية أو وزّع ماله كله على الناس ولم يُبق شيئا لسد حاجات أهله لأدت الثورة الشهوانية في يوم من الأيام إلى أن تزِلّ قدمه فيقع في الحرام ضاربا بالحلال عرض الحائط. ولأن بذله جلّ مالِه لن يعفيه من الحاجة إلى الأكل والشرب- بسبب كونه صفر اليدين بعد توزيع ماله على الناس- فسيضطر إلى مدّ يد المسألة أمام الآخرين، وهو أمر غير مستحسَن في حد ذاته، أو يتوجّه إلى السرقة والنهب، ويرتكب السيئة بدلا من التقدم في الحسنات. لذا فقد أمر الشرع الإسلامي بالاعتدال وقال: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1]، أي جعلناكم أمة تتأسس جميعُ أمورها وأعمالها على الاعتدال والطريق الأوسط، وبذلك سدّ أبواب الذنوب كلها.

إن أحد أبواب السيئة هي العادات والتقاليد، ويتورط الإنسان في كثير من الذنوب بسببها، فهو إما لا يجد ما يشبع به عاداته، أو تكرهه العادات السائدة على ارتكاب الذنب. فمثلا إذا كان أحد لا يملك نقودا كافية، وتفرض عليه التقاليد السائدة في البلاد أن يلبس لباسا من نوع معين، فإنه يحاول كسب النقود بطرق غير شرعية لعدم قدرته على التصدي لهذا التقليد. وقد سدّ الإسلام كِلا هذين البابين، أي العادات والتقاليد، إذ وضع حدًّا للعادات بمنع الإنسان من استهلاك ما يجعله مدمنا عليه؛ وما الخمر إلا مثاله الأول، وإلا فالإسلام يمنع من استهلاك كل مسكر يشلّ قوة الإنسان وينشئ فيه حالة من النشوة ثم يجعله مدمنا عليه.

ثم يقول الإسلام عن التقاليد بأنها أعباء ثقيلة يحملها الإنسان خوفا من القوم وإلا فهي أعباءٌ حملُها يفوق قدرة الإنسان لأنها لا تراعي الغني والفقير ولا الغارم ولا الحر، وتكره الناس جميعا على أن يتورطوا في الذنوب ويدمروا ظاهرهم وباطنهم من أجل حماية شرفهم المزعوم وصيانة ماء الوجه بين القرناء.

---

[1] سورة البقرة: ١٤٤

لقد بيّن الله في القرآن الكريم أن الهدف الوحيد من بعثة النبي ﷺ هو: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

أي أن هذا النبي قد جاء بشريعة كاملة... وأن شريعته ليست غرامة أو عقوبة للناس بل كل حكم من أحكامها يحمل في طياته جانبا من الخير ورفع الشر، ويرفع عنهم أثقالا ما كانوا قادرين على حملها، ولو حاولوا طرحها عن أكتافهم لعوقبوا. والمراد من ذلك أن التقاليد تكون عبئًا ثقيلًا ولكن الإنسان لا يستطيع أن يتحرر منها لأنه يعرف أنه لو فعل ذلك، لتعرض لسخط القوم ولصعُب عليه العيش في المجتمع. ثم يقول الله ﷻ بأن هذا الرسول يضع عنهم الأغلال التي لبسوها، أي يحررهم من العادات التي لم تكن تقاليد، وما كان المجتمع يعاقبهم إثر تحررهم منها ولكنهم بأنفسهم كانوا غير قادرين على خلعها.

فانظروا كيف محا النبي ﷺ محوا تاما ودفعة واحدة، عادة شرب الخمر من بين قوم كانوا مدمنين عليها لدرجة كانوا ينهضون في منتصف الليالي ليشربوها ثم يواصلون شربها إلى العِشاء، فقضى النبي ﷺ عليها قضاء نهائيا بحيث لم تجد الخمر موطئ قدم في المجتمع كشراب قومي. لقد برهنت العلوم اليوم كثيرا على أضرارها، وبدأ الأطباء أيضا يعارضون استهلاكها بوجه عام، ولكن لا تزالُ هناك بعض الحكومات التي لم تنجح في الحد منها كما يجب رغم محاولاتها المتكررة.

فزُبدة الكلام أن هذه العادة والتقليد يوقع الإنسان في الذنوب؛ فمن المعروف أن المدمن على الخمر حين لا يجدها، والمدمن على الأفيون وغيره من

---

[1] سورة الأعراف: ١٥٨

المواد المدمنة الأخرى حين لا يكون بمتناول يده يستعد لارتكاب جرائم هو في غنى عنها في الحالات العادية.

إن دواعي الذنوب التي سبق ذكرها، وقد ذُكرت هنا على سبيل المثال فقط، ولكنها مع ذلك كافية لشرح الموضوع. لقد بحثنا مجملا في الجوانب الضرورية المتعلقة بتعليم الأخلاق، وأتناول الآن تعليم الإسلام عن الحضارة والتمدن.

تعليم الإسلام عن الحضارة والتمدُّن

أرى أن المراد من قوانين الحضارة هو القوانين الضرورية التي يتأسّس عليها المجتمع. كذلك الحقوق التي يتمتع بها الناس في أمور تفيدهم جميعا، والمراد منها أيضًا الواجبات التي فُرِضت على الأفراد من أجل التقدم المشترك لبني البشر.

عندما أتأمل في الحضارة أصل إلى نتيجة أنها اسم آخر للعمل بجانب من جوانب الأخلاق. الفرق الوحيد بين الأخلاق والتمدن هو أن علم الأخلاق يناقش طهارة الأفراد بينما يناقش علم الحضارة والتمدن الطهارةَ القومية. إذًا، نسمّي جزئية الأخلاق المتعلقة بالفرد الواحد أخلاقا، أما جزئيته التي تتعلق بالمجتمع فنسميها حضارة. عندما نتحدث عن الأخلاق فإننا في الحقيقة نناقش الأعمال التي يجب على الإنسان القيام بها بغية تطهير نفسه؟ وحين نتحدث عن الحضارة نناقش ماذا يجب أن يكون عليه التعامل بين أفراد المجتمع بغية التعايش بمحبة وتحقيق التقدم القومي. الفرق الوحيد هو أننا في الحالة الأولى نناقش الصدق في سلوك الفرد وفي الحالة الثانية نناقش طرق استخدام هذا الصدق فيما يتعلق بمختلف أفراد المجتمع.

وبعد بيان هذا المفهوم للتمدّن كما أفهمه أنا، أتوجه إلى بيان تعليم الإسلام عنه.

أولا أريد أن أوضح أن الله تعالى قد أنزل في القرآن الكريم سورة كاملة عن الحضارة والتمدن وبيّن أحكامها في مواضع مختلفة. وهذه السورة مع كونها وجيزة تشرح أقسام الحضارة وتبين الوسائل لإصلاحها. والغريب في الأمر أن هذه السورة هي الأخيرة في القرآن الكريم، الأمر الذي يدل على أن الإسلام يرى أن التقدم النهائي للإنسان يكمن في إصلاح الحضارة المتعلقة بجسم الإنسان. وفي تلك السورة قسم القرآن الكريمُ الحضارةَ إلى ثلاثة أقسام في ضوء صفات الله تعالى الثلاث. فقد بيّن القرآن أن القسم الأول من الحضارة يتعلق بالعلاقات العائلية، وهو يندرج تحت صفة الله تعالى "الربوبية". وفي هذا القسم تُناقَش العلاقات العائلية والقومية، وتُناقَش الواجبات المتبادلة في المجتمع. والعلاقات العائلية تشمل أيضا علاقات القرابة التي تنشأ عن النسب والصهر، وكذلك العلاقات الأخوية التي تنشأ بحكم إقامة الناس في بلد واحد أو منطقة واحدة.

والقسم الثاني من الحضارة يتعلق بعلاقات السلطة والملك. وهذا القسم يبحث في العلاقات بين السلاطين والرعية وربّ العمل والأجير، ويندرج تحت صفة الله "المالك".

والقسم الثالث للحضارة يناقش العلاقات بين الدول والأديان، وعلى أي أساس يجب أن تتأسس هذه العلاقات، وهذا القسم يندرج تحت صفة الله تعالى "الإله".

فصفة الربوبية تلقي ضوءا على العلاقات بين العائلات، وصفة المالكية توضح لنا موضوع السلطة والمُلك، وأما صفة الألوهية فتسلط الضوء على العلاقات بين بني البشر كلهم وبين الأديان.

والآن أبيّن أحكام الإسلام حول كل من هذه الأقسام الثلاثة.

العلاقة الأولى هي بين المرء وزوجه نظرا إلى قانون بقاء النسل. إن إصلاح العائلة يعتمد إلى حد كبير على صلاح هذه العلاقة. والعلاقات القومية أيضا تعتمد على العلاقات العائلية، فهكذا تظل هذه الدائرة تتسع. إن أول ما يناقشه الإسلام في العلاقة الزوجية هو أن هذه العلاقة يجب أن تكون مبنية على الأخلاق وليس على الجمال الظاهري أو الثروة والمال. يقول الله تعالى في القرآن الكريم أن عليكم الاهتمام بالتقوى قبل النكاح وأن تفكروا جيدا في نوعية الأولاد الذين سيولَدون في المستقبل نتيجة هذه العلاقة. فيقول النبي ﷺ: "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ"[1].

ما أجمل هذا التعليم وما أطهره! لو لم يُهتمّ عند الزواج بالميول الذهنية والطبيعية للرجل والمرأة فأولًا لن تبقَ العلاقة الزوجية على ما يرام مما يفسد المجتمع والحضارة، وثانيا لن يولَد أولاد جيدون أبدا؛ فقد لوحظ أن أفكار الآباء وحالتهم الذهنية تؤثر في الأولاد لا محالة. الآباء الأذكياء يُرزَقون بأولاد أذكياء والعكس صحيح. ولقد ألقى علم تحسين النسل البشري (EUGENICS) في العصر الراهن ضوءا كافيا على هذا الموضوع، وإن كان المتخصصون في هذا الفرع من العلم قد تجاوزوا الحدود كثيرا بحسب رأيي في استنباط النتائج. ومع ذلك لا يخلو استنتاجهم من الصحة حين يقولون إن أفكار الآباء وقدراتهم الدماغية تنعكس حتما في أولادهم إلى حد ما، الإسلام يؤيد هؤلاء العلماء في هذه النقطة، لذا إن اختيار الزوج أو الزوجة أمرٌ في غاية الأهمية.

لقد وضع الشرع الإسلامي أول لبنة لأساس الحضارة بأنْ أمر بتقديم العقل والفطنة والذكاء على الجمال الظاهري والمال والوضع العائلي عند الزواج. ليس قصدي من هذا القول أن الإسلام لا يعير أي اهتمام للنسب أو المال أو الجمال،

[1] صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدِّين وقوله....

بل ما أقصده هو أن الإسلام لا يعُدُّ هذه الأشياء غايةً منشودةً. فإذا أراد الرجل والمرأة أن يؤسسا علاقتهما بصدق النية نظرا إلى الدين والأخلاق والفطنة والذكاء، ثم رافقها الجمال والمال والنسب أيضا فبها ونِعمت، ولكن يجب ألا تكون هذه الأشياء هي الغاية المتوخاة في حد ذاتها. فلو تمت الزيجات على هذا الأساس لكانت الأجيال القادمة على أحسن ما يرام، إضافة إلى تحسُّن حالة البلاد الأخلاقية.

ولنيل هذا الهدف أمر الإسلام أن يبحث الزوجان في ظروف بعضهما ويحققا جيدا عن بعضهما. وليبحث أقارب المرأة جيدا عن الرجل فيما إذا كان فعلا خلوقًا حتى يكون في زواج ابنتهما منه خير لها وللأجيال المقبلة أيضا. كذلك وضع شرطا للنكاح أن يتم ذلك برضاهما وموافقتهما وموافقة ولي المرأة. والمراد من وليها هو الرجل المسؤول في العائلة مثل والدها أو أخيها. وإن لم يكن في العائلة رجلٌ فعلى حاكم المدينة أن يتحقق جيدا في الأمر حتى لا يخدع رجلٌ امرأةً في الزواج منه. إن سبب الفرق بين الرجل والمرأة في هذا الموضوع عائد إلى أن الرجل يكون أقل حياء من المرأة عادة في مثل هذه الأمور فيستطيع أن يبحث في الأمر بنفسه. أما المرأة فتكون أكثر حياء واستحياء وتكون مرهفة المشاعر فيمكن أن تنخدع بسهولة. لذا فقد أكد الإسلام على التحقيق وموافقة شخص مسؤول وخبير من عائلتها، أو موافقة حاكم المدينة في حالة عدم وجود الرجل في العائلة. فلو عمل الناس بهذا الأمر لرُدِعَ فورا كثير من الخدع التي تتعرض لها النساء الشريفات المتعوّدات على الثقة بالآخرين. الإسلام يأمر بارتداء الحجاب ولكنه سمح للزوجين المقبلين على الزواج أن يرى أحدهما الآخر بعد إتمام المراحل الابتدائية من الزواج واطمئنان الطرفين، ليطلعا إذا وُجد- من حيث الملامح الظاهرية- ما يمكن أن يحول دون نشوء الحب بينهما في المستقبل.

وقد أمر الإسلام بتوفير عقار منفصل للمرأة بعد الزواج فورا، وعَدّه جزءا مهما للزواج. وهذا يسمى "المهر" في المصطلح الإسلامي. والهدف من ذلك هو أن يكون للمرأة عقار منفصل أيضا حتى تستطيع المحافظة على كيانها الفردي وتكون قادرة على التصدُّق وصلة الرحم بحرية. فبواسطة المهر يُطلَب من الزوج أن يقر في أول يوم أن الزوجة تستحق أن يكون لها عقار منفصل ولا حق للزوج أن يتصرف في مالها. كذلك من حق الزوجة ألا يعاقبها زوجها إلا على ارتكابها فاحشة سافرة. وإذا صارت العقوبة ضرورية فلا بد أن يجعل أربعة رجال من الحي ليشهدوا صراحة أنها فعلا قد ارتكبت جريمة تنافي القيم الأخلاقية. ففي هذه الحالة يمكنه معاقبتها. ولكن العقوبة أيضا يجب أن تكون تدريجية كما قال الله تعالى: ﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[1]، أي يجب أن تعظوا وتنصحوا المرأة أولا، وإن لم تنفعها النصيحة فانفصلوا عنها في المضجع، وإن لم يؤثر ذلك أيضا فيها فيمكن أن تعاقبوها عقوبة جسدية بعد شهادة الشهداء، ولكن بشرط ألا تقع الضربة على العظم وألا تترك علامة على جسدها.

وليكن معلوما أن المرأة تعاقَب بهذه العقوبة بسبب ارتكابها الفحش فقط وليس لأسباب أخرى مثل التقصير في أمور منزلية أو ما شابهها. وإذا اضطر الزوج إلى قطع العلاقة معها فيجب ألا يطول ذلك أكثر من أربعة أشهر. ولو انفصل الزوج عن زوجته لفترة أطول من أربعة أشهر لأجبره القانون على أداء حقوقها ودفع نفقاتها وليس بوسعه التهرب من الإنفاق عليها ولو ليوم واحد. وعلى الزوج أن يسد حاجاتها المتعلقة بالأكل والشرب واللباس والسكن، ولو

[1] سورة النساء: ٣٥-٣٦

كانت المرأة غنية وزوجها فقيرا. كذلك أُمر الزوج أن يعامل زوجته بالحب واللطف ولا يقسو عليها. ولقد أمر القرآن الكريم أن تعاملوا المرأة باللطف والإحسان سواء كنتم في خصام معها أو وئام. يقول النبي ﷺ: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا"[1]. وقال أيضا: "لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ"[2]. وقال أيضا: "تُطْعِمُهَا إِذَا أَكَلْتَ وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ وَلَا تَضْرِبْ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْ وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ"[3]. وقال أيضا ما معناه: لا يجوز للرجل أن يبقى مشغولا في العبادة أو في أمور دنيوية أخرى ليل نهار مهملا حقوق الزوجة، بل واجب عليه أن يوفر قسطا من أوقاته للزوجة أيضا[4].

كذلك قال ﷺ: "خياركم خياركم لنسائكم"[5]. ومقابل ذلك فقد أمر المرأةَ أن تبقى مطيعة لزوجها ولا تضيع ماله[6]. وتحافظ على عِرضه وتربي أولاده تربية حسنة.

وإذا فترت العلاقات بين الزوج والزوجة فليحاولا تسوية الخلافات بأسرع ما يمكن، وإن لم يتم الصلح واستفحلت الأمور أكثر فيأمر الإسلام أن يُختار حَكَمٌ من أهله، وإن لم يكن له الأهل فمن أقاربه أو أصدقائه، وحَكَمٌ من أهلها، وإن لم يكن لها الأهل فمن نصحائها ليبحثا عن أوجه الخلاف بينهما. فإذا كان الصلح ممكنا حسب رأيهما فعليهما محاولة الصلح وفق المقترحات التي تخطر ببالهما، أما إذا لم يكن الصلح ممكنا حسب رأيهما أو فشلت جميع

---

[1] كنْز العمال، رقم الحديث: ٤٤٩٥٥

[2] مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

[3] سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها.

[4] صحيح البخاري، كتاب الصوم باب حق الأهل في الصوم.

[5] سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب ما جاء في حسن معاشرة النساء.

[6] سنن النسائي ،كتاب النكاح باب أيّ النساء خير.

المحاولات بهذا الشأن فيُسمح للرجل أن يطلق المرأة أي يعلن فسخ نكاحهما. ولفسخ النكاح أيضا شروط، منها أن يتم ذلك علنًا. والمستحَبُّ أن يكون الطلاق على مدى ثلاث شهور، أي يُعلَن مرة بعد كل شهر، لعل القلوب تصلح في أثناء هذه الفترة وتميل إلى الصلح الذي تُرك بابه مفتوحا إلى أن يُعلَن الإعلان النهائي للانفصال.

أما إذا اشتكت المرأة من زوجها وأرادت الانفصال فلا بد أن يكون ذلك إما بموافقة وليّها أو قريب لها أو بموافقة قاضي المحكمة، كما جُعلت وساطة رجل من أقاربها القريبين أو الحاكم ضرورية عند نكاحهما. فإذا رأى القاضي أنها محقة في طلبها فسيحكم بالفصل بينها وبين زوجها.

ويأمر الإسلام، في حالة الانفصال أنه إذا كان الزوج قد أعطى زوجه عقارا، وهو الذي يريد أن يطلق زوجه، فلا يحق له استعادة المال منها، وإذا قرر الحكمانِ الفصل بينهما ووجدا أن المرأة مخطئة في طلبها، فيمكن أن يحكما بإعادة قَسط من هذا المال إلى الزوج. أما إذا طلبت الزوجةُ الانفصال فسيأمر القاضي المرأةَ أن تعيد العقار الذي أعطاها إياه زوجها وهي تملكه إلى ذلك الحين. وفي حالة الطلاق سيكون الزوج مسؤولا عن نفقات المرأة وسكنها إلى أن تنتهي عدتها.

وهناك شرط آخر أيضا لحماية حقوق المرأة وهو أنه لا يسمح لأقاربها أن يأخذوا أي نوع من المال قبل النكاح كشرط النكاح حتى لا يسيئوا استخدام حقهم للموافقة على النكاح.

من المعلوم أن الناس قد يتعرضون لبعض المواقف المهمة من قبيل المحافظة على النسل أو الصحة أو غيرهما من الحاجات الأساسية، فيكونون بحاجة إلى التعدد، لذا فقد أجازه الإسلام، ولكن بشرط إقامة العدل بين الزوجات فيجب على الزوج أن يعاملهن معاملة عادلة في اللباس والطعام ونفقات الجيب

والعلاقات والسلوك، بل عليه أن يبيت أيضا عندهن بالتناوب. وإن لم يفعل فينطبق عليه قول النبي ﷺ إذ قال: "إذا كانتْ عندَ الرَّجُلِ امرأتانِ، فلمْ يعدلْ بينهما، جاءَ يومَ القيامة وشقُّه ساقطٌ"[1].

يُعترض عادة على تعدد الزواج وكذلك على الطلاق، ولكن الغريب في الأمر أن أهل الغرب- بعد أن سبّوا عباد الله الأخيار قرابة خمس مائة أو ستمائة سنة أو أكثر بسبب الطلاق- أصبحوا يعترفون الآن أنه لا بد من الطلاق بشكل أو بآخر، لأن حضارتهم مهددة بالتدمير والانقراض جراء عدم اعترافهم بالطلاق. ليتهم فهموا هذا الأمر من قبل و لم يطْلقوا خناجر الطعن والاعتراض على أصفياء الله ﷻ، أو ليتهم لم يختاروا على الأقل، طريق الشتائم والسباب؛ فما وقفوا عليه اليوم موقف مندمة. ولكن من المؤسف جدا أن أهل الغرب لا يريدون أن يخضعوا اليوم لقانون الإسلام الذي يهتم بجميع الجوانب الأخلاقية والاجتماعية. فمن ناحية سُدَّ طريق الطلاق قدر الإمكان، ومن ناحية ثانية سُمح به كوسيلة أخيرة. ولكن أهل الغرب يريدون أن يضربوا قانون الله هذا عرض الحائط ليسُنُّوا من عندهم من القوانين ما بدأت مضارها تظهر للعيان من الآن؛ منها الحرية المطلقة في الطلاق التي تؤدي إلى تدمير قدسية النكاح الذي هو بمثابة الروح في الحياة العائلية. وهناك خطر أن تتآكل أسس قوانينهم من الداخل في فترة وجيزة فيخِّر كل ما عرشوا.

أما قضية التعدد فلم يتأمل فيها أيضا أهل الغرب بجدية بعد، ولكنهم سوف يضطرون إلى ذلك في نهاية المطاف لأن التصدي لقوانين الطبيعة إلى فترة طويلة مستحيل. يقول المعترضون إن التعدد ليس إلا وسيلة للتلذّذ والاستمتاع، ولكن لو تأملوا في أحكام الإسلام في هذا الصدد لوجدوا أنه ليس للتلذّذ والاستمتاع بل هو تضحية، ويا لها من تضحية عظيمة! ما هو المراد من التلذّذ

[1] الترمذي، أبواب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر.

والاستمتاع أصلا؟ إنما المراد منهما أن يشبع الإنسان أمنية قلبه. كيف يمكن أن تنشأ في القلب رغبة في التعدد حين يقول الإسلام إنه يجب ألا تميزوا بمعاملتكم الظاهرية زوجة دون غيرها مهما كانت محببة إليكم. ولو أردتم أن تُلبسوها لباسا جيدا لا تستطيعون أن تفعلوا ذلك ما لم تلبسوا الأخرى مثله. ولو أردتم أن تطعموها طعاما جيدا أو تستأجروا لها خادما لن تستطيعوا ما لم تعاملوا غيرها بالمثل أيضا. ويقول الإسلام: مهما كانت رغبتكم قوية في المكوث في بيت إحداهن فلن يُسمح لكم ذلك ما لم تمكثوا في بيت الأخريات بقدر ما تريدون المكوث لدى إحداهن، أي يجب أن تجعلوا لكل واحدة منهن نصيبا متساويا من الوقت. ثم يقول الإسلام: مهما رغب قلبكم في الاختلاط بإحداهن فيمكنكم أن تشبعوا رغبتكم ولكن لابد أن تخالطوا غيرها أيضا بنفس القدر من الوقت. باختصار، لا يُسمح للزوج أن تختلف معاملته بين الزوجات فيما يتعلق بالعشرة والمساعدة والنُصح وغيرها من الأمور إلا في العلاقة القلبية، وذلك لأن العلاقة القلبية لا يمكن أن يطلع عليها أحد. فهل يمكن أن يُعَدّ هذا النوع من الحياة حياة تلذذ واستمتاع؟ أم هي تضحية، بل تضحية عظيمة في الحقيقة، في سبيل المجتمع والقوم والمصالح والحِكَم التي من أجلها يُقدِم المرء على التعدد؟

كم هو مؤسف ومحزن أن الذين ليس لديهم أدنى إلمام بأحكام الإسلام وأوامره يشرعون في توجيه الاعتراضات إلى النبي ﷺ -بمجرد أن يسمعوا أنه تزوّج أكثر من مرة- فيقولون إن أخلاقه فسدت في المراحل الأخيرة، والعياذ بالله. والحق أنه ﷺ لم يُعَدِّدْ إلا لمصلحة القوم والبلد. ومما لا شك فيه أن الإنسان ترتعد أوصاله نظرا إلى المعاملة العادلة التي عامل بها النبي ﷺ زوجاته. ويشهد التاريخ أنه ﷺ كان يذهب من بيت زوجة إلى أخرى حتى في حالة إصابته بحمى شديدة واضعا ذراعيه على كتفي رَجُلين وهو يجر رِجليه على

الأرض حتى قالت له زوجاته إنك تعاني من المرض وتتأذى من الانتقال من بيت إلى بيت فنرجو أن تمكث في بيت واحد، فوقع اختيارهن على بيت عائشة رضي الله عنها[1].

ومن الناس من يعتبر التعدد ظلما، ولكنه ليس ظلما بل الحق أن الناس يتعرضون لمواقف يكون عدم التعدد فيها هو الظلم بعينه. فمثلا لو أصيبت الزوجة الأولى بالجنون أو الجذام، أو لا تقدر على الإنجاب، فماذا عسى يفعل زوجها في مثل هذه الحالات؟ فلو لم يتزوج ثانية وتورط في السيئات لكان ظالما لنفسه وللمجتمع. فإن كانت الزوجة مجذومة لكانت العلاقات معها ظلما للزوج وإذا كانت عقيمة غير قادرة على الإنجاب لكان ذلك ظلما للقوم. وإن طلّقها والحالة هذه لكان ذلك غدرا ووقاحة منه من الدرجة القصوى، لأنه عاش معها ما دامت بخير وبصحة جيدة ولكن حين مرضت وصارت أحوج ما تكون إلى مساعدته خذلها. فباختصار شديد؛ هناك عدة مواقف يتعرض لها الإنسان لا يكون التعدد فيها جائزا فقط، بل التعبير "الجواز" لا يفي بالمقصود بل يصبح التعدد ضروريا، بل يصير واجبا قوميا.

يولَد نتيجة علاقة الزوجين أولاد وهم لَبِنة ثانية للتمدّن. ولقد أمر الإسلام أن يربوا أولادهم تربية حسنة، وإن تربيتهم وسد حاجاتهم واجب على الوالدين. الإسلام منع بشدة قتلهم خشية إملاق كما كان رائجا في القبائل الهمجية، وكذلك راج قتل البنات في الأقوام المولعة بالحروب بسبب الأنفة المزعومة لديهم. فالإسلام منع ذلك بكل شدة وقوة، وحكم أنه إذا كان الزوج لا يرغب في الإنجاب فلا بد له من أن يستأذن الزوجة في ذلك، إذ إن وضع حدٍ للإنجاب بدون إذن الزوجة ممنوع بتاتا[2].

---

[1] صحيح البخاري، كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

[2] الموطا كتاب النكاح، باب العزل.

ثم يأمر الإسلام بتعليم الأولاد العلومَ والأخلاقَ وبتربيتهم تربية حسنة منذ نعومة أظفارهم ليكونوا شريحة مفيدة للمجتمع في المستقبل، كما يأمر بالعدل والمساواة بين الأولاد في التعامل. لا شك أن التعامل معهم في صغرهم حسب حاجاتهم ورغباتهم شيء آخر، ولكن حين يكبرون فيأمر الإسلام أنكم إن أهديتم أحدهم فعليكم أن تهدوا الجميع الهدية نفسها وإلا فلا تهدوا أحدا منهم. وإذا اضطر الإنسان إلى ضرب الأولاد من أجل تربيتهم فلا يُسمح بضربهم على الوجه لأن الوجه مركز للحواس كلها، ولو تضررت حاسة واحدة منها لانعكس ذلك على الحياة المستقبلية للولد.

هناك أمر خاص عن تربية البنات. فقد قال النبي ﷺ: مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ[1]. أي أن الله تعالى سيعامل معاملة خاصة مع الذي يربّي البنات تربية حسنة ويحسن معاملتهن.

كذلك قال ﷺ: من كانتْ لهُ ثلاثُ أخوات أو ابنتان أو أُختانِ فأحسَنَ صحبتَهُنَّ واتقى اللهَ فيهنَّ فلهُ الجَنَّةُ"[2]. أي سينال أَفضال اللهَ تعالى أكثر بسبب عمله هذا. وقال أيضا: من كان في بيته بنت فلم يقتلها ولم يهنها ولم يفضِّل عليها الأبناء أدخله الله الجنة.

ثم أمر الإسلام بالاعتناء جيدا بصحة الأولاد، فيقول النبي ﷺ: لا تقتلوا أولادكم خفيةً[3] لأن التقاء الرجل بالمرأة في أيام الرضاعة يضر بقوى الرضيع في المستقبل وفي أيام شبابه. أي إن لجماع الرجل المرأة في هذه الأيام تأثيرا خاصا؛ وفي ذلك إشارة واضحة إلى الاعتناء بصحة الأولاد لأنه ما دام الأمرُ قد جاء للامتناع عن الشهوة الطبيعية، فإن التضحيات الأخرى هي أدنى منه طبعا.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

[2] الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في النفقات على البنات والأخوات.

[3] سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الغيل.

إن قضية الإرث قضية مهمة في الحياة العائلية. ففي هذا الصدد أيضا أعطى الإسلام تعليما كاملا يعترف بمزيته وحِكمته الكامنة غير المتعصبين كلهم أيًّا كان انتماؤهم الديني. أولا قسمَ الإسلامُ جزءا معينا من الإرث للأنثى. ثانيا جعل جزءا للوالدين. وثالثا جعل نصيبًا للزوج والزوجة. لا شك أن العقل يقتضي أن يرث هؤلاء الأقارب بالضرورة. وبالإضافة إلى ذلك فإن الشرع الإسلامي يأمر ألا يُحرم الوَرَثة من الميراث؛ فلا يستطيع أحد أن يحرم الوَرَثة من حقهم. غير أن صاحب المال قد خُيِّر أن يوصي بثلث ماله إذا أراد، ولا يحق لأحد أن يوصي بأكثر من ذلك، لأن في ذلك هضمًا لحقوق الوَرَثة. وإلى جانب ذلك فقد أمر الإسلام أنه لا وصية لوارث بل سينال الوَرثة من الميراث نصيبهم المحدد في الشريعة فقط، غير أنه يمكن الوصية لغير الوارث.

لقد حدد الإسلام في معظم الحالات نصيب المرأة بنصف نصيب الرجل، وحيثما حدد نصيبا متساويا بين الاثنين فقد فعل ذلك بناء على حِكمة معينة. يرى بعض الناس هذا الفرق جَورا على المرأة غير أن الحقيقة هي أن حقوق المرأة ليست مصونة إلى يومنا هذا إلا في الإسلام. الإسلام وحده أعطى المرأة حقوقها كاملة. والسبب في الفرق بين نصيب الرجل والمرأة عائد إلى أن الإسلام لا يحمّل المرأة مسؤولية النفقة، بل جعل الرجل مسؤولا عنها؛ ولما كانت مسؤولية الرجل المالية أكبر بكثير بالمقارنة مع المرأة استحقَّ نصيبا أكبر من الإرث؛ فهو المسؤول عن الإنفاق على الزوجة والأولاد. وبزواج المرأة يصبح زوجها مسؤولا عن نفقتها ونفقة الأولاد أيضا، وإن لم تتزوج- وهو أمر غير محبذ في الإسلام- فستكون وحيدة لا مسؤولية عليها. ولكن إذا تزوج الرجل، الأمر الذي يأمر الإسلام به، يصبح مطالَبًا بأن يتحمل الإنفاق على الزوجة والأولاد. فباختصار، إنّ جعْل نصيب الرجل من الإرث ضعف نصيب

المرأة منه ليس تسهيلا له أو إهانة للنساء بل جاء هذا الأمر نظرا إلى الظروف، ولا يعرِّض المرأةَ لأية خسارة بل ربما تستفيد أكثر من الرجل.

لقد أوجب الإسلام حقوق الوالدين على الأولاد، فأمر الأولاد أن يكرموهما ويطيعوهما ويتكفلوا حاجاتهما إذا هرما، وألا يجرحوا مشاعرهما بشكل من الأشكال، ولا يعاملوهما بقسوة، بل يجب أن يدعوا لهما ويسألوا الله خيرهما دائما.

وقد فُرضت حقوق الأخ على أخيه أن من واجب الأخ أن يعيل ويربّي أخاه اليتيم، وإذا كان بلا وارث فليرثه أخوه. والحقوق نفسها قد فُرضت على الأقارب الآخرين أيضا بأنه إذا لم يكن لشخص إخوة فعلى الأقارب من جهة الأب أن يكفلوه، وإن لم يكن له أقارب من جهة الأب فعلى الأقارب من جهة الأم أن يكفلوه، وإذا مات وليس له وريث فليرثوه أيضا.

وبعد العائلة تشمل الربوبية الجيرانَ والمواطنين؛ فيقول الإسلام: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1]. إن أساس الحضارة مبني على العلاقات الطيبة بين الناس وخاصة على كفالة الفقراء والمساكين إذ هم الإخوة. فقد بيّن الإسلام حقوق جميع طبقات المجتمع وأقامها على أسس متينة.

لقد فرض الإسلام كفالة اليتيم على المجتمع وطلب من الأغنياء أن يربّوهم كما يربّون أولادهم. ومسؤوليتهم الثانية هي أن المساكين الذين لا يقدرون على العمل بسبب فقرهم فليساعدوهم ويهيئوا لهم فرص العمل. ثم توجه إلى أصحاب المال والثروة من الجيران، سواء كانوا يسكنون بالقرب أو بعيدا في

[1] سورة النساء: ٣٧

ضواحي المدينة أو في مدينة مجاورة أخرى، فقال بأنه يجب أن تعاملوهم بالحسنى حتى يسود الحب وتتقوى العلاقات.

ثم قال إن للشركاء في العمل حقا خاصا سواء كانوا زملاء في العمل أو شركاء في التجارة أو المهنة لذا يجب مساعدتهم أيضا بشكل خاص.

لستُ مع نقابات العمّال وأصحاب المهن والحِرف لأنها ليست إلا نتاج حضارة الغرب حسب رأيي، ولو نُفِّذت قوانين الحضارة الإسلامية لتم أداء حقوق العمّال بأحسن وجه دون اللجوء إلى هذه النقابات. أرى أنه قد أشير هنا إلى نوع من المواساة والمشاركة، ويأمرنا الإسلام أنه يجب على المشتركين في عمل أو مهنة أن يتعاونوا ويساعدوا بعضهم بعضا بشكل خاص[1].

وقد أمر الإسلام أخيرا أن من واجبكم أن تحسنوا إلى المسافر لأنه يكون بعيدا عن الأهل والأقارب. وليس المراد هنا أن تحسنوا إلى المسافر الفقير فقط بل لا بد من معاملة المسافر بشكل عام معاملة حسنة مهما كان غنيا وثريا، حتى تتوطد أواصر الحب والود بين أهل المناطق القريبة والبعيدة، ولكي يستتب الأمن.

ثم يقول الإسلام عن العلاقات بين الكبار والصغار: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا"[2]. وفي ذلك تعليم مبدئي عن العلاقات بين المعلم والمتعلم، والسيد والمسود وما شابهها من علاقات مماثلة.

ثم أعطى الإسلام تعليما عن علاقات الرجال والنساء بشكل عام فأمر أن على الرجال أن ينتبهوا جيدا إلى راحة النساء. فكان النبي ﷺ يجلس لفترة وجيزة بعد الصلاة حتى تذهب النساء بسهولة، وكان ينهض بعد انصرافهنّ،

[1] صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض.

[2] الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان.

وكان الصحابة أيضا ينهضون معه[1]. وإذا أركض الناسُ الإبلَ التي كانت تركبها النساء في السفر قال لهم النبي ﷺ: قواريرَ قواريرَ[2]؛ أي أن النساء لا يقدرن على تحمل المعاناة فعليكم أن تمشوا الهوينى حتى لا يعانين لأنهن كالزجاج فحذار أن تكسروه.

وأمر الأزواج ألا يدخلوا البيوت فجأة لدى العودة من السفر بل يجب أن يخبروا أهلهم قبل عودتهم حتى تجد المرأة فرصة لتنظيف بيتها وجسمها[3]. وأمر أيضا ألا تُفصل النساء عن أولادهن[4]. وفي ذلك بيان مبدأ عام أنه يجب ألا يُفصَل بين الأقارب بشكل عام، بل يجب إيجاد دواعي الوصل بينهم. ثم نهى عن كل ما يؤدي إلى قطع العلاقات وأمر ألا يتهم أحد غيره، ولو فعل ذلك ثم لم يستطع إثباته لعوقب عقوبة قاسية جدا.

وكذلك يأمر الإسلام ألا يخطب أحد على خطبة أخيه[5]. وإذا عُلم أن أحدا قد تقدم للزواج من امرأة وكان غيره موقنا أنه إذا تقدّم هو بالطلب نفسه كان الأمل في نجاحه أكبر فعليه أن يلزم الصمت ما لم يؤخذ القرار في طلب المتقدم الأول.

قوانين التعامل العامة

الآن أذكر بعض الواجبات التي فرضها الإسلام على المواطن المسلم، فمنها أنه على كل شخص أن يأكل من كسب يده ولا يجلس عاطلا. فقد قال النبي

[1] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب صلاة النساء خلف الرجال.

[2] مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمة النبي ﷺ للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن.

[3] صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب طلب الولد.

[4] سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد.

[5] صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع.

ﷺ: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[1]

كذلك يجب على كل مواطن مسلم ألا يمد يد المسألة. فكان النبي ﷺ يهتم بهذا الأمر بشكل خاص وكان يمنع الناس دائما من السؤال[2]. لقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: لا يجوز السؤال إلا لثلاثة، الأول: الذي يحاول قصارى جهده التخلص من الفقر ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا أو لا يستطيع أن يعمل إطلاقا. والثاني: الذي حلت به آفة لم تكن في الحسبان، فيمكن أن يُجمَع المالُ من أجله. والثالث: الذي وقعت عليه غرامة قومية[3]. أي إذا سفك أحد دمًا مثلا وفُرضت على قومه غرامة فيسمح لهم بالسؤال.

ومن واجبات المواطن المسلم أن يسلِّم على كل من واجهه قائلا: السلام عليكم[4]؛ أي يسعى دوما لتحسين العلاقات بينه وبين الآخرين. وإذا كان الشخص الذي لقيه من معارفه أو أصدقائه فعلى المواطن المسلم أن يصافحه.

كذلك يجب على المواطنين المسلمين إذا مرض أحد من جيرانهم أو معارفهم أن يعودوه، ويطمئنوه. وإذا دخلوا بيتا فليستأذنوا وليسلموا على أهله. وإذا قال صاحب البيت للزائر بأنه لا يستطيع أن يقابله في ذلك الوقت فليعد بدون انزعاج. وإذا لم يجد في البيت أحدا فليرجع كذلك[5]. وإذا قيل أمام مواطن مسلم شيء ضد أحد فليستره ولا يبلغه إلى الشخص المعني، وإلا فيقول النبي ﷺ ما معناه أن مَثل القائل كمَثل الذي يوجه السهم إلى شخص ولكنه لا

---

[1] صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

[2] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.

[3] سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب من يسأل ولا يعطى، فضل من لا يسأل الناس شيئا.

[4] صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب إفشاء السلام.

[5] صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم ثلاثا والاستئذان.

يصيبه، أما الذي سمع منه هذا الكلام ثم أبلغه إلى الشخص فكأنه أخذ هذا السهم وطعن به من وُجِّه إليه السهم[1].

ومن واجب المسلمين أيضا إذا مات أحد أن يساعدوا أهله في إجراءات الكفن ويشيعوا الجنازة إلى المقبرة ويدفنوه[2]، ولكن ليس ضروريا أن يشيعه الجميع بل يكفي أن يفعل ذلك أناس على قدر الضرورة. ولكن لو لم يفعل ذلك أحد سيُعَد الجميعُ مذنبين. لقد ظل المسلمون يهتمون بأداء هذا الواجب إلى درجة أنه قد ورد في تاريخ الصحابة أنهم كانوا يشيعون جنائز غير المسلمين أيضا.

كذلك فُرض على المسلمين ألا يتفوهوا بما يتنافى مع الوقار ويؤذي الآخرين. يقول الله تعالى أنه من صفات المسلمين أنهم يمشون في الأسواق والأزقة بوقار. ذات مرة رأى النبي ﷺ شخصا يمشي لابسا حذاء في إحدى قدميه فقط فمنعه من ذلك وقال: إما أن تلبسه في كلتي القدمين وإلا فلا[3]. كما يجب على المواطنين المسلمين ألا يطرحوا القمامة في الطرق والأماكن العامة حيث يجتمع الناس. ولقد قال النبي ﷺ، إن الله يغضب على الذي يتغوط في الطريق أو تحت شجرة يستظل بها الناس[4].

على المسلم أن يحاول تنظيف الطرق والشوارع والأماكن العامة، ويساعد في ذلك قدر الإمكان. فقد ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنَّهْد والعروض.

[2] صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز، وباب من انتظر حتى تُدفن.

[3] مسلم، كتاب اللباس، باب اشتمال الصماء والاحتباء في ثوب واحد.

[4] سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب النهي عن الخلاء وعلى قارعة الطريق.

الله ﷺ قال: "بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له"[1].

ومن واجبه أيضا ألا يبيع شيئا ضارا، مثل الخضروات الفاسدة والنتنة، أو أشياء أخرى من شأنها أن تؤدي إلى تفشي الأمراض. ولا يكفي القولُ بهذا الصدد بأن الناس إنما يشترون تلك الأشياء بعد فحص وتدقيق فلا لومَ على البائع، بل من واجبه هو أن يهتم بصحة الناس وألا يبيع أشياء تضر بصحتهم.

كما يجب عليه ألا يتخاصم بصوت عال في الأماكن العامة كي لا يختلَّ أمن الناس. وعليه ألا يوسخ الأماكن العامة، أي يجب ألا يبول في الماء الراكد، ولا يرمي فيه الأوساخ، ولا يتفوه بكلام فاحش، ولا يقوم في الأماكن العامة بما يؤذي الآخرين كأن يمشي عريان أو ما شابه ذلك.

ثم يعلّمنا الإسلام أن من واجب المسلم أن يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة واللين واللطف حتى لا يبتعدوا عن الحق ثائرين. ومن واجبه أن يعلِّم الناس علومه، ولا يخفي عنهم علمَه بل يفيدهم به لأن النبي ﷺ يقول بأن الذي يخفي علمه عن الناس ويكتمه عن طالبه يأتي يوم القيامة وفي فمه لجام من نار[2]، ولكن ليس المراد من ذلك أن يكشف العلماء للناس ما يقومون به من اكتشافات جديدة دون أن يجنوا منها منفعة بأنفسهم، وإنما المراد ألا يدَعوا العلم يضيع من الدنيا ولا يخفوه، ولا بأس في استفادتهم من اكتشافاتهم. والمعلوم أن قواعد تسجيل مثل هذه الأمور في الدوائر الحكومية في العصر الراهن قد فتحت باب صيانة الاختراعات والاكتشافات على مصراعيه.

ثم على المسلم أن يكون شجاعا غير ظالم، فلا يظلم الضعفاء أو النساء أو الصغار أو غيرهم حتى الحيوانات. فقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه مرَّ

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر.

[2] مقدمة ابن ماجه، باب من سئِل عن علم فكتمه.

بنفر قد نصبوا دجاجة يتراموها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن مَن يفعل هذا[1]. أما الصيد فليس ممنوعا في الإسلام.

فما أروع هذا الحكم الذي جاء به الإسلام منذ ١٣ قرنا ولكنه لم يجد طريقه إلى أذهان أهل بعض البلاد المتحضرة إلى اليوم. كان هناك فيما مضى حركة في بعض البلاد الغربية لجعل الحمائم الحية دريئةً للسهام، حتى أوقفتْ جبرًا في بعض البلاد.

وقد ورد أيضا أن النبي ﷺ رأى حمارا وقد وُشِم وجهه، فاستنكره ﷺ بشدة وقال إن الحيوان يتأذى بالوشم على الوجه، لذا يجب أن تفعلوا ذلك على الساق. وبعد أمر منه ﷺ راجت عادة الوشم على الساق[2]. وذات مرة رأى النبي ﷺ أن شخصا التقط أفراخ حمامة، فقال لهم: لا تؤذوها بأفراخها وأطلقوا سراحها. وقال أيضا: رحم الله شخصا يرحم الحيوانات ويطعمها إذا جاعت ويسقيها إذا ظمئت[3].

كذلك من واجب المسلم ألا يوقع حياة الآخرين في خطر بشكل من الأشكال. فقد قال النبي ﷺ: إذا تفشى الوباء أو المرض في منطقة يجب ألا يسافر أهلها إلى مناطق أخرى والعكس صحيح[4]. فما أروع هذا الحكم الذي أصبح العالم يتبناه اليوم بما يعرف الحجر الصحي بينما جاء به الإسلام منذ بدئه. لو عمل الناس بهذا المبدأ لما احتاجوا إلى محجر صحي ولا إلى مراقبة الحكومة ولاختفت الأوبئة تلقائيا.

---

[1] مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم.

[2] مسلم، كتاب اللباس، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه.

[3] سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب.

[4] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

من واجب المواطن المسلم أيضا أنه إذا وجد جاره في مشكلة ما، وكان يملك مالا، أن يقرضه من ماله بقدر ضرورته، ويجب ألا يقوم بالعد والحساب له لاسترجاع ماله إذا كان المستدين في مشكلة بل يجب أن يتحلى برحابة الصدر ومكارم الأخلاق ويساعد الناس في أوقات الضيق والشدة، بل يجب أن يعُدّ مساعدة إخوته واجبة عليه. ويجب عليه أيضًا أن يكسب معاشه بالجهد والكد وليس أن يقرض الناس في مشاكلهم ويستغل ظروفهم.

من واجب المسلم أيضا أن يكون مستعدا للتضحية المالية في سبيل قومه وبلده، ولا يقصّر في أداء مسؤولياته. فقد قال النبي ﷺ: "من قُتل دون ماله فهو شهيد"[1]. ويقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[2].

والواجب على المواطن المسلم إذا رأى إنسانا يشرف على الهلاك أن ينقذه، وإلا حلَّ به سخط الله وغضبه الشديد. ولقد قال النبي ﷺ ما معناه: إذا رأى أحد شخصًا يُقتَل ولا يحاول إنقاذه ويتفرج صامتا فعليه لعنة الله[3]. إذًا، فإن إنقاذ الغريق وإطفاء الحريق ومساعدة المنكوبين عند حدوث الزلازل والانفجار في المناجم وانهيار البيوت، والحوادث ونزول الصواعق، وإنقاذ حياة الناس حيثما كان ممكنا واجب على كل مواطن مسلم، وإلا سيسأل عند الله، ولن ينال فضل الله تعالى.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب المظالم والقصاص، باب من قُتل دون ماله فهو شهيد.

[2] سورة النساء: ٧٦

[3] كنـــز العمال، كتاب الأخلاق، باب النصرة والإعانة.

كما يجب على المواطن المسلم ألا يصوب الأسلحة إلى أخيه ولو مزاحًا، هذا ما أمر به النبي ﷺ عن الأسلحة الحديدية[1]؛ وهو ينطبق على المتفجرات والقنابل بشدة أكبر. ونرى أن إهمال هذا الأمر يتسبب في إزهاق مئات النفوس خطأً.

ومن واجب المواطن المسلم ألا يستسلم لليأس ولا يقنط بل يصمد في وجه المصاعب والمصائب كجبل شامخ. فلو واجهته عواصف المصائب وزوابع الآفات فعليه ألا يهابها بل يحاول التغلب عليها ويذلل المصائب ويشق لنفسه طريق النجاح أو أن توافيه المنية، وألا ينتحر ليتهرب من مسؤولياته جُبنا لأن دينه يحظِّر الجبن ويعلِّمه أن يكون شجاعا باسلا.

هكذا يجب أن تكون سيرة المواطن المسلم، ولكن ليس المراد من المواطن مسلما يتطلع أو يرنو إلى الغرب كالعطشان متناسيا دينه. بل المراد هو المسلم الذي وُجد قبل ١٣ قرنا وقد أعاده المسيح الموعود عليه السلام إلى هذه الدنيا مجددا.

الأحكام في الأيتام

بعد سرد بضعة من واجبات المسلم أبين الآن الأحكام التي تشكل جزءا مهما جدا للتمدن ولكن الناس لا يهتمون بها بوجه عام، وأقصد منها حقوق الأيتام. الحق أنه لا حياة لقوم ولا بقاء ما لم يهتموا بأيتامهم كما ينبغي. ولقد بيّن الإسلام أحكاما تتعلق بهذه الشريحة من المجتمع أيضا بكل وضوح.

فقد أمر أن يُعيَّن لهم وليٌّ أمر من أقرب أقاربهم الموجودين وأن تُصانَ أموالهم صيانة كاملة. وإذا كان ولي أمرهم فقيرا فيمكن أن يعطَى راتبا شهريا بقدر مساعيه، أما إذا كان ثريا فليعمل بدون أن يتقاضى شيئا. يجب ألا يبقى الأيتام بدون تعليم بل ينبغي تعليمُهم الحِرف حسب الظروف أو بحسب مهن

[1] مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم.

الآباء أو بحسب ميولهم ورغباتهم. ثم يجب الانتباه جيدا إلى أخلاقهم، فلا يُطلَق لهم العنان حتى تفسد أخلاقهم، ولا يُشدد عليهم حتى تخمد مؤهلاتهم الطبيعية فيفقدوا القدرة والرغبة في التقدم والرقي. كما يجب معاملتهم باللطف والرأفة بشكل خاص لأنهم يكونون مرهفي العواطف والمشاعر لحرمانهم من أغلى نعمة في العالم ألا وهي حب الوالدين. وعندما يبلغون سن الرشد يجب على الحكومة أن تراقب مؤهلاتهم العقلية والذهنية. فإذا وَجدت، أو حينما تجدهم قادرين على حماية أموالهم فلتسلِّم إليهم أموالهم. ولكن إذا وُجد في عقلهم خلل أو ضعف وكانوا غير قادرين على صيانة أموالهم فلا تُسلَّم إليهم أموالهم وعقاراتهم بل تبقى تحت الإشراف والرعاية، ومنها تُدفع نفقات طعامهم ولباسهم وغيرها.

الأمور المالية والتجارية

من أهم فروع الحضارةِ العلاقاتُ المالية بين المواطنين، لأن الإنسان يتعرض بين حين وآخر لمواقف يكون فيها محتاجا إلى مساعدة الآخرين، ولما كانت حالته هذه مؤقتة، لذا يودّ أن يعيد تلك المساعدة إلى صاحبها حين يتحسن وضعه. والإسلام يعالج هذه الحالة بالقرض أو الرهن. أي إذا كان هناك شخص محتاجا إلى المساعدة المالية فليعطه الأثرياء قرضا- حسب مقتضى الضرورة ونظرا إلى قدرته على التسديد- سواء بصورة رهن مقبوض أو غيره. وفي هذا الصدد أمر الإسلام أن تُكتَب معاهدة القرض. وهذا ليس أمرا اختياريا بل جعله الإسلام واجبا، لأن كثيرا من المفاسد تتطرق إلى المجتمع عن طريق الخصومات الناتجة عن القروض. فيأمر الإسلام بأن المقترض إذا كان غير متعلم ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ[1]، كما يجب أن تحدد المدةُ لتسديد الدَّين لأننا نرى أن

[1] البقرة: ٢٨٣

الخصومات تطل أحيانا برأسها بسبب عدم كتابة العقد إذ يظن الدائن أن دَينه سوف يعاد إليه عاجلًا بينما يحسب المستدين أن يعيده آجلًا. يأمر الإسلام أنه يجب على المستدين أن يدفع الدَّين في الوقت المحدد. ولكن لو أصبح غير قادر على ذلك لأسباب قاهرة خارجة عن سيطرته أو كان ذو عسرة فليعطه الدائن مهلة إلى ميسرة. ولكن إذا تعرض الدائن أيضا لظروف صعبة واحتاج إلى استعادة أمواله من المستدين فليساعده في ذلك أحد المواطنين ويجمع الأموال من أصحاب الرخاء والميسرة في المنطقة ويسد الدين نيابة عن المستدين بشرط أن يكون قد تعرَّض لضرورة حقة دون أن يكون في ذلك دخل لغفلته أو سوء سلوكه. وإذا مات المستدين قبل تسديد الدَّين فسيُدفع الدَّين من إرثه، ولو لم يترك ورثة أو عقارا فليدفع عنه أقاربه، وإن لم يكن له أقارب أيضا فلتدفعه الحكومة.

فبإلقاء مسؤولية دفع القروض على الحكومة في ظروف معينة قد جعل الإسلام أمور القرض سهلة جدا. فهكذا قد سهلت على الأثرياء مساعدة إخوهم الفقراء، ولا يمكن لأحد أن يستغل هذه السهولة لأنه أولا: لن يضع أحد في الاعتبار عند تسليم ماله لأحد أنه لو مات المستدين دون تسديد الدَّين لدفعته الحكومة. وثانيا: إن الحكومة أيضا ستنظر فيما إذا كان الدَّين قد أُخِذ لضرورة حقيقية، وهل كان السبب وراء عدم دفع المستدين دَينه اضطرارا حقيقيا أم لا؟ إذًا، لـمّا كان الدائن خائفا دائما بصدد استعادة قرضه فلن يعطي أحدا إلا إذا كانت هناك ضرورة حقة فعلا.

ثم يأمر الإسلام ألا يبيع التاجر سلعة يعرف أنها رديئة المواصفات، ولو بدت جيدة المظهر. كذلك لا يجوز للبائع أن يخفي عيوب سلعته. فمثلا إذا كان القمح مبللا فلا يحل له أن يخفيه بوضع القمح الجاف فوقه. وكذلك لا يحل له- على سبيل المثال لا الحصر- أن يخفي القماش المعيب على المشتري بل

عليه أن يظهر عيبه على الزبون. ولو باع أحد سلعته المعيبة بدون إظهار عيبها للزبون لكان من حق الزبون أن يعيدها إلى صاحبها ويستعيد ماله. وهناك تعليم آخر أيضا عن البيوع أنه إذا أُبرِم البيع ودُفع السعر فلا يُفسَخ البيع بعد ذلك.

كذلك يمنع الإسلام من وضع سعرينِ لسلعة واحدة، فمثلا لا يجوز للبائع أن يعطي للتجار الأذكياء وأصحاب الخبرة سلعة أكثر وللأغرار وعديمي الخبرة أقل نسبيا. مما لا شك فيه أنه من حق البائع أن يعين لسلعته سعرا كما يحلو له، ولكن لا يحق له أن يتقاضى للسلعة نفسها سعرا مختلفا من مختلف الزبائن. أما إذا كان الزبون على صلة شخصية وحميمة مع التاجر مثل الأقارب والمعلِّم أو التاجر الجار فيمكنه أن يعامله معاملة خاصة.

كذلك يأمر الإسلام التاجرَ إذا أبرم صفقة أن يكتبها أو ليستشهد عليها شهودا، حتى لا تكون للبائع فرصة أن يبيع السلعة لأحد ثم يتهمه بالسرقة أو يطالب بثمنها مرة ثانية، أو يبيع شيئا مسروقا مثلا فيؤخذ المشتري ويُتَّهم بالسرقة فينكر البائع أنه قد باعه. فالإسلام يضع حدا لكل هذه الاحتمالات.

ويأمر الإسلام أيضا إذا اشترى أحد سلعة ما ألا يبيعها دون وزنها وفحصها جيدا لأن ذلك قد يؤدي إلى نشوب الخصومات. والسبب في ذلك أن السلعة تكون قد بيعت كما هي مرتين لزبونين مختلفين وفي حالة الخصومة يحمِّلُ كل واحد منهما الآخر المسؤولية. ولذلك يقول الإسلام ألا يبيع تاجران السلعة ذاتها تباعًا دون وزنها وفحصها جيدا.

كذلك يأمر الإسلام ألا يُرفع السعر بالتنافس الزائف. والمراد من ذلك أنه لا يجوز أن ينبري حليف تاجر مثلا في المزاد العلني فيعلن جاهزيته على دفعه سعر السلعة عاليا خادعا الزبائن الآخرين أن سعرها قد ارتفع في السوق وأن الناس جاهزون لشرائها بسعر أغلى.

من أوامر الإسلام أيضا ألا يُقابَل التجار الأجانب خارج المدينة بل يجب أن يعطَوا فرصة لاستعراض السوق وفحصها أولا حتى يعرفوا الأسعار السائدة فلا يتعرضوا لخسارة ولا يحدث أي خلل أو فساد في البيع.

ويمنع الإسلام بيع المجازفة بل يأمر أن يكون البيع عن بصيرة سواء أكان يقوم به أحد بنفسه أو عن طريق ممثل له، ولكن يجب ألا تُشترَى أو تباع السِّلع بالمجازفة مثل القمار أو بالأزلام. فهكذا قد وضع الإسلام حدا للطرق غير الطبيعية للتجارة الرائجة في هذه الأيام باسم الـــ "يانصيب" التي لا يسع عاقلا إلا أن يقول بأنها منافية للفطرة الصحيحة. لا شك أنها نوع من القمار وشنيعة كشناعة أدنى نوع من القمار.

أحكام المؤتمرات والمجالس والولائم وآدابها

سأبين أقسام العلاقات المتبادلة التي يمكن أن نسميها بالعلاقات العائلية، وهي تتعلق بالمجالس والولائم أو الاحتفالات وآدابها. مما لا شك فيه أن معظم الأمور العائلية إنما تتم عادة من خلال المؤتمرات والمجالس والولائم ولها تأثير كبير وعميق على المجتمع. لذا أرى بيان أوامر الإسلام المتعلقة بها أيضا ضروريا.

يأمر الإسلام بصدد الولائم أن الذين يُدعَون إليها يجب أن يقبلوا الدعوة قدر المستطاع لأن الدعوة تزيد الفريقين حبا، ورفضها دون مبرر يقطع أواصر الحب. ثم يأمر الإسلام ألا يحضر الوليمة من لم يُدعَ إليها، وإذ رافق المدعوَّ إليها غيرُه فليستأذن المدعوُّ المضيفَ أولا. ويأمر الإسلام أيضا ألا يحضر المدعُوُّون قبل الموعد، ويهتموا بالنظافة ويغسلوا أيديهم قبل الأكل، ولا يأكلوا مظهرين الجشع، وليأكلوا مما يليهم، ولا يعيبوا الطعام ولا يمتدحوه بما ينم عن الخساسة والتملق. وإذا فرغوا من الأكل فليغسلوا أيديهم وليدعوا لصاحب البيت وأهله الذين تحملوا المشقة في إعداد الطعام، ويسألوا الله فضله وبركاته لهم. ولا يطيلوا

الجلوس بعد الطعام- إلا إذا طلب ذلك صاحب البيت- بل ينصرفوا بعد الأكل.

أما بالنسبة إلى المؤتمرات والمجالس والمنظمات فيصنفها الإسلام إلى ثلاثة أنواع مفيدة.

أولا: ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾[1]؛ أي المنظمات التي تهتم بالفقراء والمحتاجين وترعاهم. ثانيا: ﴿أَوْ مَعْرُوْفٍ﴾ أي التي تؤسَّس من أجل البحوث العلمية ولترويج العلوم والفنون وإشاعتها. ثالثا: ﴿أَوْ إِصْلاحٍ بين النَّاسِ﴾[2] أي المنظمات التي تؤسَّس لردع الخلافات والخصومات، عائلية كانت أو على مستوى البلد أو القوم أو على المستوى الدولي، أو تتعلق بإدارة النظام السياسي في البلاد والأمم لأن ذلك أيضا يؤدي إلى الإصلاح.

الأمر الأول الذي يشير إليه الإسلام هو أن عددا هائلا من الناس يجتمعون في المؤتمرات والمجالس، وكثرة الأنفاس في مثل هذه المناسبات تسبب رائحة كريهة، لذا عليهم ألا يزيدوا تلك الرائحة بأكلهم شيئا كريه الرائحة مثل الثوم والبصل، ولا يدخّنوا السجائر والنارجيلة وما شابهها قُبيل حضور المجالس والاجتماعات حتى لا يتسببوا في إيذاء الآخرين.

الثاني: يجب أن يهتموا بالنظافة جيدا مثل الاستحمام واستخدام العطور قبل الحضور إلى هذه الأماكن حتى يؤدي ذلك إلى النشاط في الطبائع ونظافة الجو المحيط.

الثالث: يجب أن يوسعوا دائرة الجلوس لكيلا يتأذى البعضُ من تنفس الآخر.

---

[1] سورة النساء: ١١٥

[2] سورة النساء: ١١٥

الرابع: إذا كان أحد مصابا بمرض معد فلا يذهب إلى الأماكن العامة التي يجتمع فيها الناس عادة لأن في ذلك خطر عدوى الآخرين. لقد جاء تأكيد شديد على هذا الأمر لدرجة أن سيدنا عمر ﵁ رأى مجذوما أثناء الحج فمنعه من ذلك وقال له: يجب أن تكثر الجلوس في البيت ولا تذهب إلى مواضع اختلاط الناس لكي لا يصاب الآخرون بالمرض.

الخامس: إذا وقف أحد للكلام فليتوجه الجميع إليه ويستمعوا له ولا يقطعوا كلامه، ولا يشغبوا أثناء كلامه مهما كان ينافي طبائعهم.

السادس: عليهم أن يلتزموا الهدوء والوقار عند الحديث، ولا يتحدثوا بحيث لا يفهم الآخرون كلامهم.

السابع: إذا حضر أحد المجلس فليوسعوا له.

الثامن: إذا احتاج أحد أن يخرج من المجلس فلا يخرج إلا بعد استئذان رئيس المجلس.

التاسع: إذا خرج أحد من المجلس مؤقتا وهو ينوي الرجوع إليه فلا يجلس مكانه أحد.

العاشر: إذا كان بعض الناس جالسين مجتمعين وعُلِم أنهم جالسون لغرض معين فلا يجلس بينهم أحد وإن وُجد في المجلس مكان شاغر.

الحادي عشر: إذا كان في المجلس ثلاثة أشخاص فلا يتحدثنّ اثنان منهم بطريقة توحي إلى الثالث بأنهما يتحدثان عنه.

الثاني عشر: أن يتحدثوا كل بدوره ولا يبدأوا بالكلام مرة واحدة عشوائيا.

الثالث عشر: عندما يبدأون بالكلام فليخاطبوا رئيس المجلس.

هذا بيان وجيز لأحكام التمدن والحضارة كما وضّحها لنا رسول الله ﷺ من خلال تبيانه المبادئ الإسلامية أو أخذناها مما بيّنه الإمام المهدي ؑ. فهذه

هي الصورة الصحيحة للحضارة الإسلامية وهي الصورة الحقيقية للأحمدية. وبعد بيان أحكام الحضارة الإسلامية حول الحياة العائلية، أتناول الآن أحكام الإسلام حول العلاقات بين الحكومة والرعية، أو بين الفقراء والأغنياء.

النوع الثاني من الحضارة

الأحكام في العلاقات بين الحكومة والرعية، وبين الأثرياء والفقراء

عندما أستخدم تعبير "الأثرياء والفقراء" لا أقصد من الفقراءِ المضروبين بالمجاعة الذين يعيشون على صدقات الآخرين ومنتهم عليهم، بل أقصد أولئك الذين لا يملكون من الثروة ما يسمح لهم أن يجعلوا فئة من الناس تحت إمرتهم. ولقد انتقيتُ التعبير "الأثرياء والفقراء" قصدا لأن الموضوع الذي أريد بيانه لاحقا لا يمكن توضيحه جيدا إلا من خلال هذه الكلمات.

إن أول سؤال ينشأ في هذا النقاش هو: ما هي الحكومة عند الإسلام؟ وجوابه أن المراد من الحكومة عند الإسلام هو شخص يمثِّل القوم، ويسلِّم إليه الناس عملية الإشراف على حقوقهم المشتركة بينهم. وليس هناك مفهوم آخر سواه يوافق وجهة النظر الإسلامية. ولا يعترف الإسلام بأي نوع من الحكومة إلا حكومة التمثيل والنيابة. لقد بين القرآن الكريم هذا المفهوم بكلمة غريبة، ألا وهي "الأمانة". الإسلام يعتبر الحكومة أمانةً، أي السلطة التي سلَّمها الناس إلى أحد، وليس التي تولاها هو بنفسه أو ورثها كابرا عن كابر. وهذه الكلمة الوحيدة كافية لبيان كافة جوانب الحكومة عند الإسلام.

لم يُبدأ ذكرُ الحكومة في القرآن من الحاكم ثم ساقه إلى الرعية بل بدأه من المواطنين وساقه إلى الحاكم. أظن أنه لا يمكن الاستمتاع بهذا المبدأ كما هو حقه ما لم أذكر الآية التي تتناول ذكر الحكومة الإسلامية وواجباتها بكلمات

وجيزة وجامعة في الوقت نفسه، فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1]، أي يأمر الله تعالى الرعية أو الناس أن يسلِّموا أمانة الحكومة لمن هم أهلٌ لها وأحق بها، ثم يأمر الحكامَ إن تولوا الحكم أن يحكموا بالعدل والقسط.

فأولًا؛ وُجِّه الخطاب في هذه الآية إلى عامة الناس، وقيل إن انتخاب الحكام في أيديكم، ولا يقدر أحد سواكم أن يجعل أحدا حاكما عليكم. إذًا، فلا يجوز لأحد أن يصبح حاكما بالوراثة يرث الحُكم كابرا عن كابر، ولا يحق لأحد أن يضع نير حكومته على رقاب الناس لمجرد كونه ابنا لشخص معين. ثانيا؛ بعد ذلك قيل في الآية نفسها إن واجبات الحكومة وحقوقها شيء ثمين وخطير مثل الأمانة، فلا تسلِّموها إلى شخص ليس أهلا لها بل يجب أن تؤدوها إلى مَن يقدر على أدائها بأمانة وإخلاص.

الأمر الثالث هو أنه لما كانت الحكومة ليست دائمة ومستقلة في حد ذاتها بل هي اسم آخر لتسليم الحقوق إلى شخص معين لأن عامة الناس لا يستطيعون أداءها فُرادى لكون كثير منهم شركاء فيها؛ لذا يجب أن تحسبوها أمانة عندكم لأن مجموعة الحقوق والواجبات التي تسمى الحكومة، هي ليست مِلكا لشخص معين، بل هي ملك عام للجماعة كلها.

الأمر الرابع موجَّه إلى الحاكم، وهو أنه لما كان كل ما سُلِّم إليه يُعَدّ أمانة فلا بد أن يعيدها عند موته محفوظة مصونة دون أن يصيبها فساد أو دمار، أي يجب عليه رعاية واجبات الحكومة وحماية حقوق المواطنين بكل معنى الكلمة، ولا يحل له أن يسيء استخدام هذا الحق.

[1] سورة النساء: ٥٩

الأمر الخامس الذي يتبين من هذه الآية هو أن على الحكام أن يؤدوا حقوق المواطنين على أحسن ما يرام أثناء فترة حكمهم ولا يعثوا أيّ فساد. يُستنبط من هذه الآية أن الضعف سوف يتطرق إلى المسلمين في هذا الصدد وسيلجأون إلى الملوكية مرة أخرى تقليدا للأمم الأخرى. ولكن الله تعالى يقول إننا ننصحكم ألا تقربوا الملوكية الوراثية، بل يجب أن تختاروا للحكومة أناسا هم الأكثر فطنة وذكاء، وذلك عن طريق الانتخاب. واعلموا أن الحكومة المنتخَبة على هذا الأساس تكون هي الأفضل والأنفع. واعلموا أيضا أن الله سميع بصير، أي أننا قد أخبرناكم بهذا الأسلوب لاختيار الحكومة نظرا إلى مصائب الدنيا واستجابة لأدعيتهم، فلا تستهينوا به ولا تقللوا من شأنه وقدره.

فتبيَّن من الآية المذكورة أن الحكومة في الإسلام تأتي إلى حيز الوجود نتيجة الانتخاب، وإلى جانب ذلك تكون ممثِّلة أيضا؛ أي أن حاكم البلد يمثل مجموع الناس وليس الأفراد. والآن أبين ملامح الحكومة الإسلامية بالاختصار حتى تبرز جميع جوانبها في الأذهان.

يأمر الإسلام أن ينتخب الناس شخصا يرونه مناسبا ليتولّى زمام الحكومة. إن انتخاب هذا الشخص لا يكون لبضع سنوات كما في البلاد الغربية بل يكون لمدة عمره. وبعد الانتخاب لا يستطيع أحد عزله من منصبه إلا الله، أيْ بوفاته. تتمركز في يده جميع الصلاحيات والقدرات التي تحظى بها الحكومة. ولكن من واجب هذا الشخص أن يبذل حياته كلها لصالح البلد والقوم وليس لإحراز العظمة والكبرياء لنفسه. ولا يحق له أن يتصرف في أموال بيت المال إلا إذا أراد إنفاقها لسد حاجات البلد، ولا يستطيع أن يعيّن معاشه أيضا بنفسه بل يجب أن يعينه مجلس الشورى. وعليه أن يعرف بين حين وآخر الرأي العام للمواطنين عن طريق مجلس الشورى، وإذا دعت الحاجة يجب أن يعرف رأي جميع أفراد البلد بالاستفتاء العام ليعلم رأي الشعب إذا خالف رأيُهم رأيَ

ممثليهم. ويُتوقع منه أن يحترم رأي الأغلبية. ولكن لما كان أرفع وأسمى من المحاباة السياسية، وليست له مصلحة شخصية في الحكومة فهو موثوق به لأن رأيه يكون بعيدا عن التعصب والتحزُّب حتما، ولأن جُلّ اهتمامه يكون منصبًّا على مصلحة البلد والقوم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون الحاكم موثوقا به لكونه ممثلا للرأي العام في البلد كله. ثم يعِد الإسلامُ أن يكون تأييد الله الخاص ونصرته حليفه، ولذلك أعطِي صلاحية رفض رأي المستشارين وأعضاء الشورى إن مستّ ضرورة حقة، وهو مخوَّل بذلك. فهو مخيَّرٌ بمعنى أنه يستطيع أن يرفض رأي الشورى، وهو مسيَّرٌ بمعنى أنه يعمل تحت نظام أقامه الإسلام ولا يستطيع تغييره. ومطلوب منه ألا يأخذ قرارا بدون المشورة، وأن يحمي الحكومة من أن تصبح وِرْثَة يرثها الناس كابرا عن كابر. وهو منتخَب؛ بمعنى أن الله تعالى هو الذي يرشد الناس في انتخابه ويهديهم، وهو يمثّل الناس؛ بمعنى أنه يُتوقع منه ألا يخالف رأي الأغلبية إلا لأسباب قاهرة بكل معنى الكلمة. ولا يتصرف في بيت المال لضرورة شخصية. وإنه يحظى بقوة سماوية، بمعنى أنه لا يُعزَل، ويحظى بتأييد الله تعالى ونصرته الخاصة.

إضافة إلى المبادئ والأحكام المذكورة آنفا لم يذكر الإسلام تفاصيل انتخاب أعضاء مجلس الشورى وحكّام الولايات قصدا ليؤخذ القرار بهذا الخصوص حسب مقتضى الأمر وحاجة العصر، ولتتاح للناس فرصة للتأمل والتفكير في القضايا الفرعية، فتتسنى لهم فرصة التقدم والرقي الذهني، الأمر الذي لابد منه لارتقاء العقل الإنساني. فيقول الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾[1]، أي لا تسألوا رسولكم كل التفاصيل لأن الله تعالى ترك ذكر بعضها عمدا ليبقى مجال اجتهادكم مفتوحا. فلو بيّن القرآن جميع الأمور

[1] سورة المائدة: ١٠٢

بالتفصيل و لم يترك فرصة لارتقائكم الذهني وتقدمكم العقلي لأحرجكم ذلك ولسُدّت أبواب التقدم في وجهكم.

لا شك في أن هناك أساليب حكم مختلفة في العالم، ولكن كل مَن يتأمل أسلوب الحكم في الإسلام لا بد له من الاعتراف أنه لا أسلوب أفضل منه، فإنه من ناحية يشمل أفضل طريق للتمثيل، ومن ناحية ثانية هو أسمى وأرفع من تشكيل الأحزاب السياسية لأن الحاكم في الإسلام ليس بحاجة إلى دعم أو تأييد من حزب سياسي معين، فإنه يهتم بمصالح البلد فقط. فبسبب تعيينه لفترة العمر لا تُترك الأذهان ذات القدرات الخارقةِ عاطلةً بل كل مواطن يبقى منصرفا إلى خدمة بلاده إلى آخر أنفاسه.

الخليفة مخيَّر في انتخاب الولاة، ولكن لا بد من مراعاة رأي الناس في ذلك أيضا. إننا نرى أن هذا هو الطريق الأنسب للحكم، ونأمل مع انضمام الناس إلى الأحمدية أكثر أنهم سيعترفون طوعًا دون إكراه بروعة هذا الأسلوب في الحكم. وعندها يترك الملوك حقوقهم الوراثية بطيب خاطرهم من أجل مصلحة البلد والقوم، ويجعلون حقوقهم في نطاق محدد كحقوق المواطنين الآخرين.

وبما أن الله تعالى قد بعث المسيح الموعود عليه السلام بالخلافة الروحانية فقط لذا فإن خلافته ستكون مترفعة دائما عن السياسة قدر الإمكان حتى حين تنضم الحكومات إلى الأحمدية، يكون دور الخلافة كدور الأمم المتحدة، وستصلح العلاقات الدولية بالتعاون مع ممثلي البلاد المختلفة، وتنصرف هي إلى الإصلاح والرقي الديني والأخلاقي والتمدّني والعلمي حتى لا تجذبها السياسة إليها وتصرفها عن الأمور الهامة المتعلقة بالدين والأخلاق كما حدث في الماضي.

حين أقول "قدر الإمكان"، أقصد من ذلك أنه لو طلَب أهلُ بلد معين مساعدة مؤقتة لإزالة مشاكلهم لأمكن للخلافة الروحانية أن تدير أمورهم مؤقتا، ولكن لا بد من تحديد هذه العملية في أقصر فترة ممكنة.

حقوق الحكومة الإسلامية وواجباتها

بعد بيان ملامح الحكومة الإسلامية أتناول الآن الحقوق التي يمنحها الإسلام لها والواجبات التي يمليها عليها.

إن أول واجب يفرضه الإسلام على الحكومة هو مسؤوليتها في الاهتمام بمصالح الرعية وحاجاتها ووحدتها وأخلاقها وحمايتها ومعاشها وسكنها. فيقول النبي ﷺ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[1].

يتبين من هذا الحُكم أن الإسلام قد عدّ الحاكم مثل راعي الغنم الذي يسلِّم إليه القطيعَ صاحبُه. فمن واجبه أن يحميه من التشتت والتفرقة وهجمة الذئب، ويراعي صحته وغذاءه وسكنه ويهتم بجميع حوائجه. كذلك من واجب الحكومة الإسلامية أن تحمي رعيتها من الفُرقة والفساد وظلم بعضهم بعضا والهجمات الخارجية، وتهتم بجميع حوائجها سواء كانت تتعلق بالتعليم والثقافة أو التربية أو الطعام أو السكن أو الصحة أو غيرها.

هذا تعليم عام للحكومة الإسلامية، وإضافة إلى ذلك هناك واجبات مفصلة أيضا تقع عليها؛ منها أن من واجبها أن تهيّئ لكل مواطن طعاما ولباسا وسكنا. وهي من أدنى حاجات المواطنين التي يجب على الحكومة توفيرها لهم،

[1] صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن.

وبدونها لا يمكن أن تعيش الرعية التي وُكِّلت رعايتُها إلى الحكومة. من المعلوم أن الحياة الجسدية للإنسان مستحيلة دون الطعام والسكن كما تستحيل الحياة الأخلاقية والحضارية بدون اللباس.

الأحكام المبدئية، التي بيّنتُها قبل قليل، وفهْم المسلمين لها وعملهم بها حسب مقتضى حاجاهم المتجددة، كل ذلك سوف يتضح بحسب رأيي من خلال الأمثلة.

لقد قلتُ إن قضاء حاجات الناس، التي لا يستطيعون سدها بأنفسهم، واجب على الحكومة. ففي هذا الصدد رُوي حادث مؤثر جدا من زمن سيدنا عمر ﵁، وهو يوضح بكل جلاء حقيقة مسؤولية الحكومة الإسلامية. فقد ورد أن سيدنا عمر ﵁ كان ذات مرة يتفقد أحوال المسلمين ليلا ليعرف فيما إذا كان أحدهم في مشكلة فيرفع عنه معاناته. وفي أثناء ذلك وصل إلى قرية اسمها "مرار" وتبعد عن "المدينة" العاصمة ثلاثة أميال، فسمع صوت بكاء صِبية في أحد البيوت. ووجد أن سيدة تطبخ شيئا وحولها ثلاثة صبيان يبكون. سألها عمر ﵁: ما القصة؟ قالت: نحن جياع منذ ثلاثة أيام، ولا يوجد شيء للأكل. عندما اشتد اضطراب الصبيان وضعتُ قِدرا فارغا على النار حتى يتعللوا قليلاويناموا. سمع عمر ﵁ ذلك وانطلق إلى المدينة فورا وأخذ الدقيق والزيت واللحم والتمور ووضعها في كيس وقال لخادمه أن يحمِّله الكيس على ظهره. قال الخادم: أنا موجود يا سيدي لأحمله، فقال ﵁: لا شك أنك تستطيع أن تحمله عني اليوم، ولكن من سيحمل أوزاري يوم القيامة[1]. أي أن الاعتناء بطعامهم من واجبي أنا وأنا المقصر في أداء هذا الواجب وكفارته أن أحمل هذه الأشياء بنفسي وأوصلها إلى بيتهم.

[1] كنْز العمال، ج١٢ رقم الحديث ٣٥٩٧٨

ولأنه من المتعذر على شخص واحد أن يستطلع أحوال البلاد كلها، لذا كان الإحصاء العام يُجرى في الحكومة الإسلامية، ويُحفظ عدد الولادات والوفيات في سجلات. ولم يكن الهدف من وراء ذلك ملء خزائن الحكومة كما يحدث في عصرنا هذا بل كان الغرض تفريغها بتوزيع الأموال على المستحقين، لأن هذه السجلات كانت تساعد المسؤولين على معرفة أحوال البلاد بشكل عام، ثم توصَل المؤونات إلى المحتاجين.

ولكن الإسلام حين يأمر برعاية الفقراء فهو من جانب آخر- كما قلت آنفا- يقضي على التكاسل والتهاون أيضا. إذ لم يكن الغرض من المِنح أن يجلس الناس في البيوت عاطلين بل كان المحتاجون والمضطرون فقط يعطَون المنح، وإلا كان الناس يُمنعون من السؤال. فمرة رأى سيدنا عمر ﷺ سائلا وكانت قصعته مليئة بالدقيق، فأخذ الدقيق منه وأطعمه للإبل وقال للسائل: الآن تستحق السؤال[1]. فيثبت من هنا أن السائلين كانوا يُكرَهون على العمل بأيديهم.

والواجب الثاني الذي يقع على الحكومة هو إقامة العدل. فعلى الحكومة الإسلامية أن تقيم نظام قضاء قوي. وقد أكد الإسلام على هذا الأمر أيما تأكيد، وسنَّ للقضاء والمحاكم قوانين وأحكاما، بما فيها أن على القضاة ألا يجنحوا إلى أحد ولا يأخذوا الرشوة ولا يقبلوا الشفاعة في حق أحد، ويحكموا بالعدل بناء على الشهادة والبيّنة. عليهم أن يطلبوا البينة والشهادة من المدعي، واليمين من المدعَّى عليه، ويتبيّنوا الشهادة جيدا فيما إذا كان الشهداء جديرين بالثقة والاعتماد عليهم وليسوا من الكذابين والأوباش. وبالنسبة إلى القضاة أنفسهم فقد أمر الإسلام أن يكونوا أذكياء وأَكْفَاء لهذا العمل، وقال باحتمال

[1] "لست سائلا، أنت تاجر تجمع لأهلك"، تاريخ عمر بن الخطاب لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، طبعة مصر عام ١٩٣١م، ص١٧٠

خطئهم في الحكم، وبطبيعة الحال فإن الحكم في الخلافات بين الناس ليس إلا في أيدي الناس الذين ليسوا معصومين عن الخطأ، ولما كان عدم انتهاء الخلاف بين طرفين إلى نهاية مرضية مدعاةً للفساد فلا بد للفريقين من قبول حكم القاضي سواء بدا لهما صائبا أو لا. والذي يطعن في حكم القاضي ويهتك حرمة حكم دائرة القضاء لن يعَدّ مواطنا مسلما لأنه يوقع الخلل في نظام الجماعة. ولمساعدة الضعفاء والمفتقرين إلى العلم والثقافة لفهم مصالحهم، فقد أمر الإسلام بتشكيل لجنة المفتين الملمين بالقوانين، والشرط هو أن الحكومة وحدها مخوَّلة لتعيينهم ولا يسع أحدا أن ينصب نفسه مفتيا بنفسه.

ولقد أعطِيت الحكومة صلاحية لإصدار هذه القرارات وتنفيذها، وأُمِرت ألا تأخذها رأفة ولا محاباة في تنفيذ القرارات سواء كان القرار يتعلق بشخص كبير أو ضعيف وضيع، حتى قال النبي ﷺ: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[1]. وحدث أيضا أن عمر رضي الله عنه جلد ابنه بيده لجريمة ارتكبها[2].

من واجبات الحكومة أيضا أن تحافظ على شرف المواطنين وحريتهم. يقول الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]؛ أي اتخذوا إجراءات صارمة لحماية البلاد من اعتداء بلاد أخرى وانتبهوا إلى هذا الأمر دائما في حالة الحرب والأمن على حد سواء.

كذلك يجب على الحكومة أن تعمل لتوفير المرافق الصحية للمواطنين، فقد أمر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ في القرآن الكريم بتنظيف الشوارع والأماكن العامة وما

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع.

[2] كنْز العمال، ج١٢ رقم الحديث ٣٦٠١٤

[3] سورة آل عمران: ٢٠١

شابهها فقال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1]، وهذا يعني أنه إضافة إلى اهتمام المؤمنين بطهارتهم القلبية والجسدية يجب على الحكومة أن تهتم بالنظافة العامة. كان النبي ﷺ يعيّن بعض الصحابة ليقتلوا الكلاب الشاردة والمسعورة حتى لا تضر الناس[2].

كذلك من واجبات الحكومة الإسلامية أن توفر التعليم للمواطنين. لقد ذكر الله تعالى التعليم كواجب من واجبات النبي ﷺ فيقول: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[3]؛ أي من واجب الرسول أن يعلِّم المؤمنين الأوامر الضرورية وحكمتها. يجدر الانتباه هنا إلى أن المراد من الكتاب ليس القرآن الكريم وحده لأن القرآن الكريم لا يشمل علم الهيئة وعلم النبات وعلم التاريخ والأخلاق والطب وعلم الحيوانات وما شابهها بل يوجه أنظارنا إليها. ففي تعليم الكتاب وُجِّهت الأنظار إلى هذه العلوم أيضا. يقول النبي ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[4]. هذا ما اهتم به النبي ﷺ دائما إلى درجة أنه عقد عهدا مع المثقفين من أسرى معركة بدر أن يعلِّموا أولاد المسلمين فديةً لحريتهم بدلا من دفع المال لهذا الغرض.

كما يجب على الحكومة أن تساعد أصحاب المهن والحِرف الذين لديهم خبرة كافية ولكنهم يفتقرون إلى المال لمزاولة مهنتهم، فقد جعل الإسلام نصيبا من بيت المال لأناس مثلهم.

كذلك يجب على الحكومة أن توفر الأمن الداخلي للمواطنين، وهو فرض فرضه القرآن الكريم عليها، وشجب بشدة أولئك الذين يعيثون في الأرض

---

[1] سورة المدثر: ٦

[2] مسلم، كتاب المساقاة والمزارعة، باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه...

[3] سورة الجمعة: ٣

[4] سنن ابن ماجه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

فسادا. ويقول بأن الحكام الذين تسفر غفلتهم أو ظلمهم عن انتشار الفساد مسؤولون أمام الله تعالى. لقد صور رسول الله ﷺ ملامح الحكومة الإسلامية بأنه يمكن للمرأة أن تسافر وحدها في ظلها إلى مئات الأميال دون أن تخاف على نفسها من شيء[1].

من واجب الحكومة أيضا أن توفر الغذاء للمواطنين. لقد تم الاهتمام الخاص بهذا الأمر في زمن الخلفاء الراشدين؛ حيث كان الخلفاء يهتمون بأنفسهم بجمع المؤونات الغذائية للمواطنين، وإذا قلَّتِ الغلال في البلاد كان كل شخص يعطَى ورقة رسمية تؤهِّله لشراء الغلال من المخازن الحكومية، وذلك كي لا يتمكن بعض الناس من جمع الغلال واحتكارها أكثر من حاجتهم ويُحرم الآخرون.

كما يجب على الحكومة إصلاح الطرق بغية تسهيل الأسفار والتنقل من مكان إلى آخر. ففي صدر الإسلام حين لم تكن السيارات وما شابهها متوفرة وكان الناس يسافرون مشيا على الأقدام، فقد تقرر أن يكون عرض الشوارع عشرين قدما على الأقل. ولكن هذا العرض ذُكِر كمبدأ فقط أي يجب أن تكون الشوارع والطرق واسعة بشكل عام. أما في عصرنا الراهن فقد كثرت السيارات وما شابهها فلا بد من توسيع الشوارع والطرق حسب مقتضى الحال.

ومن واجب الحاكم أيضا أن يراقب الأخلاق السائدة في البلاد ويحسن الحالة الأخلاقية للناس بواسطة التعليم والتربية ولا يدعها تتدهور.

وأخيرا، قد فرض الإسلام على الحكومة واجبا آخر ألا وهو: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ أي أن تعلي شأن المواطنين وتسمو وتنهض بهم. والمراد من ذلك أن توفر لهم جميع إمكانيات التقدم والرقي. هذا الحكم العام يشمل حاجات كافة العصور،

[1] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

بمعنى أنه كلما اكتُشف علم من العلوم الجديدة وجب على الحكومة ترويجه وترغيب الناس في البحث والتحقيق عنه وحل المسائل المتجددة مع البقاء في دائرة الشريعة.

واجبات المواطنين

ومقابل واجبات الحكومة المذكورة آنفا فقد فرض الإسلام بعض الواجبات على المواطنين أيضا، وهي أن يكونوا ناصحين لحكومتهم ويتعاونوا معها ويطيعوا أوامرها طاعة كاملة وإن كانت تتعارض مع ميولهم ورغباتهم الشخصية. ومع أن الإسلام قد أعطى الحاكم أفضليةً من الناحية السياسية ولكن ليست له أية أفضلية من ناحية كونه بشرا. يحق له أن يصدر القرارات- بعد الاستشارة- لصالح البلاد، ولكن لا يحق له أن يحكم الناس بصفته الشخصية، وإن حصل خلاف شخصي بين الخليفة وغيره كخلاف مالي مثلا أو غيره فيجب على الحاكم أن يلجأ بشأنه إلى المحكمة كغيره من الناس دون أن يكون له خصوصية في هذا. فذات مرة حدث نزاعٌ بين الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه وبين أُبي بن كعب، ورُفعت القضية إلى القاضي الذي استدعى عمرَ رضي الله عنه. وحين وصل عمرُ رضي الله عنه المحكمة ترك القاضي مكانه احتراما له. ولكن عمر رضي الله عنه جلس مع الخصم وقال للقاضي: هذه أولى مظالمك، إذ لا فرق الآن بيني وبين خصمي بهذه المناسبة[1]. ولكن هذه القضايا تأخذ مجراها في أمور لا تتعلق بمنصب الخلافة.

العلاقات بين السيد والخادم

العلاقة بين السيد والخادم، قبل الإسلام، كانت كالعلاقة بين الملك والرعية. ولقد تغيرت النظرة إلى هذا الأمر في العصر الراهن إلا أن طبيعة هذه

[1] الفاروق، الجزء الثاني لشبلي نعماني ص٤٥ طبعة ١٨٩٨م.

العلاقة ما تزال ملحوظة عمليا. الإسلام يقدم حلا لهذه المشكلة وينص على مبدأ أن السيد يستثمر أمواله في حين يبذل الأجير أو العامل وقته ونفسه، لذا لا يحق للناس أن يتعاملوا مع العمال والأجراء مثل الملوك الجبابرة. وما دام الإسلام قد ألغى حقوق الملوك التي كانوا يتمتعون بها بحكم التقاليد والعادات، فكيف يمكن أن يجيز العلاقات غير العادلة بين السيد والخادم التي كانت سائدة في العالم قبل الإسلام؟ فيأمرنا الإسلام ألا يسب السيد خادمه ولا يضربه، بل يُلزِم السيدَ بالأمر نفسه بالنسبة إلى الرقيق أيضا ناهيك عن الخادم.

(أرى من الضروري أن أوضح هنا ضمنيا أن الناس قد أساؤوا الفهم كثيرا عن أحكام الإسلام حول الرقّ). فالإسلام لا يجيز الرقَّ كما تجيزه الأديان الأخرى. لا يجوز الاسترقاق في الإسلام إلا إذا وُجدت إحدى الأسباب التالية:

(١) إذا حارب قوم قوما ليردُّوهم عن دينهم قهرا.

(٢) إذا اشترك الذين استُرِقّوا، بصورة عملية، في حربهم الغاشمة التي هي بمنـــزلة حرب ضد البشرية جمعاء.

(٣) إذا لم يدفع المعتدون نفقات الحرب لقوم مظلومين أي لمن أرادوا ردَّهم قهرا عن دينهم الذي يعُدونه أغلى من نفوسهم.

فإذا لم تتوفر هذه الأمور، أي إذا كانت الحرب لأسباب دنيوية أو لم يشترك من استُرِقَّ في الحرب أو اشتركَ ولكنه مستعد لدفع نصيبه من نفقاتها، فإن الإسلام يعُد استرقاقه أو إبقاءه تحت الرق في هذه الحالة جريمة خطيرة. كل عاقل يستطيع أن يدرك أنه إذا حمل أحد سيفا ليكره غيره على ترك دينه الذي لا يحسبه الأخير نافعًا في دنياه فحسب بل مدعاةً لتقدمه ورقيه الأبدي بعد مماته أيضا، وإذا أُخذ ذلك المعتدي ورفض هو وقومه دفعَ نفقات الحرب التي تكبَّدها المعتدَى عليهم؛ فهو يستحق أن تُسلَب حريتُه. الحق أن الذي يريد أن ينشر الدين بقوة السيف ويتدخل في معتقدات الآخرين معتزا بقوته يعُدّه الإسلام

خارجا عن دائرة البشرية، ويَعدُّه خطرا كبيرا على البشر، فيحرمه الإسلام من حريته ما لم يُظهر ندامة حقيقية. يقول أحد الصحابة: كنا سبعة إخوة وكانت لدينا خادمة واحدة فلطمها أصغرنا، فأمره النبي ﷺ أن يعتقها[١].

كذلك يقول صحابي آخر: كنتُ أضربُ مملوكًا لي فسمعتُ قائلا من خَلْفي يقولُ: احلمْ أبا مسعودٍ احلمْ أبا مسعودٍ فالتفتُّ فإذا أنا برَسُولِ اللهِ ﷺ فقال: للهُ أقدرُ عليكَ منكَ عليه. يقول الراوي سقط السوط من يدي خشية وقلت: يا رسول الله فهو حر لوجه الله[٢]. قال ﷺ: لو لم تفعل لدافع وجهك سفع النار.

كذلك يقول النبي ﷺ: لا يكلِّف أحد خادمه بما لا يستطيع فعله، فإن كلَّفهُ ما يغلِبُهُ فليعنهُ[٣].

وقال ﷺ أيضا: إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين، فإنه وَلِيَ علاجَه[٤].

وقال ﷺ عن أجرة الأجير: "أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه"[٥].

وقال ﷺ عن حق الأُجَراء والعمّال، أن الذي لا يعطي الأجير أجره سأخاصمه يوم القيامة[٦]. يتبين من ذلك أنه إن لم يعط رب العمل الأجيرَ أجرته كان من واجب الحكومة أن تساعد الأجير في نيل حقه.

---

[1] مسند أحمد بن حنبل، ج٣ ص٤٤٧

[2] سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدام وشتمه.

[3] سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان إلى الخادم.

[4] صحيح البخاري، كتاب العتق، باب إذا أتاه خادمه بطعامه.

[5] سنن ابن ماجه، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء.

[6] المرجع السابق.

كذلك اعترفت الشريعة بحق الأجير أنه إن لم تُدفع له أجرة مناسبة بالمعروف فله الحق أن يلجأ إلى الحكومة لنيل حقه. وإذا كان الأجراء والعمال مضطرون بحكم الظروف التمدنية والحضارية إلى العمل مع سيدهم، فعلى الحكومة أن تحكم في الأمر بالمعروف بعد أن تسمع من كلا الطرفين.

نظرة عابرة على العلاقات بين الأثرياء والفقراء، وصلاحيات الحكام

السؤال المهم هو: كيف يمكن المحافظة على التوازن بين حقوق مختلف فئات الناس؟ والحق أن هذه هي القضايا الأكثر تعقيدا في تمدّن هذا العصر، لذا أود أن ألقي نظرة عابرة عليها لتطلعوا على ما قدّمه الإسلام من حل لها.

اعلموا أن الإسلام يعلن أن الكون كله بما فيه الأرض والشمس والقمر والنجوم قد خُلقتْ لفائدة الإنسان، لذا فكل هذه الأشياء مشتركة بين بني البشر كلهم.

ولكن إلى جانب هذا القانون هناك قانون آخر، وهو أن الله خلق الناس ليعلم كيف يعملون. وأودع فطرة الإنسان رغبةً في التسابق، بل الإسلام نفسه يحرِّض على التسابق ويقول: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1].

وبالتسابق يتقدم واحد ويتخلف آخر، فلا بد أن ينال أحد منفعة أكثر من قرينه، وقد يحرم غيرهما من الفائدة نهائيا. فالإسلام يعترف بهذا الفرق ويقول بأن الله هو الذي خلق هذا الفرق، فلا تنـــزعجوا من ذلك. يقول الله تعالى: - ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[2]. أي لا تفكّروا في أنكم ستتنـــزعون ما فضّل الله بعضكم على بعض. المراد من ذلك أن أفعال الله تعالى تكون مبنية على الحكمة دائما، فلم يفعل الله تعالى ذلك بلا سبب وحكمة، بل

[1] سورة البقرة: ١٤٩

[2] سورة النساء: ٣٣

كان ذلك ضروريا لإدارة نظام الكون على ما يرام. ولو أحدثتم أي خلل في هذا النظام، أي لو حرمتم السبَّاقين من الإنعام لاختفت الرغبة في السعي والتسابق، ولانقطعت سلسلة التقدم والرقي في العالم تلقائيا.

يقول الإسلامُ بعد إقامة حق الناس: يا أيها الذين قد أنعم الله عليكم ورزقكم التقدم والرقي، عليكم أن تنهضوا بإخوتكم الذين تخلّفوا وشاركوهم معكم ويجب أن تعرفوا أن المال الذي أحرزتموه فيه حق لهؤلاء الفقراء أيضا، فعليكم ألا تحرموهم منه لمجرد أنكم قد سبقتموهم. بل يجب أن تفرحوا وتعتبروا ذلك مدعاة لسعادتكم أن كثيرا من إخوتكم الذين لهم أيضا نصيب مثلكم في هذا العالم، يتربّون تحت ظلكم، ولكن الله تعالى قد منَّ عليكم إذ أوصلكم إلى مرتبة تربية الخَلْق كما يربي الله تعالى خلقه. فيقول: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[1]؛ أي أعطوا المحتاجين من المال الذي جعله الله أمانة في أيديكم وجعل للآخرين حقا فيه.

لعلكم تكونون قد أدركتم من هذه المبادئ أن التسابق بين الناس ضروري جدا عند الإسلام. ولإبقاء روح التسابق حيةً لا بد أن تبقى الأموال- التي يكسبها الناس بأمانة- في قبضتهم. ولما كان للآخرين حق فيها إضافة إلى جهدهم، لأن الأرض وما فيها قد خُلق لفائدة بني البشر أجمعين، فعليهم أن يتبرعوا ببعض مالهم كحق واجب لأصحاب الحقوق الآخرين.

حين يقول الإسلام إن التسابق ضروري لتقدم العالم ورقيه، فإن ذلك يطرح تساؤلا آخر عن ضرورة إبقاء أبواب هذا التنافس مفتوحة أمام بني البشر أجمعين. ولا بد من إصلاح الأمور التي يعرقل وجودُها هذا التنافس العام وتجعله مقتصرا على بعض الناس دون غيرهم، جاعلةً الآخرين كالمتفرجين فقط خارج

[1] سورة النور: ٣٤

حلبة السباق. الإسلام يقرُّ بأهمية هذه المسألة ويرد عليها إيجابًا مقترحًا الحلول التالية التي تؤدي إلى:

(١) إبقاء التنافس قائمًا.

(٢) الذين يتقدمون بناء على جهود خاصة ينالون ثمرة جهودهم، وتُصان ملكيتهم الفردية.

(٣) يُعطى الذين لهم حق في أموال المتقدمين نصيبَهم، لجهد بذلوه أو لاشتراكهم في الملكية.

(٤) يبقى باب التقدم مفتوحا على جميع بني البشر، ولا يقتصر على قوم دون قوم، أو على فئة دون أخرى بل تبقى فرصة التقدم إلى أعلى المدارج موجودة حتى لأدنى شخص في المجتمع. وليس لقوم أو فئة حق في حُكمِ الناس جيلا بعد جيل.

(٥) تُسَدُّ حاجات جميع بني البشر أيضا دون أية مشكلة. والحلول التي يقترحها الإسلام هي:

الأول: الإسلام يعلن أن جميع الأشياء الموجودة في العالم مشتَرَكة بين بني البشر فلا ملكية حقيقية في العالم لأي شخص، أي ما يملكه زيد مثلا ليس مِلكا له وحده دون أن يكون لغيره حق فيه. ما يملكه زيد ليس مِلكه بمعنى أنه لا نصيب فيه للآخرين بل يُعَدّ مِلكه لأنه اجتهد للحصول عليه، وأن نصيبه فيه أكبر من نصيب الآخرين لأنه حصل عليه بالجهد، وإلا ففيه نصيب للآخرين أيضا. فالإسلام يجعل للفقراء نصيبًا في أموال الأغنياء ويقول: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1]؛ أي في أموالهم نصيب كحقّ للذين يستطيعون أن يبوحوا بما في نفوسهم، أي الناس. وكذلك فيها نصيب كحق للحيوانات التي لا تقدر على البيان.

---

[1] سورة الذاريات: ٢٠

كذلك يقول: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[1]؛ فيأمر بعدم اكتناز المال لأن ذلك يؤدي إلى حرمان كثير من الناس من حقهم، ويجبر أصحاب المال على إنفاقه أو استثماره لما في الحالتين من فائدة للناس؛ فبإنفاقه يُتداول المال ويستفيد منه كثير من الناس، وباستثماره يستفيد الآخرون أيضًا بإيجاد فرص العمل والوظائف، وكذلك يستفيد الذي يشارك صاحب المال في تجارته. ويقول فيمن لا يفعل ذلك: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[2]؛ أي أن الله لا يحب المستكبرين الذين يكنــزون الأموال ويحرِّضون الآخرين أيضا على فعل ذلك، ويحتكرون ما أعطاهم الله من فضله. يجب عليهم ألا يفعلوا ذلك. وإن لم يقبلوا هذه النصيحة لواجهوا عذابا أليما، أي لو ظلوا يكنــزون أموالهم ويجمعونها لكان ذلك مدعاةً لذِلّتهم وذلّة قومهم أيضا.

قد يقع خللٌ في النوع الثاني من الإنفاق وهو أن ينفق الناس الأموال كلها على أنفسهم مبذرين ومسرفين. والحل الذي قدّمه الإسلام لهذه المشكلة هو منع جميع أنواع التبذير الذي قد يقوم به المرء بُغية الاستمتاع والتلذذ فقط. فيمنع الإسلام التبذير والإسراف في الأكل واللباس والسكن وغيرها. لذا فالمسلم الذي يعمل بأوامر الإسلام لا يمكنه أن ينفق على نفسه بما يؤدي إلى إتلاف حقوق الآخرين.

ولما كان ممكنا أن يكنــز بعض الناس أموالهم فمنع الإسلام من ذلك، وأمر بإنفاقها أو استثمارها. ولما كان إصدار الأوامر وحده لا يكفي لتأدية حقوق الناس التي أقرَّها الإسلام فقد أمر أن تأخذ الحكومة ممن يملك مالا- من

---

[1] سورة الروم: ٣٩

[2] سورة النساء: ٣٧-٣٨

قبيل العقار أو الذهب أو الفضة أو أموال التجارة وحال عليها الحولُ- ضريبةً سنويةً عليه قدرها ٢,٥ ٪ كزكاة تُنفَق على الفقراء والمحتاجين في البلاد. فالكلمات التي استخدمها النبي ﷺ عن هذه الصدقة تبين بصراحة أن تلك الأموال تؤخذ من الأغنياء لأن فيها حقا للفقراء؛ فيقول ﷺ: "إن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترَدُّ على فقرائهم"[1]. يتبين بصراحة من الكلمات: "ترَدُّ على فقرائهم"، أن هذه الضريبة (الزكاة) قد اعتُبرت حقا للفقراء، واعتُرف أن في أموال الأغنياء نصيبا للفقراء وجهدا منهم أيضًا. ولما كان تحديد حقهم بالضبط صعبا سُنَّ قانونٌ لأخذ الزكاة منهم.

ليكن معلوما أن هذه الضريبة التي تسمى زكاةً لا تؤخذ على الدخل بل تؤخذ على مجموع رأس المال والربح، وبذلك قد تصل نسبة ٢,٥ ٪ إلى نصف الربح في بعض الحالات. وبوجود هذا الحُكم لا يسع أحدا أن يكنـــز المال دون مبرر معقول، لأن هذه الضريبة سوف تستهلك مالَه كلَّه خلال مدة قصيرة.

كذلك يشير القرآن الكريم إلى أن الهدف من الزكاة هو تزكية أموال الأغنياء، بمعنى أن هذه الضريبة تُفرَض على أموالهم كي لا يبقى عندهم إلا نصيبهم الصافي بعد أداء نصيب الآخرين منها لما في أموالهم من حقوق وجهود للآخرين. فيقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[2]؛ أي بذلك تتطهر أموالهم من كل الشوائب ويُفصل منها نصيب الآخرين أيضا. ثم يقول الإسلام بأن الأموال المأخوذة من الأغنياء تُستهلَك للنهوض بالفقراء. وبفرض الزكاة أدى الإسلام جميع حقوق الفقراء الموجودة في أموال الأغنياء، وبذلك قد أقام الصلح بين الأغنياء والفقراء بتقاضيه ٢,٥ ٪ كضريبة من قيمة

[1] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة.

[2] سورة التوبة: ١٠٣

أملاك الأغنياء من أجل إخوتهم الفقراء علاوة على الأجور التي يتقاضاها الأجراء والعمّال منهم.

لا شك أنه بجمع هذه الضريبة يستقيم الجانب المالي في المجتمع ولكن يبقى السؤال: لو لم يترك الأغنياء للفقراء والشريحة الوسطى من المجتمع فرصة التقدم، فكيف يمكن لهؤلاء نيلُه؟ يردّ الإسلام على هذا السؤال ويقول: من حق بني البشر جميعا أن يُترك بابُ التقدم مفتوحا أمامهم، ويستنكر أن يعرقل أحد طريق الآخرين. لا شك أن جميع الناس سينظرون إلى المشاركين في سباق التقدم بين عديد من الناس بكل حب وتعاطف، ولكن لا يتعاطف أحد مع شخص يسبق الآخرين ثم يتصدى لهم ليعرقل طريقهم كي لا يسبقه أحد. ولو سُمح بذلك لانتهت المسابقة في حينها، ولاحتكر السبَّاقون جميع أنواع التقدم والرقي لأنفسهم ولن يتركوا مجالا لغيرهم. الإسلام لا يسمح بذلك مطلقا، ويستأصل هذا العيب من جذوره، ويفتح باب التقدم والرقي أمام الجميع.

ولو تأملنا في هذا العيب الذي أدّى إلى اقتصار التقدم والثروة على بضع عائلات في بعض الدول لوجدنا أن له ثلاثة أسباب:

(١) عدم تقسيم الإرث بين جميع المستحقين ووقوعه في يد الابن الأكبر فقط، وحرية الوالد في ماله ليورثه من يشاء وبقدر ما يشاء.

(٢) السماح بالربا الذي بسببه يستطيع شخص واحد أو بعض الأشخاص أن يوسعوا دائرة عملهم بقدر ما يشاءون بدون الجهد والسعي.

(٣) كثرة الربح.

فبسبب هذه العيوب الثلاثة ضاقت جدا سبل التقدم على الناس في كثير من البلاد. فقد وقعت العقارات في أيدي بعض الناس فلم تبق للفقراء فرصة لاقتنائها. والذين سبق أن كسبوا سمعة جيدة ونفوذا واسعا بسبب الربا يمكنهم

أن يأخذوا أيّ قدر من المال ولا يقدر أصحاب الأموال القليلة أن يجاروهم في ذلك. أما كثرة الربح فتؤدي إلى تجمّع الأموال في بيوت معدودة.

ولقد قدّم الإسلام ثلاثة حلول للقضاء على هذه العيوب الثلاثة.

الأول: أمر بتقسيم الإرث، فلا يحق لأحد أن يهب عقاره أو إرثه لشخص واحد، فلا تتكدّس الأموال في أيدي فئة واحدة. يأمر الإسلام أن يوزَّع إرث الميت بحسب حكم الشريعة على جميع ورثته مثل الأولاد جميعهم والأبوين والزوج والإخوة والأخوات، ولا يحق لأحد أن يغير هذا التقسيم. إذًا، فلو نال أحد في البلد الإسلامي تقدما هائلا من الناحية المالية فلا يقدر أولاده أن يجلسوا عاطلين معتمدين على أمواله، بل سيضطرون للجهد والكد من جديد لأن عقاره بما فيه بيته وأراضيه وماله أيضا سوف يُقسم إلى أجزاء. وبما أن الأراضي أيضا سوف تظل تُقسَم من جيل إلى آخر لتتحول بعد جيلين أو ثلاثة أجيال إلى أجزاء صغيرة الحجم جدا فبذلك يستطيع الأجير البسيط شراء جزء منها ليضع الأساس للنهوض بأجياله القادمة. باختصار، إن توزيع العقار سوف يحول دون التقسيم العنصري.

العائق الثاني في سبيل الفقراء هو الربا. فالتجار الذين كسبوا نفوذا كبيرا بسبب الربا، يستطيعون بكل سهولة اقتراض أي قدر من المال من البنوك. فإن لم يقدروا على الحصول على هذه الأموال بهذه الطريقة لاضطروا إما إلى مشاركة الآخرين في تجارتهم، أو إلى توسيع نطاق تجارتهم فيشكِّلوا عائقا في سبيل القادمين بعدهم، ويغلقوا على الآخرين أبواب التقدم كليا بتأسيسهم المؤسسات والشركات الاحتكارية، وكانت النتيجة أن الأموال ظلت تتوزَّع على المواطنين كلهم بِنسبة مناسبة دون أن تتكدس في أيدي بعض الناس بقدر أكثر من المناسب، الأمر الذي يدمر التقدم الأخلاقي للبلاد والفقراء والشريحة الوسطى من المواطنين.

العيب الثالث الذي ينتج عن كثرة الربح قد قضى عليه الإسلام بفرض الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء لتردَّ على الفقراء. فمن خلالها يؤخذ من مال الأثرياء بما يحول دون اكتنازهم وسعيهم للسيطرة على أموال البلاد كلها بقوهم، لأنهم مُجبرون على دفع الضريبة للفقراء كل سنة على ما عندهم من أموال.

ثانيا: تأمر الشريعة الإسلامية أن يُعطَى الأذكياء والقادرون على التقدم من الفقراء من أموال الزكاة ما يساعدهم على بدء العمل. وهكذا يجد الناس واحدًا تلو الآخر فرصة للرقي ولن يكون لأحد مجال للشكوى.

ثالثا: لقد منع الإسلام الطرق التي يكسب بها الناس أرباحا هائلة بأساليب غير مشروعة. فقد اعتبر الإسلام احتكار أموال التجارة بُغية تصعيد الأسعار ذنبا وجريمة. ونظرا إلى هذا المبدأ فإن جميع الشركات الاحتكارية وما شاهها من الوسائل التي تؤدي إلى الازدياد في الربح قد عُدّت غير مشروعة بحسب التعليم الإسلامي لذا لن تسمح بها الحكومة.

والآن يبقى سؤال وهو: لو حُظِرَ الربا فهل ستدمَّر التجارةُ كلها؟ كلا! لن تدمَّر التجارة بمنع الربا. التجارة ليست قائمة على الربا حتى في هذه الأيام، بل الحق أن الربا مرتبط بالتجارة لأن البلاد الغربية قد تبنّتْ هذه الطريقة في التجارة. فلو لم تؤسس البلاد الغربية تجارها على الربا منذ البداية لما انتشرت القلاقل والاضطرابات والفساد الذي نراه اليوم، ولما كانت للتجارة صلة بالربا أصلا. لقد قام المسلمون قبل بضعة قرون بالتجارة مع العالم كله، وكانت ناجحة جدا بحسب معايير ذلك الزمن، وما كانوا يأخذون الربا إطلاقا. وبسبب عدم أخذهم الربا بل اعتمادهم مبدأ الشراكة حتى مع أفقر الفقراء، عمَّت فائدة تجارهم معظم مناطق البلاد.

باختصار، التجارة ليست قائمة على قوائم الربا، ولكن مادامت التجارة مؤسسة على الربا لذا يبدو وكأنها قائمة عليه. مما لا شك فيه أنه كما وُضعت أسس الربا كذلك يمكن إزالتها أيضا رويدا رويدا وإن ظهرت بعض المشاكل في هذا السبيل في البداية.

لقد أصبح الربا في هذا العصر مثل علقة تمتص دم البشرية، ويسقط الفقراء والشريحة المتوسطة من المجتمع حتى الأثرياء أيضا ضحية في براثن ظلمها. وهناك آخرون كثيرون يشعرون فيه بمتعة زائفة ولا يريدون التخلي عنه. ومثلهم في ذلك كمثل النمر الذي يقال إنه راح يحك لسانه على الحجر حتى أكله كله. وإن أرادوا التخلي عنه فإن تيار المجتمع لا يسمح لهم بذلك.

للربا تأثيران ضاران على أمن البلاد. أولا: تتمركز الثروة بسببه في أيد قليلة. ثانيا: صار اندلاع الحروب سهلا بسببه. لا أظن أنه كان بوسع أي شخص في الدنيا أن يتجرأ على القيام بالحرب العالمية التي نشبت قبل فترة وجيزة لو لم يجد باب الربا مفتوحا أمامه. الأموال التي بذلتها مختلف البلاد في هذه الحرب لو وقع عبئُها على مواطنيها مباشرة لما استعدوا لبذلها أبدا. لقد طالت فترة الحرب بسبب الربا فقط، وإلا لتخلت عنها بلاد كثيرة قبل ذلك بكثير، لأن الحرب كانت ستُنفد كنوزها، ولعمَّت البلاد موجة التمرد العام. ولكن الناس لم يشعروا بذلك العبء الثقيل بسبب الربا فقط. أما الآن فإنهم يرزحون تحت أعبائها، ولربما تضطر أجيالهم إلى تسديد هذا الدَّين إلى فترة طويلة. وبدون الربا لم تكن نتيجة الحرب لتختلف عما هي عليه الآن، أي لفازت الأقوام التي فازت الآن، ولَهُزِمت الأقوام التي هُزمت الآن، ولكن الفرق أن فرنسا ما كانت لتدمَّر إلى هذا الحد، وما كانت ألمانيا لتباد إلى هذه الدرجة، ولما هلكت النمسا بهذه الشدة، ولما أُثقِلت بريطانيا بالأعباء. بل لما تجاسرت كثير من البلاد على بدء الحرب أصلا، ولئن نشبت لأُخمدت ثورتها في عام

واحد على أقصى تقدير وتصالح المتحاربون وسارت الدنيا على دروب التقدم والرقي. تؤكد بعض البلاد اليوم على التقليل من الأسلحة الحربية، وهذه مبادرة حسنة بلا شك، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن الأسلحة تُصنَع فورا وبدون تأخير إذا وُجدت الرغبة في ذلك. غير أن الشيء الذي يجب استئصاله هو الربا. يقول القرآن الكريم إن الربا هو السبب وراء نشوب الحروب، وهذا ما نراه بأم أعيننا اليوم.

فالحروب، سواء كانت داخلية أو خارجية، إنما تنتهي ويستتب الأمن والاستقرار في البلاد حينما يُمحى الربا من المجتمع والحضارة. ولا شك أنه عندئذ ستجري أنهار من اللبن إن صحّ التعبير، ولن يقدر الغني على ظلم الفقير، وستخشى البلاد غزوَ غيرها، ولن تميل إلى الحرب إلا إذا علمت يقينا أن كرامتها في خطر وأن الناس جاهزون لتقديم أي تضحية لحمايتها. ولن يقدر الحاكم على شن الحرب لرغبة في قلبه أو لحاجة في نفسه.

هناك عيب آخر أيضا يتسبب في ارتكاز الأموال في أيدي بعض الناس فقط، وهو اكتشاف المناجم. وقد حل الإسلام هذه القضية أيضا إذ أمر أن يُدفع الخمسُ من دخلها للحكومة، وأن تدفع الزكاة أيضا من أموال ما جمع أصحابها إذا ما حال عليها الحول. وبذلك يكون للحكومة نصيب في المناجم وتصلها أموال لا بأس بها للإنفاق على الفقراء وأداء حقوقهم منها. وإذا كان الشخص الذي اكتُشف في أرضه منجمٌ غير قادر على الاستفادة منه، يمكن للحكومة أن تشتريه منه بأداء سعر مناسب لأن لها نصيبا في المنجم، أو قد تسمح له الحكومة أن يبيع نصيبها لشخص آخر. فبهذه الطريقة يُسدُّ الخلل الذي تحدثه المناجم في المجتمع أيضًا.

العلاقات بين الحكومات

بعد بيان العلاقات بين الحكومة والرعية، وبين الأثرياء والفقراء أتناول الآن تعليم الإسلام حول العلاقات الدولية.

اِعلموا أن وِجهة النظر الإسلامية في هذا الصدد هي أن تُزال حكومات في البلاد وتقام حكومة واحدة في العالم كله، لكي تنتهي الحروب والشجارات. الإسلام يمنح مختلف البلاد حرية داخلية تمكنها من سد حاجاتها القومية وتحقيق مزاياها الخاصة بها بكل سهولة في ظل السياسة الإسلامية، ومع ذلك يمكن لها أن تكون جزءا من دائرة موسَّعة واحدة. ولكن لا يسمح الإسلام بالسعي لتحقيق هذا الهدف بل يترك الأمر لرأي الناس وإرادتهم، كما لا يفرض حدودا على الحكومات الإسلامية أيضا. فما لم تنشأ هذه الروح في العالم- أي ما لم يتعود الناس على أن يحكموا في أمورهم المحلية بحسب رغبتهم ويتّحدوا في بقية الأمور، وما لم يضحوا بميولهم إلى الحروب وحماسهم وثوائرهم ضد بعضهم بعضا من أجل أهداف أسمى- لن يُحرز أي تقدُّم، ولا بد أن نقتنع بحالتنا الراهنة. وسأبين القواعد التي سنها الإسلام بهذا الشأن.

من المعلوم أن الحروب والخصومات تنشب بسبب الطمع في بلاد الآخرين والتطلع إلى الاستيلاء عليها، أو جراء السعي من أجل الاستفادة المتبادلة غير المشروعة. والأمر الذي يعطيه الإسلام في هذا الصدد يقضي على إمكانية الحروب والخصومات نهائيا. فيقول الإسلام أولا: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1]؛ أي يا أيها المسلمون لا ترنوا ولا تتطلعوا إلى ما أعطينا الأقوام الأخرى من الأموال وأسباب الرفاهية لنبتليهم بها. وما أعطاكم الله تعالى فهو خير لكم

[1] سورة طه: ١٣٢

وأبقى، أي سينفعكم في الآخرة أيضا. وإن أخذتم أموال الناس ظلما وتعدِّيا عليهم فلن تنفعكم ولن تبقى عندكم أيضا.

والسبب الآخر للحصول على منافع غير شرعية من هذا القبيل هو العداوات المتبادلة، إذ تكون في القلوب أحيانًا غيرة أو كراهية قومية، أو قد يكون قوم تضرَّرَ على يد قوم آخر ثم أُصلح بينهما وسوِّيت الأمور بينهما، ولكن أحد الفريقين يرسّخ ما سبق في حسبانه ويُضعف الآخر رويدا رويدا، أو ينتفع منه تحت الضغط أو الخداع لكي يلحق به أضرارا. الإسلام يستنكر هذا الأسلوب ولا يسمح إلا بصدق التعامل، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

ففي ضوء هذين الأمرين لا يمكن أن تكون حكومة إسلامية حقيقية سببا لإفساد العلاقات الدولية، لأن المسلمين مأمورون بألا يمدّوا أعين الطمع والجشع إلى أموال أمم أخرى وحكوماتهم، بل يجب أن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة على الصعيد الفردي والقومي أيضا.

ثم يأمر الإسلام في المعاهدات بين الأقوام بالتقيد بها واحترامها؛ فإن كان بينكم وبين قوم عهد، وكان بين هذا القوم وأقوام آخرين عهود ثم حاربتكم تلك الأقوام، ولم يحاربكم عمليًّا القوم الذي بينكم وبينه عهد فلا تحاربوه. وإذا عاهدكم قوم وخفتم منهم خيانةً فيأمر الإسلام ألا تهاجموهم بغتة تحسبا لخطرهم فقط ولا تستغلوا الفرصة، بل يجب أن تنبذوا إليهم على سواء، أي تنبهوهم أولا بأننا أصبحنا أحرارا من العهد لأنكم نقضتموه أولا وخالفتم شروطه. وإن لم ينتهوا بعد هذا الإعلان أيضا فلكم الحق أن تحاربوهم، وإلا فلا. وهناك طريقة أخرى أيضا لاستقرار الأمن وهي أن يكون كل بلد على

---

[1] سورة المائدة: ٩

استعداد للحرب حتى لا يتشجع العدو الشرير الحاقد على استغلال ضعفه. فالإسلام يأمر أتباعه ألا يستغلوا أوضاع البلاد الأخرى، ولكن ما دامت الأقوام الأخرى تتربص بهم فإن خطر الحرب موجود، فيجب أن يأخذوا حِذرهم ويستعدوا للدفاع لكيلا يحرِّض ضعف المسلمين أقواما أخرى على شن الحرب ضدهم.

وإذا نشبت الحرب فالإسلام يأمر بعدم التعرض للأطفال والنساء والمسنين، والذين كرسوا حياتهم لخدمة الدين. ويأمر أتباعه ألا يقاتلوا في الحرب إلا الذين يقاتلونهم. وإذا وضع أحد أسلحته وتوقف عن قتالكم لا يسمح بقتله. ولا تلحقوا بالبلاد ضررا غير مبرر. ولا تتلفوا زروع العدو وأشجاره وبيوته ما بقيت فرصة متاحة للسيطرة على العدو وإنقاذ أنفسكم، ولا تضروه دون سبب معقول بهدف إضعاف حكومته فيما بعد. وإن جنح قوم للصلح فاجنحوا له ولا تظنوا أنهم يضمرون شرًّا ويريدون كسب الوقت فقط. ويجب أن تحاولوا تحاشي الحرب وإرساء دعائم الصلح ما لم يكن الشر ظاهرًا.

لقد أمر الإسلام أمرا غريبا للقضاء على الخصومات ونراه اليوم في صورة هيئة الأمم المتحدة. ولكن هذه الهيئة لم تقطع إلى الآن أشواط اكتمالها كما يريدها الإسلام. يقول الإسلام: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1]؛ أي يجب على الأقوام الأخرى أن تتدخل لمنعهما من الحرب ويزيلوا سبب نشوب الحرب ويعيدوا الحقوق إلى أصحابها... وقوله ﴿تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾: أي تتخلى عن الظلم. ففي هذه الآية الكريمة ذُكرت المبادئ التالية العظيمة لإرساء دعائم الصلح بين الأمم:

---

[1] سورة الحجرات: ١٠

أولا: الخطوة الأولى إذا لوحظت مؤشرات الحرب بين قومينِ فعلى الأقوام الأخرى- بدلا من الانحياز وعدمه- أن تعطيهما إشعارا على الفور بالتحاكم إلى هيئة الأمم. فلو قبِلا لانتهى الخصام في حينه، وإن لم يقبل أحد الفريقين وعزم على الحرب فالخطوة الثانية هي أن تحاربه الأمم كلها مجتمعة. ومن الواضح أن قوما واحدا لا يقدر على محاربة الأمم الأخرى كلها، فلا بد أن يعود إلى صوابه سريعا ويميل إلى الصلح. وإذا مال إلى الصلح فالخطوة الثالثة تكون أن تُصلح الأمم الأخرى بين الفريقين المتحاربين؛ أي يجب ألا تعُدّ هيئة الأمم نفسها فريقا في القضية ولا تدخل في عقد المعاهدات مع الفريق الثاني بل تترك عهودها السابقة على حالها وتفصل في القضية التي كانت سببا للحرب بدلا من وضع الأساس للفساد الدائم بطرح مطالبها الجديدة.

والأمر الرابع الجدير بالاهتمام هو أن العقد يجب أن يكون مبنيا على العدل. وألا يؤخذ القرار ضد المعتدي لمجرد أنه خرق القانون، بل يجب أن تقف هذه الهيئة في صف الحَكَم العدل دون أن تكون طرفا في القضية. فلو أُسِّست الهيئة على هذه الأسس لرأيتم كيف يسود الصلح بين الأمم.

الحق أن الفساد كله ينشأ لسبب وحيد وهو أنه عندما ينشب الخلاف تبقى الأقوام الأخرى بعيدة عن ساحة الأحداث وتكتفي بالتفرج. وعندما تتدخل في القضية تفعل ذلك بصورة منفصلة، وتساند فريقًا دون آخر أو يُساند قوم قومًا دون آخر، الأمر الذي يؤدي إلى اشتداد الحرب أكثر من ذي قبل ولا يخمدها. فمن واجب الأمم كلها أن تتشاور فيما بينها وتتفق على أن يكون الحكم بواسطة هيئة الأمم، ثم تطلب مجتمعةً من الفريقينِ المتحاربين بأنه لا داعي للحرب، بل يجب أن تعرضوا قضيتكم على الهيئة الدولية. ثم من واجب هيئة الأمم ألا تأخذ أي قرار مسبقا- كما لا يجوز للقاضي أن يأخذ أي قرار قبل سماع أدلة الجانبَين- بل ينبغي أن تراعي متطلبات العدل والإنصاف وتأخذ

القرار بعد سماع موقف الجانبَين. إذا لم يقبل أحد الفريقين هذا الحكم فلتحاربه الأمم معًا. وإذا انصاع فيجب ألا تفرض هيئة الأمم مطالب جديدة من عندها، بل عليها أن تسوي الخلاف الموجود، لأنه لو تمت المحاولة من أي جانب لنهْب القوم المهزوم في مثل هذه المناسبات، وحاول كل قوم استغلال الفرصة تحت أعذار وأسماء مختلفة، لنشأ التباغض والتحاسد بين الأقوام حتما، ولما قامت علاقات جيدة بينها وبين القوم المهزوم. وإلى جانب ذلك لن يتولد لدى حكومات العالَم تعاونٌ فعَّال تجاه هيئة الأمم أبدا. فباختصار، عندما تنتهي الحرب ينبغي أن يسوَّى الخلاف الذي كان سببا للحرب وليس إلا.

والآن بقي سؤال واحد وهو: من سيتحمل نفقات الحرب؟ والجواب هو أن كل الأقوام سوف تشارك في تحمل هذه النفقات، وبالتالي لن يكون هذا العبءُ ثقيلا للأسباب التالية:

أولا: لأن الحروب ستكون قليلة جدا بناء على تنفيذ النظام المذكور آنفا، ولن يتشجع قوم على شن حرب على غيره.

ثانيا: النظام المذكور آنفا نزيه من طمعٍ وجشع لذا ستتوجه جميع الأقوام إليه، وتصبح نفقات الحرب ضئيلة ولن تشكل عبئًا ثقيلا أبدا.

ثالثا:ولما كانت فائدة هذا النظام تعود على الأقوام كلها، لأنه لا يوجد قوم محفوظ من خطر الحرب، فإن تلك النفقات تكون أقل بكثير، نظرا إلى العواقب، مما تضطر الحكومات إلى إنفاقها استعدادا للحرب. ولو افترضنا جدلا أن هذه النفقات ارتفعت قليلا، فمن واجب الأقوام أن تضحي من أجل إرساء دعائم الأمن والاستقرار الدولي، كما هو واجب الأفراد أن يضحوا لإقامة الأمن والاستقرار في مجتمعهم، فالحكومات ليست فوق القيم الأخلاقية بل هي تحتها.

أرى أن منشأ المفاسد كلها هو عدم قبول الناس مبدأ يقدمه القرآن الكريم، وتنتج تلك المفاسد عن الأسباب التالية:

(١) المواثيق الثنائية المسبقة، بينما يجب أن يكون هناك ميثاق واحد على مستوى الأقوام.

(٢) إطالة الشجار.

(٣) حيادية الحكومات المختلفة، وإن تدخَّلت، فبمساعدة فريق دون آخر.

(٤) تفريق شمل الفريق المهزومِ، والطمعُ في الحصول على منافع شخصية منه.

(٥) عدم الاستعداد على تقديم التضحيات من أجل الأمن العام.

فلو أزيلت هذه العيوب الخمسة لتشكلت هيئة الأمم التي يشير إليها القرآن الكريم. والحق أن هذه الهيئة هي التي يمكن أن تكون ذات فائدة، وليست تلك التي تفتقر لبقائها إلى تعاون الآخرين وتعاطفهم.

الحق أن الخلافات والخصومات الدولية لن تزول ما لم تؤسِّس الأقوام تعاملاتها على الأخلاق. فكما يُطلب من الأفراد أن يؤسسوا أمورهم على الأخلاق، كذلك لا بد من توجيه الحكومات إلى مراعاة القيم الأخلاقية. لا شك أن الفساد ينجم عن أسباب معينة لا بد من إصلاحها أولا، وبالتالي سوف يقل أو يختفي الفساد تلقائيا. ولو نشأ الخلاف في وقت من الأوقات رغم هذا الإصلاح فلا بد أن تكون هناك هيئة دولية لهذا الغرض مؤسسة على أسس قدَّمها الإسلام للحكم في الخصومات.

الأسباب التي تؤدي إلى نشوء الخصومات تتمثل في بضعة عيوب أخلاقية، وهي:

(١) العلاقات بين الحكومات ورعاياها غير سليمة. فلو وُضعت المبادئ الإسلامية في الحسبان أن من واجب رعية كل بلد إما أن تتعاون مع الحكومة التي يعيشون في ظلها أو تهجر البلد حتى لا يفسد أمن الآخرين، لما تشجع قوم على غزو قوم آخرين، لأنه لن يفضّل قوم أن يسيطر على بلد خراب يباب.

(٢) اعتقاد البلاد المختلفة أن رعاياها ستساندها في كل الأحوال، فتُقدم على مهاجمة البلاد الأخرى دون أدنى خوف أو وجل. فلو قُبل المبدأ الذي قدّمه الإسلام: انصر أخاك ظالما أو مظلوما- أي إذا كان أخوك مظلوما فأنقذه من ظلم الآخرين، وإذا كان ظالما فانقذه من ظلم نفسه- لقلّتِ الحروب إلى حد كبير. لقد تصاعد التعصب القومي في العصر الراهن إلى درجة يجتمع الناس دون أدنى تفكير على صوت واحد أمام قضية تتعلق بقومهم، ولا يفكرون بوجوب نصح حكومتهم إذا كانت مخطئة.

باختصار؛ إن السبب الأكبر للحروب هو التعصب القومي من ناحية، والخيانة من ناحية ثانية، ولا بد من التخلص من كليهما.

وما لم يفهم العالم أن عاطفة حب الوطن وعاطفة حب البشرية يمكن أن تجتمعا في مكان واحد، لن يستتب الأمن. لقد بيّن الإسلام هذا الموضوع في جملة وجيزة جدا فقال: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"[1]؛ أي إذا كان أخوك مظلوما فانقذه من ظلم الآخرين، أما إذا كان ظالما فانصره بمنعه من الظلم.

ما أروع بيان الإسلام الذي جمع بين عاطفة حب الوطن وعاطفة حب البشرية. عندما يمنع أحدٌ قومَه من أن يظلموا قوما آخرين أو يغصبوا حقوقهم فعمله هذا لا ينافي حب الوطن، فليس حب الوطن أفضل من أن ينقذ المرء بلاده من وصمة الظلم. وبذلك يكون قد أدى واجب حب البشرية أيضا لأنه يُبرز الحقيقة القائلة: "عِيشوا، ودَعُوا الآخرين ليعيشوا".

---

[1] صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب: انصر أخاك ظالما أو مظلوما.

(٣) العيب الأخلاقي الثالث هو أن فكرة التفوق القومي قد تفاقمت كثيرا. يقول القرآن الكريم: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾[1]؛ أي ينبغي ألا يحتقر قوم قوما، لعله يفوقه مستقبلا. ويقول أيضا: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2]؛ أي إن أيام التقدم والانحطاط تتداول وتتناوب بين الأمم، فلا يبذرنّ اليوم قوم متقدمٌ بذور الفساد محتقرا قوما آخرين، إذ من الممكن أن يتفوق غدا قومٌ يُحتقَر اليوم. وما لم يدرك الناس- كما يعلِّمهم الإسلام- أننا جميعا من جنس واحد، وأن فترات التقدم والتخلف دُوَل بين الأمم وأن بقاء الأقوام على حال واحد مُحال؛ لن يزول الفساد من بينهم أبدا. وليعلم الناس جيدا أن الحمم البركانية التي جعلت عاليَ الأقوام سافلها لم تختف من الدنيا بعد، وأن الطبيعة كما كانت تعمل في الماضي لا تزال تعمل في الزمن الحاضر أيضا. والحق أن القوم الذين يحتقرون قومًا آخرين يطلقون سلسلة من الظلم لا تكاد تنتهي.

العلاقات الدينية

السؤال الهام الآخر الذي ينشأ إنما يتعلق بالعلاقات الدينية في الحضارة، وأريد القول في هذا الصدد بأن الإسلام أكثر الأديان تسامحا دينيا، ويأمر مثلًا:

(١) لا تسبوا زعماء أي دين.

(٢) لا يجوز عَدُّ أيِّ دين فاسدا كليا، فقد خلا نذير في كل أمة، فقد جاءت الأديان كلها من عند الله تعالى، لذا لا يمكن اعتبار أيّ دين فاسدا كليا.

(٣) لا تجوز الحروب من أجل الدين، فقد تبين الرشد من الغي، والآن لن يحيا إلا من حيَّ عن بينة ولن يموت إلا من تُميته البينة.

[1] سورة الحجرات: ١٢

[2] سورة آل عمران: ١٤١

ومن الخطأ تماما الظنُّ أن الإسلام يسمح بنشر الدين بالسيف، بل يقول الإسلام بكل صراحة: قاتلوا الذين يقاتلونكم، وقاتلوهم ما قاتَلوكم. فالدين الذي يعطي هذا التعليم هل يمكنه أن يؤيد استخدام السيف؟ الحق أن الذين أرادوا القضاء على الإسلام بالسيف قضى الله تعالى عليهم بالسيف، غير أن رفع السيف في الدفاع ليس مذمومًا بتاتا. فإذا كان الإسلام قد نُشر بقوة السيف فمن أين جاء حملة السيف هؤلاء؟ الدين الذي خلق رافعي السيف كهؤلاء الذين ضحوا بكل شيء وأقاموا الدين في العالم رغم معارضة البلاد كلها، هل كان صعبا عليه أن يقنع الناس بصدقه بقوة البراهين والحجج؟ أقول، والحق أقول، إن إلصاق هذه التهمة بدين علّم التسامح الديني قبل غيره لظلمٌ عظيم. ولقد أرسل الله تعالى المسيحَ الموعود لينشر الإسلام دون السيف ويثبت أن الإسلام قادر على أن ينتشر بقوة صدقه، ولن تمضِي أيام طويلة إلا وسيرى العالم أنه قد انتشر حقا كذلك.

بعد بيان هذا التعليم عن الحضارة الذي وصلنا بواسطة موعود هذا العصر، أتوجه الآن إلى بيان التعليم الإسلامي عن الحالات بعد الموت.

السؤال الرابع

الحالات بعد الموت

السؤال الذي يسترعي انتباه الناس منذ بدء الخليقة- بعد وجود الله تعالى- يتعلق بالحالات بعد الموت. والحق أن الدين الذي لا يلقي ضوءا على الحالات بعد الموت إنما هو جسد بلا روح. والإسلام يؤكد على هذا الأمر بشكل خاص، حتى أن الأقوام الأخرى استخدمت هذا التأكيد الشديد كحربة ضد الإسلام نفسه. وهذه القضية- على قدر أهميتها- دقيقة وجديرة بالتأمل أيضا.

لا نستطيع أن نصل إلى كنه مثل هذه القضايا مطلقا ما لم يرشدنا نور الإلهام، لأن الذي يعيش في هذا العالم لا يمكن أن يطلع على حالات ذلك العالَم إلا بواسطة تلك الذات التي تحيط بكِلا العالَمين علمًا. إن هذا العالم وذاك العالَم وغيرهما من العوالم كلها كالمرآة لله تعالى ولا يخفى عليه شيء منها، وهو وحده يستطيع أن يبين ظروف ذلك العالم. لذا فالذين حاولوا بيان الظروف بعد الموت مستخدمين عقولهم فقط قد تعثّروا في ذلك وسببوا عثار الآخرين أيضا. فمنهم مَن أنكر البعث بعد الموت نهائيا، ومنهم مَن حسِبه عالَما آخر مثل هذا العالَمِ تماما. ومنهم مَن يؤمن بالبعث بعد الموت ويعتقد بعودة الأرواح إلى هذا العالم لأجل الثواب أو العقاب، وهناك آخرون يقدّمون عن ذلك العالَم أفكارا مختلفة تماما. ولكن التعليم الذي أعطانا إياه المسيح الموعود عليه السلام عن البعث بعد الموت إنما هو تعليم غريب وجديد وعظيم يطمئن له العقل والفكر فورا، وتصدِّقه الفطرة وقانون الطبيعة أيضا. والذين أُعطُوا نصيبا من البصيرة يرون حقيقته بأم أعينهم ويصلون إلى مرتبة اليقين. الحق أنه كما أن تعليماته عليه السلام المبنية على القرآن الكريم حتما قد أدَّت إلى اكتشافات محيرة للعقول في الفروع الأخرى من الدين، كذلك أماط عليه السلام اللثام عن الحقيقة الكامنة المتعلقة بهذه الجزئية أيضا. وبكشفه عن هذا السر المكنون كشف عليه السلام عن سر عظيم للعالم. ولما كان العالم الآخر مخفيًّا عن أعين الناس تماما، فلا يكفي البيان المقتضب لتوضيح حقيقته، ومن ناحية ثانية لا مجال هنا للشرح المسهَب، لذا سوف أكتفي برسم خارطة وجيزة فقط. وبدلا من الشرح الناقص أرى مناسبا أن تكون لديكم فكرة مختصرة عن تعليمه عليه السلام حول هذا الموضوع، ومن ثَم إذا وجد أحد في قلبه رغبة في المزيد يستطيع أن يحقق في الموضوع أكثر.

اعلموا أنه عند البحث والتحقيق في البعث بعد الموت ينشأ في ذهن الإنسان فورا سؤالٌ: هل الروح شيء مادي؟ وإذا كانت كذلك، فماذا تكون؟ يرد الإسلام على هذا السؤال ويقول بأن الروح في الحقيقة شيء يتوصل الإنسان من خلاله إلى علوم لطيفة يستحيل عليه الوصول إليها بحواسه الظاهرية. الروح بمنـــزلة العلاقة بين الله وعبده، وهي عرش للجلال الإلهي، ولها علاقة غريبة مع الجسم بحيث لا يوجد لها نظير في أي شيء آخر، وهي تؤثر في القوى الظاهرية لجسم الإنسان من خلال القوة الدماغية المتفكرة والقوى القلبية الانفعالية. ولهذا السبب لا تتأثر الروح بالحركات الظاهرية بقدر ما تتأثر بالأفكار والعواطف لأن لها علاقة أقوى مع هذين المقامين. لم تنجح العلوم إلى الآن في الاطلاع على العلاقة بين الروح والقلب، ولكن أصحاب التجربة يعرفون أن هناك علاقة دقيقة بينهما، ومن هنا تنتقل هذه العلاقة إلى الدماغ بوسائل خفية، كما يصعد الزيت إلى الأعلى في المصباح بواسطة الفتيل، فتستقبلها أعصاب الدماغ وتجعلها قابلة لأن ينبعث منها ضوء يمكن أن يراه الناس ويقرّوا بحقيقته. إن هذه الروح، كما يتبين من القرآن، لا تأتي من الخارج بل تتولد في رحم الأمّ مع نمو الجسم الإنساني، وهي في حقيقتها الجوهر الناشئ من جسم الإنسان، ومثلها كمثل الخمر الذي يُستخرج بطريقة معينة من العنب أو الشعير أو ما شابههما. كذلك يمر الجسم بمراحل معينة في رحم الأمّ حتى يتولد فيه جوهر لطيف يسمَّى روحا. وحين يُكمل هذا الجوهر علاقته مع الجسم عندها يبدأ قلب الإنسان بالخفقان فينال الإنسانُ حياةً، وبعد الخروج من الجسم يكون كيان هذا الجوهر مستقلا استقلال الخمر عن الأعناب وغيرها.

فزبدة القول إن الروح مخلوق بحسب الإسلام، وتتولد حينما يكون الجنين في بطن الأمّ. والإسلام يعلِّمنا أيضا أن روح الإنسان لا تضيع بعد تولدها بل أمامها زمانٌ لا ينقطع. والحالة التي تسمَّى الموت إنما هي اسم آخر لانفصال

الروح عن الجسم. والنتيجة الحتمية لهذا الانفصال هو توقف خفقان القلب وتحوّل جسم الإنسان إلى جثة هامدة. الروح، وفق تعليم الإسلام، بحاجة إلى الجسم دائما لإظهار قواها. وكلما يعجز الجسم عن إظهار قواها تهجره الروح. إذا هجرت الروحُ الجسمَ سمِّي ذلك موتا، أي يفقد الجسم قدرته على الحركة. إذاً، عندما نقول إن فلانًا قد مات، فليس معنى ذلك إلا أن روحه قد غادرت جسمه، وإلا فالروح لا تفنى بل تبقى حية. وإذا آمن أحد بالله وآمن بقدراته فأنّى له أن يقبل أنه تعالى قد خلق هذا الكون كله لمجرد أن يُخلَق الإنسانُ فيه ويأكل ويتمتع لفترة محدودة أو يكشف بعض أسراره ثم يفنى؟ إن الفكرة أن عاقلا حكيما قد خلق الكون كله بما فيه الشمس والقمر والنجوم والأرض وما فيها وخلق أسرارا دقيقة في الطبيعة، ثم خلق فيها الإنسان يعيش لستين أو سبعين أو مئة عام ليفنى بعد ذلك، إنما هي فكرة يرفضها العقل ويدحضها بشدة. إن خلق كون كبير إلى هذا الحد من أجل الإنسان وتمكينه من تسخيره بواسطة العقل يقتضي أن هناك هدفا آخر أيضا للإنسان إضافة إلى حياته المحدودة. يقول الإسلام إن ذلك الهدف هو أن يُعطَى الإنسان حياة أبدية ويُفتَح أمامه سبيل للتقدم إلى الأبد. يذكر الله تعالى في سورة "المؤمنون" خلق السماوات والأرض وخلق الكون وقدرات الإنسان، ثم يتساءل: هل تظنون، مع كل ذلك، أن الحياة مقتصرة على الحياة الدنيوية فقط، وأنه لا حياة بعد الموت؟ ثم يطرح أخيرا سؤالا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[1]؛ أي هل تظنون أننا قد خلقناكم لغوا وعبثا؟ ألم نجعل لكم حياةً أبديةً وسلسلةَ تقدمٍ أبديٍّ تبدأ بعد الموت؟ لا، ليس الأمر كذلك! لأن الله صاحبُ المجد والعلا وهو الملكُ الحق؛ فلا يعمل عملا بلا هدف وحكمة. وهو الإله الواحد الذي يملك

[1] سورة المؤمنون: ١١٦-١١٧

الصفات الكريمة التي تخلق الكرامة في القلوب، فلا يمكن التصور أنه لم يخلق هذا العالم أو خلقَه بدون هدف مهم.

بعد بيان حقيقة أن سلسلة الحياة الإنسانية، حسب تعليم الإسلام، تبقى جارية بعد الموت أيضا، أريد أن أوضح أن ما يخبرنا به الإسلام عن حقيقة تلك الحياة يتبين منه أن العالَم الثاني ليس عالَما جديدا، بل هو استمرار العالَم الحالي. وليس المراد من ذلك أن الإنسان سيموت وسيبقى ميتا إلى فترة من الزمن ثم يُحيا ويُجعَل مسكنُه في مكان الراحة أو مكان العذاب بحسب أعماله الصالحة أو الطالحة. بل الحق أن روح الإنسان تُخلَق بقوى معينة بحيث يحرَّم عليها الفناء بعد ذلك، وتُظلها صفة قيومية الله تعالى فتكون مصونة من الفناء والهلاك.

فالمراد من الموت هو الانتقال من حالة إلى حالة أخرى وليس أكثر من ذلك. يقول القرآن الكريم في ذكر ضرورة هذا الانتقال إنه لولا الموت لما أحرزت روح الإنسان تقدما كاملا قط، لأن الإنسان مجبول على أنه لو انكشف عليه الأمر كاملا لما سلك مسلكا خاطئا، كما أن نوال الأجر بعد الانكشاف الكامل أيضا يتنافى مع العقل، إذ لا نعطي أحدا أجرا على مجرد اعترافه بوجود الشمس حين يراها في كبد السماء، أو على إقراره بوجود الليل والنهار. غير أننا نكافئ طالبًا يتقدم للامتحان ويحل مسائل دقيقة وصعبة، أو نحترم ونكْرِم الذين يكتشفون أسرار الطبيعة الدقيقة ونعلي درجاتهم. إذًا، فالجوائز توهب لدى إنجاز أحد أعمالا شاقة أو إثر بحثه عن أسرار كامنة وإظهارها للعيان، أو بعد قيامه بأمور تتطلب من الإنسان جهدا خاصا. ولكن لو فُتحت أبواب التقدم والرقي في هذا العالم لشاهدت الأجيال القادمة أناسا حائزين على أنواع التقدم جزاء قيامهم بالجهود الشاقة، ولشاهدت أيضا أناسا آخرين مأخوذين في الابتلاءات والمحن لمعارضتهم الأنبياء والرسل، ولآمنت تلك الأجيال بوجود الله تعالى وبصدق الأنبياء، إلى درجةٍ أن لن تبقى أمامهم فرصة

للتعرض للامتحان، ولما استحقت أي أجر أو جزاء. لذا كان ضروريا ألا تظهر ثمرات الإيمان إلا إلى حد معين فقط وأن تبقى تلك الثمار خفية إلى حد معين أيضا ليتميز المجاهدون في الله عن المنهمكين في ملذات الدنيا، ولينال الثواب أو العقاب كل بحسب جهده وتضحيته أو سوء أعماله.

باختصار، الحكمة من وراء الموت هي إخفاء أمور سيتعرض لها الناس نتيجة أعمالهم، وذلك ليتأملوا ويتفكّروا ويصلوا إلى الحقيقة خاشعين لله، فتتولد في روحهم قدرة حرة لا تتولد إلا نتيجة هذه المساعي فقط. والحكمة الثانية من الموت هي أن تحرز روح الإنسان قدرات لا يمكن نيل الترقيات العليا بدونها. لا شك أن جسم الإنسان كثيف إلى درجةٍ أنْ لا يمكنه عندها مشاهدة الأشياء اللطيفة الدنيوية، ودونك أن يدرك القدراتِ الدقيقة التي تتكون من مواد ألطف بكثير من المواد الدنيوية، أو بالأحرى ألطف من الأجزاء الروحانية من نوع معين. فبفصل الروح عن الجسم تتسنى لها فرصة الاطلاع على تلك الأمور اللطيفة التي هي ضرورية لتقدمها اللامتناهي. فعندما تنفصل الروح عن الجسم تشرع في سلوك مسلكٍ آخر، ولا تبقى مقيدة في حجرة معينة إلى وقت معين لتترقب نتيجة الامتحانً الذي مرت به.

والحق أن هذه الفكرة إنما هي من اختلاق بعض الأذهان. بعض الناس شبَّهوا الحياة الإنسانية بالامتحان ورسموا صورتها الكاملة في الأحوال بعد الموت، وأوجدوا من عندهم فاصلا زمنيا كالفاصل القصير بين الامتحان وتدقيق الأوراق، وحددوا يوما تُعلن فيه نتائجه، فينجح البعض ويفشل آخرون. ومع أنه صحيح تشبيهُ الحياة الدنيوية نوعا ما بأيام الامتحان. مع أن حياة الإنسان تماثل نوعا ما أيام الامتحان، ولكن ليس صحيحا القول بمطابقتها التامة له في كل كيفياته، فهي لا تشبه أسلوب الامتحان عند الناس بقدر ما تشبه قانون الطبيعة الذي يضمن تقدما لمن يعمل به.

الإسلام يشبِّه حياة الإنسان بعد الموت بحياته من النطفة، بل بالحياة النباتية فالحيوانية. فالجنين يمر بمراحل التطور في رحم الأم بدءا من النطفة، ثم بعد الولادة يمرّ بفترة من الضعف ويتعلّم أثناءها علوم الدنيا وعاداتها، كذلك سيمر بمراحل مختلفة بعد الموت أيضا. فكلمة الرحم التي استخدمها القرآن الكريم استخدمها نفسها عن المقام والحالة التي يمر بها الإنسان بعد الممات. فالحالة الأولى لروح الإنسان بعد مماته تكون كالنطفة التي تستقر في رحم الأم، وتحدث في هذه الروح تغيرات بحسب أعمال الإنسان في هذا العالم. وكما يظل الجنين ينمو في رحم الأم فتتولد فيه روح جديدة، كذلك تمر روح الإنسان أيضا بظروف مختلفة وتُحدث فيها تغيرات وتتولد فيها روح أخرى هي أعلى وأرفع بكثير، وتملك قوى وشعورا أفضل وأكبر من روح الحياة الدنيوية. فتكون الروح الأولى بمنـــزلة الجسم للروح الجديدة. فيقدر الإنسان على رؤية الأشياء بعينه المادية، بينما كان يراها بعيونه الروحانية من قبل، لأن الجسم في ذلك العالَم يشبّه من حيث لطافته الروح الموجودة في هذه الدنيا، بل يمكن القول بأن الجسم يُجهَّز من الروح نفسها تحت تأثير تغير جديد.

بعد هذا التغير يحدث في الروح تغير آخر يمكن تشبيهه نظرا إلى أشياء دنيوية بولادة الجنين. وهذا التغير يسمى "حشر الأجساد". والمراد من ذلك أنه قد تم إعداد الجسم والروح أثناء مرحلة القبر لينسجما مع حياة الإنسان الجديدة، كما أن الجنين عندما يكتمل في الرحم وتتولد فيه الروح يأتي إلى حيز الوجود وكأنه خرج من حالة القبر.

يقول الإسلام إن هناك مرحلة أخرى بعد حشر الأجساد تسمى "يوم الحشر"، ويمكن تشبيهها بمرحلة الطفولة حين ينمو الطفلُ ويقوي علمَه وعقلَه لحياته الجديدة. وفي هذه الفترة تكون قوى الروح أقوى وأكثر نموا من المرحلة التي تُسمّى مرحلة القبر، ولكنها لا تكون كاملة إلى ذلك الحين، غير أنها تصبح

كاملة بالنسبة إلى تأثير ذلك اليوم والتغييرات الحادثة فيه، وتكون حالتها (أي حالة قوى الروح) كحالة الطفل المدرك الذي يكون جاهزا الآن لإدراك كيفيات الدنيا جيدا. هذه الحالة من الكمال تسمَّى بـــ "الحكم النهائي"، ويُنقَل الإنسانُ بعدها إلى حالته النهائية التي تسمَّى جنةً أو جحيما.

أثناء هذه المراحل الثلاث ينال الإنسان راحة أو يواجه معاناة بحسب حالته الروحانية. فكما كان الإنسان يشعر براحة الجنة أو معاناة الجحيم أثناء ولادته الأولى، كذلك الحال في المرحلة المسماة بيوم الحشر التي تشبه مرحلة الطفولة، إذ ينال أجرا أو عقابا بحسب ما قام به من الأعمال في الدنيا، وإن كان شعوره بالأجر أو العقاب أكبر من شعوره في حالة القبر. وعندما تكتمل ولادته الجديدة تماما تكون حالته الأخيرة شبيهة بحالة الإنسان الشاب في الدنيا الذي اكتمل إحساسه وإدراكه، فيُنقَل إلى حالته الأخيرة، وحالة شعوره الكامل التي تسمى بالجنة أو الجحيم.

باختصار، إن زمن حياة الإنسان لا ينتهي أبدا، ولا يحدث انقطاع في الثواب أو العقاب، وإنما تمر الروح بفترتين- من أجل الانسجام مع الحالتين الجديدتين- هاتان الفترتان أدنى من الحالة الأخيرة والكاملة ولكنهما ضروريتان للوصول إليها. روح الإنسان تخطو إلى التقدم باستمرار وتنتقل من حالة إلى أخرى دائما. يقول القرآن الكريم بهذا الصدد: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1]، ثم يقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

[1] سورة النحل: ٢٩-٣٠

[2] سورة النحل: ٣٣

ويقول النبي ﷺ: "إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار"[1]، فتبين أن روح الإنسان تبقى حيّة على الدوام، وتسلك فور وفاة الإنسان مسلكا كان قد أعدّه لنفسه بواسطة أعماله.

لا يظنّنّ أحد أن المراد من كلمة "القبر" الواردة في الحديث هو القبر المادي الذي توضع فيه الجثة. بل المراد منه هو المقام الذي تبقى فيه الأرواح. يقول الله ﷻ في القرآن المجيد: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾[2]. أي يُدخل اللهُ الإنسانَ في القبر بعد موته، ولكن من الواضح أنه ليس كل الناس يُدخلون في القبر المادي، إذ تُحرَق جُثث كثير منهم، أو تأكلها الوحوش، أو تغرق في البحر. فالمراد من القبر هنا هو المقام الذي تُحشر فيه الأرواح، وليس ذلك القبر الذي توضع فيه الجثة الهامدة ليعمل فيها قانونُ التفكّك والتحلّل الأبدي عملَه.

هل الثواب والعذاب في الآخرة ماديَّان أم روحانيَّان؟

بعد بيان نظرية الإسلام عن حالة روح الإنسان بعد مماته، أبين الآن تعليمه فيما إذا كانت نِعم الآخرة وعقوباهما مادية أو روحانية؟

اعلموا أنَ الإسلام يقول إن كيفيات العالَم الثاني أي الآخرة مادية وروحانية في الوقت نفسه. أما المادية فبمعنى أن روح الإنسان تحرز التقدم وتُعِدّ لنفسها جسما فورا، وإن المتعة والصعوبات في ذلك العالم تتمثل بصورة مرئية كما نرى الأشياء في هذا العالم. وأما الروحانية فبمعنى أهما لن تكون متكوّنة من المواد التي تتألف منها الأشياء في هذا العالم، وأنّى يمكن ذلك أصلًا؟! لأن الروح تُنقَل من هذا العالم إلى الآخر لسبب وحيد وهو أن تحرز القوى اللطيفةَ التي تمكّنها من الاطلاع على نكات لطيفة لا يسع الجسم المادي إدراكها. فلو

[1] سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة.

[2] سورة عبس: ٢٢

كانت في العالم الأخروي أيضا الفواكه واللبن والعسل والنار والدخان والأشياء الأخرى نفسها الموجودة في هذه الدنيا لما كانت هناك حاجة أصلا إلى فصل الروح عن الجسم. بل كان الأجدر في هذه الحالة أن تُرفع الروح مع الجسم. وإذا كان الجسم في ذلك العالم شبيها بالحالة الروحانية الحالية، فكيف يمكن أن يكون غذاء الروحِ اللبنُ والعسلُ؟ وكيف يمكن أن تكون النار والماء الحميم عقابه؟ فهل تستهلك روح الإنسانِ النارَ والماءَ والفواكه الموجودة في هذه الدنيا حتى تكون قادرة على استهلاكها في الآخرة؟

باختصار، ليس صحيحا القول بأن الإنسان بعد موته سيؤجَر أو يعاقَب بأشياء كالأشياء الموجودة في هذا العالم. ولكن مما لا شك فيه أن بعض الأشياء سوف تتمثل له هنالك في أجسام لطيفة. فتتمثل هذه الأشياء بصورة العقوبة للأشرار وبصورة الأجر والثواب للأبرار، لأن الشعور الكامل بحقيقة الحياة مستحيل ما لم يكن للشيء اللطيف جسم منسجم مع لطافته. كل روح بحاجة إلى الجسم، الروح الأدنى تحتاج إلى جسم كثيف، والروح الأعلى تحتاج إلى جسم لطيف. وبما أن الأرواح تكون مصحوبة بجسم في العالَم الأخروي، لذا لا بد من أن تُعرض عليها الأشياء عن طريق المحسوسات الخارجية كما كانت تُعرض في هذا العالم. وبما أن الأجسام الروحانية ليست مثل الأجسام المادية فلا بد أن تكون الأشياء المتمثلة روحانية أيضا مقارنة بأشياء هذا العالم.

ولكن كما تكون في هذا العالم كيفيات روحانية أيضا إلى جانب الكيفيات المادية، كذلك تكون للروح الأعلى التي خُلقت للعالَم الأخروي حالات روحانية ومادية من حيث الأجر والعقاب، ولكنها تكون أعلى وأرفع من مثيلاتها في هذا العالم. إن الحالة المادية للعالم الأخروي تكون شبيهة بالحالة الروحانية في العالم الدنيوي، أما الحالة الروحانية فستكون أرفع وأعلى بكثير.

لا شك أن القرآن الكريم قد استخدم كلماتٍ مثل النار والزمهرير والأصفاد وغيرها في ذكر العقاب بعد الممات، واستخدم في ذكر الإنعام كلمات مثل الظلال والماء واللبن والعسل وغيرها، ولكن إلى جانب ذلك يقول القرآن الكريم:﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، كذلك ورد في الحديث الشريف عن نعماء الجنة: "فيها ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر"[2]. فإذا كانت نعماء الآخرة مثل نعماء توجد في هذه الدنيا لما أمكن القول بأن الإنسان لا يستطيع أن يتصورها مهما كانت أعلى درجة. إذًا، الكلمات الواردة آنفا تخبر بجلاء أن تلك النعماء ستكون من نوع آخر تماما وكذلك العذاب أيضا سيكون من نوع آخر.

يقول الله تعالى في مكان آخر أنه حين ستُقدم فواكه الجنة أمام أهلها سيقولون: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾[3]، ثم يقول الله تعالى عن قولهم هذا: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[4]؛ أي أن الأشياء التي يُعطَون لن تكون كمثل أشياء الدنيا وإن كانت شبيهة لها من حيث شكلها الظاهري.

الحق أن الروح لا تستهلك أشياء ماديةً كما يستهلكها الجسم وهذا لا شك فيه، ولكنها تستمتع حتما بما يستمتع به الجسم، كما تأخذ نصيبها من الأذى الذي يصيب الجسمَ. ولما كانت الروح ألِفَتْ الأشياء الدنيوية فإن أشياء العالَم الأخروي سوف تتمثل لها في هيئة الأشياء الدنيوية لاستكمال راحتها أو عذابها.

---

1 سورة السجدة: ١٨

2 ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة.

3 سورة البقرة: ٢٦

4 المرجع السابق.

لقد ضرب القرآن الكريم مثلا لطيفا لفهم الحالة الروحانية بعد الموت، وبه يمكن للإنسان أن يدرك كيفيات العالم الآخر لدرجة يمكنه أن يفهمها بحواس هذا العالم، فقال: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، هذا يعني أن علاقة الروح بالجسم في حالة نوم الإنسان تنقطع مؤقتا، وعليه يمكن للإنسان أن يقيس حالةَ بعد الموت. ولما كان هذا الانفصال مؤقتا فإن العلاقة بين الروح والدماغ تبقى قائمة، لذلك يستطيع الإنسان أن يتذكر الكيفيات التي تواجه الروح عند انفصالها عن الجسم. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يستطيعون أن يدركوا كيفيات الروح وأعمالهم وما سيحدث بعد الموت.

تأملوا الآن في حالة المنام! فمع أن الجسم يكون في حالة نوم هادئ ولكن الإنسان يرى نفسه بأشكال أخرى ويزور أماكن مختلفة ويرى أشياء ذات أجسام مادية ولكن أجسامها تختلف عن الأشياء الدنيوية المادية. وفي بعض الأحيان يكون جسمها من الكمال بحيث يترك أثرًا على جسم الإنسان أيضا. والذين لديهم خبرة في هذا المجال يدركون هذه الأمور الدقيقة. لقد جرّبتُ أنا شخصيا هذا الأمر أكثر من مرة، فذات مرة كنت صائما وشعرت بالعطش المفرط وقد تجاوز الحدود، فدعوت الله تعالى، فغشيني النعاس فورا وأُلقي في فمي شيء لإرواء العطش. لم تمتد هذه الحالة أكثر من ثانية واحدة ثم تغيرتْ ووجدتُ أن العطش زال نهائيا وشعرت كأني شربت الماء ملء بطني. لقد سجل المسيح الموعود عليه السلام كثيرا من تجاربه بهذا الشأن، منها أنه رأى المسيح الناصري عليه السلام في حالة اليقظة بجسمه الروحاني، وتحدث معه طويلا حول الفساد الذي تطرق إلى المسيحية وطرق إصلاحه. ومرة أكل الطعام أيضا معه عليه السلام. هذه

---

[1] سورة الزمر: ٤٣

الأمور–بالنسبة إلى الذين لا يعرفون هذه العلوم– ليست أكثر من ضرب من الوهم أو الخلل في دماغ قائلها. ولكن الذين جرّبوا هذا الأمر ولديهم خبرة في العلوم الروحانية يدركون هذه الكيفيات جيدا. وليكن معلوما أيضا أنني لا أهدف من العلوم الروحانية هنا إلى كيفيات دماغية تظهر للعيان عن طريق التنويم المغناطيسي وما شابهه لأنها شيء آخر تماما ولا علاقة لها بالأمور الروحانية بل الحق أن الأمور الروحانية تختلف عنها اختلافا جذريا.

قصارى القول، إن عالَم المنام وعالَم الكشف كمثال للعالَم الأخروي، وعليهما يمكن للإنسان أن يقيس العالَم الأخروي. كما أن كل الأشياء تصبح روحانية في المنام ومع ذلك يكون لها جسم أيضا، كذلك سيكون الأمر في العالَم الأخروي، بمعنى أنه سيكون للأشياء هنالك جسم ولكنه يكون روحانيا. وإضافة إلى ذلك تكون الكيفيات الأعلى من هذه الأشياء روحانيةً كلها.

يوضح القرآن الكريم حقيقة هذا الأمر قائلا بأن الأعمال التي قام بها الإنسان في هذه الدنيا سوف تتمثل له في الآخرة. لن يكون الماء في ذلك إلا تمثُّلا لكيفية عمل الإنسان بأحكام الشريعة في هذا العالم، ويكون اللبن تمثُّلا للمعرفة الإلهية التي أُعطيها في هذا العالم، ولن تكون الفواكه إلا متعةً وسرورا كانت روحه تشعر بهما في طاعة الله ﷻ في الدنيا. فيقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1]؛ أي أن أعمال الإنسان تلازمه دائما ولا تنفصل عنه. ومع أن تأثيراتها تكون خافية، ولكننا نجعل أعماله يوم القيامة مثل كتاب مفتوح يقرأه الإنسان بكل سهولة ووضوح، بمعنى أن تأثيراتها تظهر يوم القيامة، وكل عمل قام به الإنسان في الدنيا ستظهر نتيجته هناك وسيجعل الحياة الدنيوية بحسب رغباته. ثم يقول الله تعالى بأننا

[1] سورة الإسراء: ١٤–١٥

سنقول للإنسان عندئذ أن: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي لا بد أن تنال الآن رقيًّا أو انحطاطا بحسب أعمالك، وتتحمل نتائجها. ولا حاجة لنا إلى أن نحاسبك بل كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، أي كفاك تأثيرات أعمالك ثوابا أو عقابا، ولا حاجة لنا إلى أن نثيبك أو نعاقبك من عندنا. انظروا كم هي واضحة هذه الآية الكريمة في بيان أن نِعم الآخرة أو عقوباها إنما هي تَمثُّل الأعمال التي قام بها الإنسان في الدنيا.

وفي موضع آخر يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[1]؛ أي الأشربة التي يشربها الأبرار في الجنة تكون سريعة التأثير وتكبت الثوائر غير المشروعة. وتُملأ كؤوسهم من عيون يكون المؤمنون قد فجّروها بكل جدٍّ وكدٍّ، بمعنى أن الأعمال التي قاموا بها في الدنيا تتمثل لهم بصورة عيون في الآخرة وليس إلا.

كذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾[2]؛ أي أن الذي لم ير الله تعالى بعينيه الروحانيتين في الدنيا سوف يشعر في الآخرة أيضا بنوع من العمى لأن الروح نفسها ستكون بمنـــزلة الجسم هنالك.

وفي موضع آخر يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[3]؛ أي أن الذي يغفل عن ذكري في الدنيا ولا يحاول البحث عني يحيا حياة تقلل من قدراته الروحانية إلى حد كبير، وتكون النتيجة النهائية أنه عندما تستكملُ

---

[1] سورة الإنسان: ٦-٧

[2] الإسراء: ٧٣

[3] سورة طه: ١٢٧ إلى ١٢٧

روحه قواها ويأتي وقت يمثّل الولادة للحياة الروحانية الثانية سيولَد هذا الشخص أعمى من حيث الروحانية. عندها يقلق كثيرا ويقول لله تعالى في اضطراب متزايد: ما الذي حدث يا ربي؟ لقد كنتُ بصيرا في الحياة الدنيا فلمَ حشرتني أعمى؟ فيقول الله ﷻ: بسبب نسيانك آياتي وذكري فقد تركتُك اليوم لتواجه نتائج أعمالك. فالواضح من هذه الآية أن العمى في الآخرة يكون نتيجة العمى الروحاني في الحياة الدنيوية.

تبين بوضوح أن أسباب الراحة والعذاب في الآخرة، بحسب الإسلام، مع كونها مادية نوعا ما، ليست إلا تمثُّلات لأعمال الإنسان في هذا العالم. هذا ما يتبين أيضا من التفاصيل التي ذكرها القرآن عن الأشياء الموجودة في الآخرة. فيقول القرآن الكريم إن أهل الجنة يُعطَون نوعا من الخمر ولكنها ستطهر القلوب. من الواضح أن الشيء المادي لا يمكن أن يطهر القلب. فالمراد من الخمر هنا هو حب الله الذي حازه الإنسان في الدنيا والذي يتمثل له في الآخرة بصورة الخمر كما يرى الإنسان في المنام أمورا روحانية بأشكال مادية. فعندما يشرب الناس هذه الخمر- إذ يكون حب الله تعالى متمثّلا لهم في ذلك الشكل ولن تكون خمرا ماديا- فستتطهر القلوب ويزداد أصحابها حبا لله.

فزبدة الكلام أن الإسلام يقول بكون نعماء الآخرة وعقوباتها مادية وروحانية في الوقت نفسه. والحق أن هذه هي حقيقتها وماهيتها الحقيقية. والذين لم يعرفوا هذه الحقيقة فإنهم إما حسبوها مادية أو زعموها شعورا قلبيا بحتا، بينما كِلا الأمرين يتنافى مع العقل، إذ لا يمكن أن توجد في الآخرة أشياء مادية، ولا يفي الشعور القلبي وحده بهذا الغرض. كما لا يمكن لشيء لطيف مخلوق أن يعيش بدون جسم كثيف نسبيا أو يظهر قدراته.

أين وكيف سيتحقق الثواب والعقاب الأخروي؟

هناك سؤال آخر وهو: أين وكيف سيتحقق الثواب والعقاب الأخروي؟ لقد رد عليه الإسلام ردا رائعا بينما نرى الأديان الأخرى صامتة واجمة حياله. يخبرنا الإسلام أن المراد من الجحيم هو أنواع العذاب التي تُشعَر بالحواس السبع، فيقول: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[1]؛ أي أن لجهنم سبعة أبواب، ومن كل باب يمر جزء من أجسام أهل الجحيم. ومن ناحية ثانية نجد أن القرآن الكريم يقدّم لنا كل إنسان بصورته الكاملة والسليمة سواء كان من أهل الجنة أو أهل الجحيم ولا يقول إنهم يقطَّعون أجزاء. فدخول أجزاء الإنسان من سبعة أبواب يدل على أن الإنسان سيحسّ الجحيم بحواسه السبع، وكأنه يدخل من سبعة أبواب، ومن كل باب يمر جزء منه أي جزء عن طريق البصر، وجزء بواسطة السمع، وجزء من خلال حاسة الشم، وجزء بحاسة الذوق، وجزء آخر بواسطة حاسة اللمس، وجزء أيضا من خلال حاسة الشعور- مثل الشعور بالحرارة أو البرودة- وجزء عن طريق القوة الفاعلة التي تسمى الإحساس العضلي. والمعلوم أن الإنسان يرتكب كل الذنوب بهذه الحواس السبع. فهو إما يرتكبها بالعين إذ يرى الأشياء بنظرة سيئة، أو يرتكبها بالأذن حين يسمع الغيبةَ أو يسمع فحش الكلام، أو يرتكبها بالأنف حين يشم أشياء ما كان له أن يشمها، أو يرتكبها بحاسة التذوق إذ يأكل مما لم يكن أكله مسموحا له، أو يرتكبها بواسطة حاسة اللمس حين تمنعه الرغبة في المكوث في الفراش الوثير والدافئ من تحمل المشقة والعناء من أجل بني جلدته، أو يترك الحسنات نهائيا خوفا من الحر أو البرد، أو يتركها ناقصة تكاسلا منه وتهاونا، بُغية إنقاذ نفسه من الإرهاق والتعب.

---

[1] سورة الحجر: ٤٥

إذًا، فهذه هي الحواس السبع التي تحرض الإنسان إما على كسب الحسنات أو اقتراف السيئات. فالأبواب السبعة لجهنم التي يدخل منها الإنسان ليست إلا هذه الحواس السبع التي بسببها وبواسطتها اقترف الإنسان السيئات في الدنيا، فهي نفسها تكون سببا لعذابه في الآخرة. وبسبب اعتياد الإنسان على الذنوب من خلال هذه الحواس تمرض حواسه السبع الروحانية التي تقابل الحواس السبع المادية. ولكونها مريضة تشعر بالعذاب والمعاناة المقدَّرة للمذنبين في الآخرة. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحواس السبع، فقال عن عذاب يتعلق بالرؤية: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾[1]؛ أي أنهم سيُرون مشاهد يتعذبون برؤيتها. ويقول النبي ﷺ إنهم سيرون أشياء من قبيل الأفاعي والعقارب وما شابهها[2].

ويقول الله ﷻ عن عذاب يتعلق بحاسة السمع: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[3]؛ أي عندما يواجهون الجحيم يسمعون صوتها القوي والصراخَ، أي سيصدر من لهيبها صوت مخيف للغاية يمثِّل العذاب في حد ذاته. وقال عن حاسة الشم والذوق: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[4]، ثم قال عن عذاب يتعلق بحاسة اللمس: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[5]، فهكذا تتعذب حاسة اللمس لديهم أيضا. وقال أيضا: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[6]، وعن العذاب بالحر والبرد

---

[1] سورة البقرة: ١٦٦

[2] الدر المنثور، تفسير الآية: ﴿ويوم نبعث من كل أمة بشهيد...﴾

[3] سورة الفرقان: ١٣

[4] سورة إبراهيم: ١٧-١٨

[5] سورة الأعراف: ٤٢

[6] سورة الفرقان: ١٤

قال: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[1]. وقال عن عذاب الحس العضلي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾[2]؛ أي بعض الوجوه يومئذ تكون ذليلة، وتتعب كثيراً ولكن بدون نتيجة.

باختصار، بيّن الله تعالى في القرآن الكريم أنواع العذاب للحواس السبع، والمراد من عذابها هو فساد تلك الحواس الروحانية السبع، الأمر الذي يؤدي إلى حلول العذاب بصاحبها. بما أن أصحابها أساؤوا استخدام الحواس التي وهبهم الله إياها لذا ستكون النتيجة أن حواسهم تكون مريضة تماما في الحياة الروحانية وكل شيء يصبح لهم عذابا. والذين استخدموا الحواس نفسها بطريقة سليمة تكون حواسهم مدعاة للسعادة والحبور لأن الاستخدام السليم لشيء يزيد في قوته. فالإنعامات التي بيّنها القرآن الكريم للأبرار كلها تتعلق بالحواس السبع نفسها. فكل حاسة تشعر بالمتعة لأنها تكون سليمة. ألا ترون أن ضوء الشمس الجميلَ الذي يكون متعة للعيون السليمة ويُفرح القلب، كم يؤذي صاحب عين مريضة، إلى درجةٍ أنْ لو لم يُبعد الضوء عنه تكاد عينه تضيع كليا أو قد يُغمى عليه. كذلك ألا ترون كم يُدخل الصوت الجميل والرخيم متعة وسرورا إلى آذان سليمة، ولكن يتسبب الصوت نفسه في المعاناة والمصيبة للمصاب في أذنه أو المصاب بالصداع؟ والصوت الذي يبعث الحياة في نفوس الناس الأصحاء يصبح وبالا لا يطاق لذوي الطبائع المريضة. أوَلا ترون أيضا أنه بسبب الخلل في حاسة الشم يتأذى الأنف من كل رائحة فتصبح حساسيته أكثر من المفروض، في حين إن وظيفة الأنف هو شم الروائح أصلا؟ وفي بعض الأحيان تتفاقم هذه المشكلة عند بعض الناس فيمرضون فورا إثر شم العطور ويصابون بالصداع، في حين إن الروائح الطيبة نعمةٌ كبيرة في حد ذاتها. أوَلا

[1] سورة ص: ٥٨

[2] سورة الغاشية: ٣-٤

ترون أن حاسة الذوق نعمة كبيرة للإنسان، ولكن عندما تفسد يتذوق صاحبها الحلوَ مُرًّا والمالح مالحا جدا فتحدث معاناة كبيرة للإنسان، ويفسد طعم كل شيء حتى يتحول هذا الوضع إلى عذاب شديد له؟! ألا ترون أيضا أنه عندما تفسد حاسة اللمس فإن الفُرُش الوثيرة التي تكون مدعاة للراحة والارتياح لعامة الناس تصبح الفُرش نفسها أكثر قسوة من الحجارة أو كأنها أشواك فيتقلّب المريض عليها؟ أفلا ترون أيضا أنه عندما يحدث الخلل في حاسة الشعور بالبرد أو الحر فإن البرودة التي تكون راحة للناس تتحول إلى نار عند البعض الآخرين؟! فيخلعون ثيابهم ويشكون أنهم موشكون على الاحتراق من شدة الحر، في حين يشعر الجالسون بجنبهم ببرد شديد؟ ثم ألا ترون أن الذي تصاب حاسة الشعور بالحر لديه يرتعد من البرد في الطقس الحار، ويلتف بثياب دافئة، في حين يستخدم الناس حوله الثلج والمراوح؟ كذلك ترون أن الذين لديهم خلل في حاسة الحركة يتأذون بالمشي مهما كان قليلا ويلهثون إثر خطوهم بضع خطوات في حين أن المشي يبعث نشاطا وحيوية في غيرهم. إذًا، كل هذه المشاهد ملحوظة في هذه الدنيا وبوسع الإنسان أن يدرك جيدًا من خلالها كيفية جهنم.

الحقيقة أنه كما أن للحسنة وجودا مستقلا ودائما والسيئةُ اسم آخر لاستخدامه الخاطئ، كذلك فإن النعماء الإلهية هي الأصل؛ والعذابُ اسم للخلل الذي يُحدثه الإنسان في نفسه بنفسه. ذات مرة جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما دام الله تعالى يقول: ﴿جَنَّة عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ فَأَيْنَ النَّهَارُ؟[1]. هذا هو حال الجنة والجحيم. ليس المراد هنا أنه يأتي على الناس زمان يكونون فيه كلهم في الجحيم وسيأتي عليهم زمان يكونون كلهم في الجنة، كما يتتالى الليل والنهار. بل المراد أن الليل

[1] مسند أحمد، أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين.

موجود في العالم كله وكذلك النهار أيضا يطلع على العالم كله، ولكن الذين يسكنون في منطقة تظهر فيها الشمس يكون عليهم نهار، ويغشى الآخرين الليل. كذلك الذين سيكونون تحت رحمة الله تعالى إذ يكون المقام نفسه جنةً لهم وجحيمًا لغيرهم. إذن، الذين تكون حواسهم السبع سليمة بفضل الله تعالى يشعرون بمتعة نِعم الجنة، أما الذين تكون حواسهم فاسدة، فستتمثل لهم النِعم نفسها عذابًا. سيشعر الصالح بالحر بقدر ما يكون مدعاة لسعادته، أما الطالح فيشعر بنار تحرقه بلهيبها، مثلما يرى المريض نارا ويشعر بشدة حرارتها أيضا. سيتمتع الصالح بنعيم روحانية تشبه ماء باردا، أما الماء الذي سيُعطاه الطالح سيجده حميما يشوي وجهه. فقد قال النبي ﷺ: "ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار"[1]؛ أي إن الذين يدخلون الجنة يشغلون مكان أهل جهنم أيضا، كذلك إن الذين يدخلون النار يشغلون مكان أهل الجنة. والمراد من ذلك أن أهل الجنة ينالون الراحة كلها وأن أهل النار يواجهون العذاب كله. وهناك تعبير شائع مفاده أنه إذا لم يستطع أحد أن يستفيد من نعمة ما، يقول لغيره بأنك قد أخذت نصيبي. ولكن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾[2]، ثم يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[3]؛ أي أن كل شخص يدخل النار، ثم ننقذ المتقين من عذابها. فيدخلونها ويجتنبونها أيضا! والمراد من ذلك أن أهل الجنة يحوِّلون كل شيء إلى ما يسبب راحتهم بسبب سلامة حواسهم. فقد ورد في الحديث الشريف: أن الله تعالى سيقول لشخص أن يلقي نفسه في النار

[1] صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله.
[2] سورة مريم: ٧٢
[3] سورة مريم: ٧٣

فيجدها بردا وسلاما[1]. إذًا، فالثواب والعذاب في العالَم القادم ليس إلا كيفيات يشعر بها الجسم الروحاني الذي يُعطاه الإنسانُ في الآخرة. وستكون هذه الكيفيات نتيجة للاستعمال الخاطئ أو الصائب للحواس السبع، إلا أن هناك أمرا آخر وهو أن أهل جهنم يكونون محصورين في أماكنهم بينما يكون أهل الجنة أحرارا، ومثلهم في ذلك كمثل مريض يُكره على الاستلقاء على فراشه بينما يكون الشخص السليم حرا يذهب حيثما يشاء، لأن الجحيم سجنٌ والجنة واسعة بَداحُ.

باختصار، الجحيم مكان محدود والجنةُ لا حدود لها. لن يستطيع أهل الجحيم أن يخرجوا من أماكنهم المحدودة لأنهم كمريض أُكرِه على الاستلقاء في فراشه، أما أهل الجنة فسيذهبون حيثما يشاءون لأن كل مكان قد جُعل جنة لهم. ولو دخل أهل الجنة مكانا هو كالنار لأهل الجحيم لوجده أهل الجنة بردا وسلاما. ولكن لما سيكون أهل الجحيم في معاناة وإن مشاهدة المعاناة أيضا ليست إلا محض معاناة لذا سوف يُحجَب أهلُ الجحيم عن عيون أهل الجنة بحجاب دقيق ولطيف حتى لا يتأذوا بمشاهدة معاناتهم، إلا إذا أرادوا أن يشاهدوهم بطيب خاطرهم. وإن أهل الجنة سوف يكونون غافلين عن مدارج بعضهم بعضا، بل كل واحد منهم يكون مطلعا على درجته هو، إلا إذا رزق الله أحدا منهم تقدما وأوصله إلى درجة أعلى، وذلك بعد تولد الأمنية للحصول عليها في قلبه، فينعمُ الله عليه بتلك الدرجة العليا.

---

[1] سنن الترمذي، شرح ابن العربي المالكي، أبواب صفة جهنم، باب ما جاء أن للنار نفسين.

هل العذاب والثواب أبدي؟

هناك سؤال آخر عن عالَم الآخرة وهو: هل العذاب والثواب أبدي لا ينقطع؟ يرد الإسلام عليه قائلا بأن الجزاء الحسن أبدي، ولكن عذاب الجحيم ليس أبديا، لأن القرآن الكريم يقول بأن الناس قد خُلقوا ليكونوا مظهرا كاملا لصفات الله تعالى. فلو بقي بعض الناس في الجحيم إلى الأبد فمتى وكيف يصبحون مظهرا لصفات الله تعالى؟ يخبرنا القرآن الكريم أن نَعماءِ الجنة ليست مقطوعة ولا ممنوعة، ولكن عقوبة الجحيم ليست كذلك، بل إنها مقطوعة في نهاية المطاف بمشيئة الله وفضله، لأن القرآن الكريم يقول بأن رحمة الله غالبة على غضبه. إذًا، عندما يكون أهل الجحيم قد ذاقوا غضب الله إلى فترة معينة يمكن تسميتها "الأبد" نظرا إلى مقادير الإنسان وضعفه، عندها تثور رحمة الله. يقول النبي ﷺ ما مفاده: يأتي على جهنم زمان ليس فيها أحد ونسيم الصبا تحرك أبوابها[1].

الحق أن الفكرة القائلة ببقاء أهل الجحيم فيها إلى الأبد ناتجة عن عدم فهم الحكمة وراء عذاب الله. فكما قلت من قبل إن الإسلام يقول بأن الإنسان يخلق العذاب لنفسه بأعماله السيئة، وإلا فالله تعالى رحيم، ولا يريد أن يعاقب أحدا. ولكن بما أن الإنسان يُفسد قواه الروحانية بنفسه فلا يعود قادرا على الإحساس بالنعم التي سيُعطاها في الآخرة، وبالتالي سوف يذوق العذاب. ولقد وضع الله تعالى قانونا آخر أيضا وهو أن المرض بنفسه ينتج العلاجَ أيضا. فكما أن

[1] كنْز العمال، ج١٤ رقم الحديث ٣٩٥٠٦، نص الحديث: "يأتي على جهنم يوم ما فيها من بني آدم أحد، تُخفَق أبوابُها".

للأمراض الجسدية أنواعَ العلاج كذلك العذاب الذي يصيب الإنسان في الآخرة سيؤدي إلى إصلاح المذنبين فيصيرون قادرين على الاستمتاع بنعماء الجنة. عندها يُدخَلون الجنة وتظلهم رحمة الله ويتحقق الهدف من خلق الإنسان، وسيصل الإنسان إلى المكان الذي خُلق من أجله.

هل سيستمر العمل في الجنة أو ينقطع؟

هناك سؤال مهم آخر، وبدون الرد عليه يبقى البيان عن الحالة بعد الموت غير مكتمل، والسؤال هو: ما الذي سيفعله الإنسان في الحياة الأبدية؟ وهل تنقطع فيها سلسلة أعماله؟ وهل يبقى فيها مشغولا في الأكل والشرب فقط مثل الطاعنين في السن أم يكون له شغل آخر أيضا؟ يرد الإسلام على هذا السؤال ويقول بأن حياة الإنسان إنما تكمن في العمل وحده، وإن فصله عن العمل إنما هو بمنـــزلة قطع شريان حياته. والحياة دون العمل أسوأ من الموت في الحقيقة. فلو كانت حياة العاطل محمودة لعُدّ الكسالى أفضل الناس على الإطلاق. ولكن كل من ذاق متعة العمل يعرف جيدا أن المتعة الحقيقية تكمن في العمل. قد يكون الجلوس عاطلا مرغوبا فيه لدى مختل العقل ولكن لا يستحسنه ذو عقل سليم مطلقا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]؛ أي أن المؤمن سيتقدم إلى الأمام باستمرار، ويرى أمامه مدارج جديدة دائما فيتمنى ويسعى للوصول إليها. ويقول القرآن الكريم أيضا: ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾[2]. يتضح من ذلك أنه سيكون في الجنة عمل ولكنه لن يتسبب في التعب والإرهاق. كذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

---

[1] سورة التحريم: ٩

[2] سورة الحجر: ٤٩

* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1]؛ أي يا أيتها النفس التي اطمأنت بي و لم يبق لديها أي شك أو ريبة بالنسبة لي، عُوْدي إلي راضية مرضية، وادخلي في عبادي وادخلي في مقام هو تحت ظلي أنا، أي أن صفات الله الكاملة تظلل هذا المقام. فيتضح من هذه الآية أنه رغم أن الإنسان يكسب الأعمال في هذه الدنيا أيضا ولكن فترة العمل الحقيقي هي بعد موته. عندها يصبح المؤمن عبدا حقيقيا لأنه عندئذ تتسنى له فرصة كاملة ليتصبغ بصبغة صفات الله ﷻ. فالعمل في الآخرة يكون أكثر منه في الدنيا وليس أقل.

يقول النبي ﷺ: "يُلهَمون التسبيح والتحميد"[2]؛ أي سيُلهَم المؤمنون في الجنة تسبيحات وتحميدات جديدة. طبعا ليس المراد من ذلك أنهم سيُلهمونها بكلمات جديدة لأن هذا ما يفعله الإنسان بنفسه أيضا. بل المراد هو أنهم سوف يُلهَمون صفات الله تعالى الجديدة الدالة على قدوسيته وعظمته ﷿، ليسعوا جاهدين ليكونوا مظهرا لها.

قد يخطر ببال أحد؛ ماذا عسى أن تكون تلك الصفات الجديدة؟ أليست تلك الصفات معلومة الآن؟ فالجواب هو أن الإنسان لا يقدر على التعلّم إلا بقدر ما تسمح له حواسه، لذا فإن علومنا في الحياة الدنيا مقتصرة على قدرة حواسنا. فيمكن القول بالنسبة إلى علومنا الحالية بأنها كاملة نظرا إلى حواسنا الموجودة. ولكن عندما ينال الإنسان حواسا جديدة يوفَّق لإدراك صفات الله الجديدة أيضا. وبما أن الله تعالى غير محدود، لذا فسيظل الإنسان يتقدم في معرفة صفاته وفي الحصول على العلم عنها، وستستمر صفاته المتجددة في الظهور عليه. والإنسانُ بدوره يحاول دائما خلقَها في نفسه. إذًا، كل علم جديد سوف

[1] سورة الفجر: ٢٨-٣١

[2] مشكاة المصابيح، كتاب الرؤيا، باب صفة الجنة.

يفتح أمام الإنسان مجالا جديدا للعمل، وستبقى هذه السلسلة جارية على الدوام. وفي كل يوم جديد سوف تزداد معرفة الإنسان أن ذات الله تعالى غير محدودة.

ملخص الكلام أن الجنة أيضا دار عمل مثل الدنيا تماما بل تتسع فيها دائرة العمل أكثر من الدنيا.

الفرق الوحيد هو أن الإنسان يبقى خائفا من الانحطاط والفشل في الدنيا، بينما يكون مصونا من هذا الخطر في الآخرة. ومَثل هذا العالم كمدرسة في العلوم الروحانية، واحتمال النجاح والفشل قائم فيها، أما مثل العالَم الأخروي فهو كشخص اجتازَ جميع الامتحانات وشرع في البحوث والتحقيقات العلمية. لا شك أن الأخير أيضا يقوم بالمجهود، بل في بعض الأحيان يجتهد الباحث والمحقق أكثر من الطالب، ولكن هناك فرق بينه وبين الطالب وهو أن الطالب يكون خائفا من الفشل في الامتحان، أما الباحث والمحقق فلا يخاف فشلا ولا انحطاطا.

يتضح من البيان المذكور آنفا أن سعادة الجنة ونعمتها الحقيقية في الإسلام هي التقدم الروحاني في الحقيقة، وليست المتعة السفلية التي تُنسب إليه. يقول الله تعالى في القرآن الكريم بأن أكبر وأفضل نعمة من نِعم الجنة هي رضا الله تعالى، وإن أكبر سعادة فيها تكون رؤية الله بحسب قول النبي ﷺ[1].

فزبدة الكلام أن جنة المؤمن تكمن في الحصول على العلم الحقيقي والعمل به ونيل قرب الله تعالى والاتصال به ﷻ عن طريق العلم والعمل، ولا يمكن أن يكون هناك هدف أفضل منه.

لقد بيّنتُ إلى الآن تعليم الأحمدية حول جميع الأسئلة التي يجب على الأديان أن تبين عنها تعليما صحيحا. وآمل أن يكون الذي ألقى السمع إلى

---

[1] سنن الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى.

كلامي وأصغى قد توصل إلى نتيجة أنه لا تعليمَ أفضل من تعليم الإسلام، وخاصة أن مزيته أنه يوصل الإنسان إلى الله تعالى عمليا ويسد باب كافة أنواع النقاش. لماذا خُلق الإنسان في الدنيا؟ لسبب وحيد وهو أن يلقى ربَّه. لذا فإن الدين الذي يوصلنا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ هو الدين المفيد والنافع لنا، وليس الذي يعلِّلنا بكلام معسول.

تأثير تعليم المسيح الموعود عليه السلام

بعد بيان تعليم المسيح الموعود عليه السلام أود أن أبين الآن كيف أثَّر هذا التعليم في جماعته؟

اِعلموا أن المسيح الموعود عليه السلام لم يكن مرآة للأفكار السائدة في عصره بل جاء بتعليم يخالف التيار والميول السائدة. فلو تأملنا في الموضوع جيدا لوجدنا أن تيار الأفكار في العصر الراهن متّجه إلى جهتين: أُولاهما أنه يجب ألا تكون هناك علاقة متينة بين الله وعبده، بل يجب أن يكون الإنسان حرا طليقا. لذا فالأديان الجديدة والقديمة كلها قد انجرفت مع هذا التيار وتحاول أن تجذب الناس إلى نفسها إما بتغيير حقيقة العبادات أو الإنقاص منها.

والتيار الثاني السائد في العصر الراهن هو أن الناس قد قرروا ألا يحدث أي تغيّر في أساس الحضارة التي قامت في العالم في غضون عدة قرون، ليس لأن تلك الحضارة هي الأعلى والأكمل، بل لأن الناس تعودوا عليها وليسوا مستعدين لتركها، بل يحاولون أن يجعلوا تعاليم أديانهم القديمة أو الحديثة تابعة لهذه الحضارة لأنهم يعرفون أنهم غير قادرين على التصدي لها. وهم يفكرون في تسوية موقفهم وتعديله حول عدة أمور مثل الربا، الحجاب، تعدد الزوجات وغيرها، ويحاولون أن يجعلوا تعاليمهم منسجمة مع الأفكار السائدة في الحضارة الرائجة. ولكن على عكس ذلك فقد أسس المسيح الموعود عليه السلام تعليمه على

الدين وحده وليس على الأفكار السائدة. فكان عليه السلام مصلحا بالمعنى الحقيقي ولم يكن بُوقًا في فم الدهر ليعلن بأعلى صوته ما يريد الدهر قوله. لقد تصدى حضرته لكِلا التيارَين السائدَين في المجتمع، أي تيار الحرية الدينية وتيار العبودية الحضارية. فلم ينقص من العبادات شيئا ولم يُزِلْـها بل وجّه أنظار الناس إلى أمر الإسلام القديم وأظهر عليهم حقيقة العبادة وخلق في قلوبهم حماسا حقيقيا للعبادة ووطّد علاقتهم مع الله عز وجل. ولم يكتفِ بتوجيه الناس إلى الصلوات فقط، بل رغّبهم في الالتزام بالنوافل أيضا، لأن العبادة ليست غرامة بل هي وسيلة للرقي الروحاني. وحث على الصوم الذي كان قد اختفى نهائيا من الأديان الأخرى في ذلك العصر، بل لم يلقَ اهتماما لائقًا قط في الشريحة المثقفة من المسلمين أيضا، فقد أثبت عليه السلام ضرورة الصوم من خلال البراهين الروحانية والمادية، ووجَّه أنظار الناس إليه. كذلك بيّن لهم حقيقة ذكر الله والحج والأضاحي وحرّضهم على الالتزام بها.

كما حرّرهم عليه السلام من عبودية الحضارة أيضا وأظهر لهم خطأ التقليد الأعمى الذي كانوا واقعين فيه، وأظهر جمال الحضارة الإسلامية. كما كشف اللثام عن مساوئ الربا وبيّن ضرورة الحجاب، ووضح ضرورة تعدد الزوجات، وبيّن أهمية الطلاق أيضا. باختصار، قد رفع عقيرته بتقديم تعليم الإسلام علنا حول القضايا التي كان من المستحيل في الظروف العادية أن ينبس الناس حولها ببنت شفة نظرا إلى تيارات العصر، ولكنه لم يأبه لأفكار الناس قط.

لا أريد الخوض هنا في تفاصيل الأفكار والوساوس القديمة التي كانت رائجة في غير المثقفين من الناس، والتي تصدى لها حضرته عليه السلام، إذ قد يقول قائل بأن الزمن كان سيصلحها تلقائيا.

لقد كان تأثير التعليم- المضاد لتيارات العصر- ذلك الذي أعطاه المسيح الموعود عليه السلام أن أعاد إلى الصواب مئات الألوف من الناس الذين كانوا قد

انجرفوا مع تيارات العصر، فنهضوا وتأملوا في التعليم الإسلامي ووجدوه أفضل من التعاليم كافة. والذين كانوا واقعين فريسة في براثن الإلحاد والمادية من قبل، وأنكروا وجود الله تعالى ناهيك عن عبادته، فقد جعلهم الﷺ ملتزمين بصلاة التهجد وذكر الله تعالى. أذهانهم مستنيرة بالثقافة الغربية وفكرهم يحتوي على أفكار جديدة ولكن قلوبهم مترعة بحب الله ﷻ، وتبقى جباهُهم خاضعة على عتبات الله. إنهم يذكرون الله ليل نهارَ، واتخذوا الدين شعارا لهم مع تحليهم بالثقافة الحديثة.

لقد حرّر الﷺ كثيرا من الناس من عبودية الحضارة وأخرجهم إلى ميادين العقلِ والمنطقِ حيث الحريةُ والاستقلال. إن جماعته عاكفة على إصلاح التمدن والحضارة على الرغم من معارضة العصر، وتزيل أسس بنائها من التمتع والتلذذ، وتقيمها على أسس الصلاح والعفة والأخلاق الفاضلة.

لم يخلق المسيح الموعود الﷺ جنونا دينيا، وما لفّ الدينَ حول حُبٍّ كيانه ليركّز انتباه الناس إلى نقطة واحدة فقط، كما يفعل الذين يريدون أن يخلقوا عاطفة التضحية فقط معرضين عن بقية الصفات الحسنة كلها، بل قدّم حضرته كل شيء على قدر مرتبته، وحاول بكل الوسائل الممكنة إبقاء العقل الإنساني حيًّا بل تنميته أيضا. ومع ذلك يوجد في أبناء جماعته حماس يجعلهم جاهزين دائما ليقدموا في سبيل الله أنفسهم وأموالهم وكل ما لهم. شأنهم في ذلك شأن أصحاب النبي ﷺ الذين يقول القرآن الكريم عنهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾[1]؛ أي بعضهم حققوا أمنيتهم وضحوا بأنفسهم في سبيل الله، وبعضهم ينتظرون دورهم. ففي أفغانستان وجد الأحمديون فرصتين للتضحية بأرواحهم فضحوا بها بكل صمود وشجاعة. وأقصد من الفرصتين تلك المناسَبتين حين قيل للذَين استُشهدا أن يتراجعا عن الأحمدية ليُخلى

[1] سورة الأحزاب: ٢٤

سبيلهما ولكنهما لم يفعلا، وإلا فقد قُتل في أفغانستان أحمديون قد لا يقل عددهم عن عشرة أشخاص.

أهم شهادة من بينهم هي شهادة السيد عبد اللطيف الذي كان عالما كبيرا في أفغانستان، وكان يحتل مكانة مرموقة إلى درجة أنه أدّى مراسيم تتويج الأمير حبيب الله خانْ[1]. فعندما علم رضي الله عنه بوجود الجماعة الإسلامية الأحمدية، طلَب كُتُبها وقرأها وآمن بالمسيح الموعود عليه السلام. ثم اشتاق إلى زيارته، فاستأذن حاكم أفغانستان للحج وأراد المكوث في قاديان في طريقه إلى الحج. وحين وصل قاديان استولت عليه حالة حتى قرر أن يشق عصا التسيار ويمكث هناك ليزيد في معلوماته عن الأحمدية. فبقي في قاديان لعدة شهور قبل أن يسافر إلى وطنه. وقبل الرحيل إلى الوطن قال إن وطني يدعوني لأكشف على أهله طريق الصلاح بدمي، وقال أيضا بأني أراني لابسا الأصفاد. ففور وصوله إلى الوطن طلبه الأمير وسأله فيما إذا كان قد أصبح أحمديا؟ فأجاب بالإثبات. وبعد كثير من البحث والنقاش حُكم بقتله بناء على فتوى المشائخ. فاستدعاه الأمير مرارا ورغّبه في التراجع عن موقفه، ولكنه رفض كل مرة. وفي الأخير حُفرتْ حفرة ورُدِم فيها جسده إلى النصف. فجاء الأمير مع عساكره وجمع الناس من المدينة أيضا وتقرر أن يُرجم السيد عبد اللطيف. وفي اللحظات الأخيرة ذهب إليه الأمير مرة أخرى وقال له: يا صاحبي، ما زالت عندك فرصة التوبة. ولكنه أجاب: التوبة! عن مّاذا؟ لقد وجدت الحق ولا أستطيع أن أهجره. وقال أيضا: تذكروا أنه في

---

[1] الأمير حبيب الله خانْ، حاكم أفغانستان، تولى الحكومة في أول تشرين الأول عام١٩٠١م بعد وفاة والده عبد الرحمان خان. وفي عهده وعدت بريطانيا بتحرير أفغانستان. قُتل الأمير حبيب الله خان في ٢٠ شباط ١٩١٩م حين كان نازلا قرب قلعة السراج (النعمان) في "غوش" وادي النغار. (تليخصا عن الموسوعة الإسلامية الأردية، ج٧، ص٨٨٦- ٨٨٧، الناشر: جامعة بنجاب لاهور).

يوم الخميس الأول بعد وفاتي ستقوم القيامة وسأُحيا. فيئس الأمير وعاد، ثم أطلق الحجر الأول على سيد الشهداء، وبدأ الناس يرمونه بالأحجار من كل حدب وصوب. ولكن السيد عبد اللطيف ظل ثابتا صامدا حتى مُزِّق رأسه إربا بضربات الأحجار، ومال عنقه إلى جانب. ظل الظالمون يضربونه بالأحجار حتى تكوَّمت حول رأسه واختفى فيها، وطارت الروح الطاهرة لهذا المؤمن الصادق إلى بارئه ﷺ. رجع الناس إلى بيوتهم ووُضعت الحراسة على جثة الميت لكيلا يدفنه أحد. ولكن انتقام الله تعالى كان قريبا، والقيامة التي كان الشهيد قد أخبر بها قامت بغتة، إذ تفشت يوم الخميس إثر استشهاده في كابول، كوليرا شديدة وغير معهودة، وذلك على خلاف التوقع وعلى عكس التجارب السابقة وحصدت الناس حصدا وأزهقت بعض الأرواح من العائلة المالكة أيضا. لقد ألَّف المهندسُ الإنجليزي المحايد في أفغانستان واسمه: Frank A Martin كتابا بعنوان: Under the absolute Amir[1] ونقل فيه مجريات هذه الأحداث بكل بساطة وعفوية وهي جديرة بالقراءة. رغم أنه قد أورد فيه بعض الأمور بصورة خاطئة أيضا لعدم معرفته بالجماعة غير أن كتابه مع ذلك مؤثر جدا وخاصة لأن مؤلفه شخص محايد.

وقبل استشهاد السيد عبد اللطيف قُتل تلميذه البار المولوي عبد الرحمن خنقا، وكانت جريمته أنه كان ينتمي إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. إضافة إلى هذين الشخصين اللذين قتلتهما الحكومة، فقد قُتل عديد من الأحمديين على يد عامة الناس. فقد قتَل الناسُ أحمديَّين في الشهر الماضي. أما المشاكل والمعاناة الأخرى غير القتل فيتعرض لها الأحمديون هنالك دائما ويتحملونها بكل شجاعة وبسالة. ففي السنة الجارية حدث التمرد في منطقة "خوست"، وحين رأى المتمردون أنه لا قِبل لهم بجيوش سمو الأمير، أحرقوا قريتين للأحمديين بحجة أن

[1] Under the absolute Amir by: Frank A Martim P203- 204 Published in 1907

الأحمديين يغوون الأمير. ويحدث مرة أو مرتين كل سنة حتما أن الناس يغوون بعض المسؤولين المتعصبين ضد جماعتنا فيلقون القبض على من تسنى لهم من أبنائها، ثم يسوِّدون وجوه بعضهم ويُركبونهم الحميرَ ويتجولون بهم في المدينة، ويضربون بعضهم ويزجون بعضهم في السجون ويجبرونهم على دفع الغرامة قبل أن يطلق سراحهم. لقد ظل الأحمديون يتحملون كل هذه المصائب منذ ٢٥ سنة و لم يتزلزل إيمانهم قط بفضل الله تعالى بل يزداد يوما فيوما.

إنه لـــمِن نكران الجميل إن لم أذكر هنا أن سمو الأمير الحالي أمان الله خان- منذ أن تولى زمام السلطة في أفغانستان- قد قضى على هذه الاضطهادات والمظالم التي كانت تُصَبّ على الأحمديين من قبل الحكومة. غير أنه لم يفلح بعد في توطيد دعائم الأمن بصورة حقيقية، لأن البلاد لا تزال تمر بمراحل ابتدائية من النظام والإصلاح. ولكننا نأمل أنه لو راحت حكومة أفغانستان تعمل بروح العدل لحظي الأحمديون في فترة وجيزة بالأمن والراحة من قبل الحكومة والمسؤولين المحليين والرعية أيضا.

هذا باختصار فيما يتعلق بتضحية الأحمديين في أفغانستان. والأحمديون في الهند أيضا ليسوا أقل منهم تضحية ولا يختلفون عنهم حالا. ولأن الهند تحت حكم الإنجليز، فلا يمكن أن تقع فيها أحداث قتل الأحمديين مثلما تحدث في أفغانستان غير أنهم يؤذَون في كل مكان بالافتراء والكذب عليهم. والأحمديون يتحملون كل ذلك برحابة الصدر. لا شك أن القتل ابتلاء كبير، ولكن المصيبة التي يُمتحَن بها صبر الإنسان هي تلك التي تحل به رويدا رويدا. والأحمديون في الهند قد نالوا نصيبا وافرا من هذا النوع من المصائب والمصاعب، بل تِسعون بالمائة منهم يمرون بمثل هذه الظروف. وإن أجساد كثير منهم مليئة بآثار الضربات التي تلقوها بسبب قبولهم الأحمدية، وكثير منهم أُخرجوا من بيوتهم. كما طرد بعضُ الآباء أبناءَهم الصغار من البيوت ولكنهم ثبتوا وصمدوا. وفي

بعض الأحيان يتعرّض الأحمدي الوحيد في بعض القرى للضرب من جموع الرعاع، وليس هناك مَن يدلي بشهادة في حقه حين تحقق الشرطة في الأمر. وفي كثير من الأماكن لا يُسمح للأحمديين أن يدفنوا موتاهم في المقبرة العامة، وفي بعض الأماكن ينبشون قبور الأحمديين ويطرحون جثثهم خارجها. وقد مُنع الأحمديون من جلب الماء من الآبار في الصيف الشديد الحرارة، فاضطر العجائز والصغار إلى أن يبقوا عطاشى إلى أيام عدة وذلك حين كان الطقس حارا جدا حيث كانت درجة الحرارة في الظل تزيد على ١١٥ درجة فهرنهايت، وفي بعض الأماكن كان الناس يقاطعون المحلات التي أصحابها أحمديون فلا يشترون منهم السلع وكانوا يخرّبون مزارعهم أيضا. كما يرشقون بالحجارة الأساتذة الأحمديين أثناء دروسهم ومحاضراتهم. وأحيانا كثيرة فُصلت الزوجات عن أزواجهن غصبا وأُنكِحْن لغير الأحمديين، وفُصل الأولاد عن الآباء، وأخرج الأزواجُ زوجاتهم من بيوتهن بعد أن ضربوهن. وبما أن عدد الموظفين غير الأحمديين في الدوائر يكون أكبر، فيتعرض الموظفون الأحمديون للإيذاء والإساءة على يد زملائهم. يقاطع الناس الأطباءَ والمحامين الأحمديين أيضا قدر المستطاع. أما أصحاب المهن والحِرف فحدِّثْ عنهم ولا حرج، لأنهم يؤذَون إلى حد لا يطاق، فهناك كثير منهم كانوا ميسوري الحال حين كانوا غير أحمديين ولكنهم أصبحوا اليوم يفتقرون إلى قُوتهم اليومي. ولكن المسيح الموعود عليه السلام نفث في جماعته روحا بحيث يتحمل أبناؤها كل هذه المصائب بكل بسالة وشجاعة ولا يتركون إيمانهم ولا يخفونه، بل يعلنونه على الملأ ويظهرون نموذجا ساميا لتقديم الدين على الدنيا.

الأحمديون لا يختلفون عن غيرهم في لباسهم وعاداتهم وملامحهم ولكن تعليم المسيح الموعود عليه السلام قد أثّر فيهم بحيث يعرفهم الناس فورا رغم عدم الاختلاف في اللباس وغيره. والسبب في ذلك عائد إلى أخلاقهم السامية التي

تميزهم عن غيرهم. إن نزاهة لسانهم من فحش الكلام والسباب والشتائم، وتحملهم المعاناة من أجل الآخرين، وإيثارهم الآخرين على أنفسهم، وتجنبهم الخداع والخيانة هي الأمور التي تجعلهم متميزين عن غيرهم في كل مكان. وكل مَن كان ملمًّا بالسيرة الأحمدية بشكل عام يعرفهم فورا إذا وقع نظره على أحمدي -وإن لم يعرفه شخصيا- أثناء سفر في القطار مثلا أو في جلسة أو اجتماع عام.

ولو عثرتَ على أبسط شخص من الأحمديين- أو قلْ أجهلِهم إن شئتَ- لوجدتَ ذكاءه وقدرته على النقاش غير عادية. إن تعليم المسيح الموعود عليه السلام قد أظهر معجزة غير عادية في تكوين هذه الجماعة، وهي أن الأحمدي بسبب تأثير تعليمه عليه السلام فيه، يكون من ناحية نشوانا في حب الله تعالى ورسوله وكلامه تاركا الإلحاد والرغبة عن الدين السائدة في الدنيا بشكل عام، ويعتبر نفسه مجرد مرآة صُنعت لانعكاس صفات الله تعالى فقط، ويقضي أيامه ولياليه في ذكر الله تعالى وعبادته ونراه مشغولا في الحصول على البركات الروحانية وإن كان ذلك على حساب مصالحه الدنيوية، ومن ناحية ثانية نجده- بسبب تأثير هذا التعليم فيه- من أكثر الناس معقولية في الدنيا وليس مستعدا ليقبل شيئا دون دليل وحجة، بل يقبل كل شيء بالحجة والبرهان ويريد من الآخرين أيضا أن يقبلوه بالحجة والبرهان. إنه لا يعادي العلوم الحديثة بل يؤيدها ولا يراها مخالفة للدين بل يجدها خادمة له. باختصار، إنه يريد أن تبقى حريته قائمة على أصولها فلا يقبل كل ما سمعه من آبائه وأجداده من الأساطير، كما لا يقبل دعوى كل من يدعي العلم والثقافة فلا يغتر بكل جديد بل يختبر كل شيء على محك العلم والعقل ويُحِلّ كل حقيقة محلها الذي أحلّها الله تعالى.

والتأثير الغريب الآخر الذي خلقه المسيح الموعود عليه السلام في جماعته هو أن أفراد جماعته قد سبقوا غيرهم في العلم والمعرفة بصورة غير عادية. إن نسبة

التعليم والثقافة عند الأحمديين أعلى بكثير بالمقارنة مع غيرهم من سكان الهند، وذلك مع عدم وجود مدارس منفصلة لهم بسبب الفقر السائد في البلاد بشكل عام. فهناك عدد لا بأس به منهم نالوا التعليم في سن متأخر. ولقد راج التعليم في النساء على نطاق واسع حتى تبدو كثير من البيوت في قاديان كأنها مدارس. السيدات البالغات من العمر سبعين سنة أو أكثر يدرسن ترجمة معاني القرآن الكريم. ونرى أن الناس، رجالا ونساء، يتهافتون إلى قاديان من أقاليم مختلفة بل من بلاد مختلفة بغية تعلّم الدين.

وباختصار شديد، إذا كان في الدنيا مكان يُلاحظ فيه اجتماع أهل الشرق والغرب فهو ليس إلا قاديان وحدها، لأنه لو وُجدت الثقافة الغربية في أماكن أخرى فلا يوجد فيها الدين الذي منشؤه الشرق. ولو وُجد الدينُ في مكان ما لفُقد فيه الاهتمام بالعلوم الحديثة التي منبعها الغرب في هذه الأيام. ولكننا نرى هذين الأمرين مجتمعَين لدى الجماعة الإسلامية الأحمدية وخاصة في مركزها قاديان. فنرى الشرق والغرب مجتمعَين هنا رغم إعلان معاكس قام به Mr. Kipling [1]. فمن ناحية هناك حماس للحصول على العلوم الحديثة والتقدم فيها، ومن ناحية ثانية بلغ الإخلاص للدينِ واليقينُ بتعاليمه إلى درجة بحيث تبدو التضحية بالأرواح والأموال والوطن شيئا لا يُعتدّ به، وينفَّذ أبسط أوامر الدين أيضا بصورها الحقيقية بكل حذر وحيطة.

[1] مواطن بريطاني، وُلد في مومباي في ١٨٦٥/١٢/٣٠م لأبوين بريطانيين، ومات في لندن في ١٩٣٦/١/١٨م. كان كاتب قصص قصيرة، وشاعرا وروائيا. ولقد اشتهرت بوجه خاص قصائده وقصصه وحكاياته القصيرة عن الأطفال والجنود البريطانيين. كان أول شخص إنجليزي حاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٧م. (تلخيصا عن الموسوعة البريطانية، المجلد ٥، الطبعة ١٥، الصفحة ٨٢٨).

يوجد لدى الأحمديين اهتمام خاص بأداء حقوق النساء وتحريرهن من القيود غير المبررة. ولكنهم مع ذلك لا يقومون بشيء يخالف الدين. يلاحَظ فيهم التسامح الديني أكثر من أي قوم آخر. الخصومات التي تنشب بين حين وآخر بين بعض الفئات في الهند على أداء بعض التقاليد الدينية يراها الأحمديون أمورا صبيانية، ويحاولون أن يُقنعوا الناس أن يسمحوا لألدِّ أعداء الإسلام أيضا بالإفصاح عما في قلوبهم، ويسمعون منهم ويُسمعوهم.

أحد التغييرات العظيمة التي أحدثها المسيح الموعود في جماعته هو الإحساس بتقديم الدين على الدنيا. فكل أحمدي يعُدّ أمواله أمانة من الله في يده. والذين نالوا تربية الجماعة الإسلامية الأحمدية يتبرعون بـــ ١٦/١ من دخلهم الشهري في سبيل الدين بالتزام. إضافة إلى هذا التبرع يساهمون في تبرعات أخرى أيضا، ولو جُمعت كلها لوجدنا أن الأحمديين الذين نالوا تربية الجماعة يتبرعون، كل بحسب استطاعته، ما بين العشر والثلث من دخلهم الشهري. وإن تضحيتهم هذه لغريبة في أعين الآخرين حتى يظن بعضهم أن هذه الجماعة غنية جدا، ويقول البعض الآخر بأن الحكومة تساعدها. والحق أن الحكومة لا تساعدها ولا تستطيع ذلك أصلا، وإن جماعتنا فقيرة جدا إلى درجة أنه قد لا تكون في الهند جماعة أفقر منها. ولكن كل واحد منا يضحي بحاجاته ويتبرع من أجل سد حاجات الآخرين الدينية منها والأخلاقية والعلمية- إذ لا يُنفق إلا القليل في سبيل مواساة نوع البشر- من الأقوام الأخرى حتى ممّن كان دخله عشرة أضعاف بالمقارنة مع ما ينفقه الأحمديون. النساء أيضا لسن بأقل من الرجال تضحيةً في هذا المجال، فقد أثبتن بتضحياتهن أن في الدنيا نسوة لا يعشن من أجل الألبسة والحُلي وإنما يعشن لله وحده. ففي العام الماضي قدّمتُ أمامَ الجماعة مشروعا لبناء مسجد في ألمانيا وطلبت التبرعات من النساء فقط لإنجاز هذا المشروع. فكانت النتيجة أن عشرات بل مئات من السيدات بِعْنَ

حُليهن وألبستهن الفاخرة وقدمن ثمنها في هذا المشروع، وتبرعن أكثر من ضعفين مما طلبته منهن.

باختصار، إن تأثير الجماعة الإسلامية الأحمدية على المنتمين إليها لكبير وعميق وواضح في الوقت نفسه إلى درجة يترك الإنسان في حيرة من أمره، ويعترف بذلك أعدى أعداء الجماعة أيضا، ولكنهم يحاولون أن يحجبوا هذا التغيُّر تحت الأغطية ويقولون إن كل ذلك ناتج عن رياء ونفاق. ولكنني أقول: أي نفاق هذا الذي أعاد الصحة إلى المرضى وأحيا الموتى؟! ياليت هذا النوع من النفاق وُجد في كل أنحاء العالم!!

بعد بيان تأثير الجماعة على أبنائها بالإيجاز أنهي كلامي هنا وأخاطب جميع الإخوة والأخوات وأقول:

أيها الإخوة والأخوات، لقد خلقَنا الله تعالى لنُظهر جلال الله تعالى ولنتصبغ بصبغة صفاته ﷻ، ولن نُعدَّ من المفلحين ما لم نحقق هذا الهدف. ما معنى تقدمنا وترقياتنا الدنيوية؟ الحق أنه لا معنى لها أكثر من الهواية. ماذا تنفعنا كل هذه الترقيات لو أسخطنا ربَّنا وأغلقنا على أنفسنا أبواب التقدم الروحي الأبدي؟ لو كنا أكبر المبدعين في العالم ولم نتوجه إلى علم من خلاله يمكننا الحصول على النور في حياتنا الأبدية لكان مثلنا في تلك الحالة كمثل طالب يلهو ويلعب طول النهار ويفرح أنه صرع خصمه في المصارعة ولكنه لا يفكر في المباراة التي تضمن إصلاح حياته كلها. إنما الحياة الحقيقية هي الحياة الأبدية، والراحة الحقيقية هي تلك التي لا تنتهي، والعلم الحقيقي هو ذلك الذي ينمو ويزداد على الدوام. فانتبهوا إلى الحياة الأبدية والراحة الدائمة والعلم الحقيقي لتنالوا الراحة في كلا العالَمَين. واطلبوا رضى الله سبحانه وتعالى كما تتحرَّون رضى الناس في الدنيا.

أيها الإخوة والأخوات، لقد رأى الله تعالى حالتكم المأساوية ففتح عليكم باب رحمته وجاءكم بنفسه ليدعوكم إليه. فقدِّروا منّته عليكم وحبه لكم كما هو حقهما، ولا تردوا نِعَمه ولا تعرضوا عن مننه مستخفّين بها، لأنه خالق ومالك، ولا ينفع أمامه استكبارُ مستكبر. فتقدَّموا وادخلوا في باب أفضاله مسرعين لتأخذكم رحمته ﷻ في أحضانها ويحيط بكم رداء فضله ﷻ.

يا سكان بريطانيا، لقد أكرمكم الله ﷻ في الدنيا، ولكن هذا الإكرام قد زاد من مسؤولياتكم، فبتعاظم المنة تتعاظم المسؤولية. لقد وهبكم الله تعالى الحكم على البحار منذ قرون عدة، وبلادكم تُدعى مَلِكة البحار، ولكن هل توجهتم مرة إلى الملك الذي هو مصدر كل عزٍّ وشرف، الذي بنظرة مشفقة واحدة منه قد رفعكم إلى هذه المرتبة؟ هل تحريتم يوما بحر المعرفة الذي يزخر في قلب كل شخص يبحث عنه؟ ياليت! ياليت!...

قد توجَّهتم إلى الشمال، وتوجهتم إلى الجنوب وإلى كل بقعة في الأرض واكتشفتم كل غور وخضتموه، ولكن وللأسف الشديد لم تخوضوا بعد لتسبروا غور بحر المعرفة و لم ترسلوا الوفود للغوص فيه.

لقد تحريتم كل شبر من الأرض في البحث عن الجزر واليابسة! لقد توجّهت سفنكم إلى كل جهة، ولكنكم ما خرجتم في البحث عن الحبيب الذي هو خالق هذه الأراضي والجزر كلها. هل من العقل والحكمة في شيء أن يجمع الإنسان القشور ويهمل الثمار؟

أيها الإخوة، أبشركم بأن رحمة الله في هياج اليوم أيضا كما كانت قبل قرون من الزمان، وكما كانت في هياج في زمن سيدنا محمد ﷺ، وكما هاجت في زمن المسيح الناصري، وكما ماجت في زمن داود، وماجت في زمن موسى وإسحاق وإبراهيم ونوح عليهم السلام. وقد طلعت اليوم أيضا شمس معرفة الله تعالى كما كانت تطلع في أزمنة الأنبياء السابقين.

فاخرُجوا من البيوت وشموا نسيما معطرا بشذى رحمة الله في الهواء الطلق بدلا من شم الهواء الراكد في الغرف، ونوِّروا أعينكم بضوء الشمس لمعرفة الله تعالى وضيائها الطيب الجميل، لأن هذه أيام لا يجود بها الدهر كل يوم.

لا أقول ذلك لكم فحسب، بل أخاطب جميع الأمم التي تعيش تحت راية الحكومة الإنجليزية عيشا هادئا وأقول لهم: إن الله تعالى قد وضع على رؤوسكم يد رحمته، فاخفضوا له هاماتكم أدبا وطاعة.

أقول لأهل "ويلز": يا بلاد ويلز تأملي في مساعيك وجهودك وانظري ما هو نصيب الله في مساعيك؟ ويا بلاد سكتلندا أنت تفتخرين بأسلوب حياتك الحرة، فهل أبديت حرية في مجال فهم كلام الله وقبوله كما أبديتها في مجالات أخرى؟ ويا سكان أيرلندا، إن حبكم للوطن وحماسكم مضرب المثل فهل جعلتم لله نصيبا في هذا الحب؟ هل أبديتم الحماس نفسه للوصول إليه ﷻ كما أبديتم من أجل حكومة بلادكم؟

ويا سكان المستعمرات، إنكم تملكون قدرة خارقة في إسكان المستعمرات وتعمرون الأراضي الجديدة بكل شوق ولهفة، فلماذا أنتم غافلون عن عمارة جزيرة العرفان التي برزت في بحر العلم؟

فأكرر وأقول: لقد وضع الله على رؤوسكم يد بركته ورحمته، فاخفضوا له جناح الطاعة والأدب، فإنه مَلكٌ فوق الملوك كلهم وسلطان فوق السلاطين كلهم. أحنوا له رؤوسكم ليمسحها ببركات الدين كما مسحها ببركات الدنيا.

إن نِعم الله ليست محدودة، إنه إلهُ كلِّ بلد وربّ كل قوم، وإن عبده الحقيقي أَيضا لا يحبِّذ التقيد بالحدود والقيود. لا شك أنه يكون ناصحا أمينا لبلاده وقومه ولكن نظرته تترفع عن حدود القوم والبلد. فهو يسكن مترفِّعا كثيرا عن تلك الحدود ويكون ناصحا لبني البشر كلهم، ويجد في الناس كافة

أمارات الأخوة التي توجد فيهم لكونهم خلق اللهِ ربِّ العالمين. السود والبيض وأهل الشرق وأهل الغرب في نظره سواسية. إن عاطفة الخير للجميع راسخة في قلبه، والحب للجميع ثائر في صدره، ويكون مظهرا صادقا لله ربِّ العالمين.

لا أجعل خطابي هذا مقتصرا على قوم دون قوم، ولا على بلد دون بلد بل أدعو كافة الناس إلى رسالة الله التي لم يبخل بها على قوم، فأدعوهم إلى الإله الذي أبقى أبواب رحمته مفتوحة على سكان كل بلد على السواء. فأقول: يا أهل أميركا وأوروبا، ويا سكان أستراليا وأفريقيا، ويا سكان آسيا! انهضوا من نوم الغفلة وافتحوا أعينكم. لقد طلعت شمس حب الله تعالى من قرية قاديان المجهولة لكي تذَكِّر الجميع بحب الملك الأزلي الذي يكِنّه لعباده حتى تنقشع ظلمات الشكوك والشبهات كليا، ولكي يتلاشى شتاء الغفلة واللامبالاة، ولكي يفر بصورة نهائية قطاع الطرق والنهاب المتمثلون في الفسق والفجور والظلم وسفك الدماء والفساد وكل أنواع السيئات، الذين كانوا يفكرون دائما لينهبوا من الناس متاع الإيمان وثروة الأمن والسلام، ويختفوا في المغارات المظلمة التي هي المقام لهم. ولينال العباد ذوو القلوب الطاهرة وأصحاب النفوس النقية- الذين هم بمثابة الملائكة في هذه الدنيا- نصيبا من نوره سبحانه وتعالى، وبه ليمزقوا به رأس الأفعى الذي لدغ عقب آدم وحواء من قبل، ويكسروا أنياب الشيطان السامة وينقذوا العالم من شره إلى الأبد.

نعم! اسعَدوا وافرَحوا يا سكان أرض الشرق والغرب، واطرحوا الكآبة والحزن بعيدا عن قلوبكم، فقد جاء في نهاية المطاف عريس كنتم تنتظرونه. لا يجوز لكم اليوم حزن ولا كآبة، واليوم ليس يوم التحسر والتألم لكم، بل هو زمن أفراحكم وسعادتكم. والوقت ليس وقت اليأس والقنوط بل هو ساعة الآمال والأمنيات. فزينوا أنفسكم بزينة التقديس، والبسوا حُلى الطهارة إذ قد

تحققت أمانيكم القديمة وتحققت رغباتكم الممتدة على قرون. لقد نزل ربكم بنفسه في بيوتكم وإن مالِككم بنفسه يسأل عن رضاكم.

تعالوا، تعالوا ننس الخصومات الصبيانية ونجتمع على يد مرسَل من الله ونغنّي أناشيد حمد الله تعالى وننشد قصائد ثنائه، ونتمسك بأهدابه بكل قوة وشدة فلا ينفصل عنا ذلك الحبيب الأزلي أبدا. آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.